بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية

أسر دار بيت المقدس في عصر صلاح الدين

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعداد
عبد الله سعيد محمد الغامدي

إشراف الدكتور
حسنين محمد ربيع

١٤٠١ - ١٤٠٢هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

محتويات الرسالة

الملحق الثاني :

إهتمام صلاح الدين بأمر الجهاد .

الملحق الثالث :

خطبة القاضي محيي الدين بن زكي الدين بعد إسترداد بيت المقدس .

يوم الجمعة ٤ شعبان ٥٨٣ هـ

الملحق الرابع :

رسالة صلاح الدين الى الديوان العزيز للبشرى بفتح بيت المقدس .

المقدمة

دراسة نقدية لأهم مصادر البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين وبعد / .

فان لبيت المقدس أثره العميق الشائق فى نفس كل مسلم فى بقاع الأرض ، لاحتوائه على المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ، ومسرى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنه عرج به الى السماء .

والحديث عن تاريخ بيت المقدس ذو أهمية بالغة ، تشد القارئ الى التعرف عليه ، وذلك لكونه مجالا للصراع بين القوى منذ العصور الوسطى ، لما يحتله من مكانة مقدسة فى نفوس البشر على اختلاف دياناتهم السماوية . اذ المعروف أن المسلمين الأوائل فتحوا بيت المقدس ، وطهروا المسجد الأقصى من من براثن الروم ابان حركة الجهاد الاسلامى الأولى فى السنة الخامسة عشرة للهجرة . وظل فى أيديهم فترة طويلة من الزمن ، الى أن استغل الصليبيون فترة الانقسام التى حلت بالعالم الاسلامى فى العصور الوسطى ، وفرضوا سيادتهم عليه . وبعد فترة وجيزة عادت للاسلام صحوته وأعيدت فكرة احياء حركة الجهاد الاسلامى ، فتمكن المسلمون من استعادته من الصليبيين . ومن الأسباب التى دعت الى اختيار هذا الموضوع ، أنه موضوع ذو أهمية بالغة ، خاصة فيما يتعلق بفكرة احياء حركة الجهاد الاسلامى ، التى استدعى الأمر احياءها فى نفوس المسلمين لاستعادة بيت المقدس من أيدى أعداء الاسلام . وقد تجلى ذلك بوضوح فى عصر الدولة الصلاحية التى تعتبر بحق دولة جهادية ، حققت بفضل احياء فكرة الجهاد الاسلامى انتصارات عظيمة على الصليبيين فى العصور الوسطى .

وقد اعتمدت هذه الدراسة على مصادر أصلية تنقسم الى مجموعتين :

(١) مجموعة مؤلفات المؤرخين والكتّاب المعاصرين لصلاح الدين .

(٢) مجموعة الذين نقلوا عن مؤرخين معاصرين . ويأتي في مقدمة المجموعة الأولى كتابات القاضي الفاضل . وهو أبو علي عبد الرحيم بن القاضي علي بن أبي القاضي السعيد أبي محمد الحسن اللخمي ، العسقلاني المولد ، المصري الدار ، والمعروف بالقاضي الفاضل . ولد يوم الاثنين ١٥ جمادى الآخرة سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٥م . تولى والده القضاء بمدينة بيسان فنسبوا اليها وأرسله الى مصر ، فاشتغل بالأدب وحفظ القرآن ، ونبغ هناك فتولى بعض الوظائف في الدولة الفاطمية الى أن ولي صلاح الدين الوزارة الفاطمية ، فأسند الى القاضي الفاضل كتابة الانشاء . ومنذ ذلك الوقت لازم القاضي الفاضل صلاح الدين في مصر والشام ، وأخذ يحضر معه مشاوراته السياسية ، وكذلك أغلب حملاته العسكرية ضد الصليبيين . وتوفى القاضي الفاضل في سنة ٥٩٦ هـ/ ١٢٠٠ م .(١)

وقد أتاحت هذه الظروف الفرصة للقاضي الفاضل أن يدون مشاهداته كلها عن تاريخ صلاح الدين ، فيما عرف بالمتجددات أو المياومات أو المجريات ،(٢) وهي عبارة عن سجل للحوادث اليومية المتجددة من جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين . وقد اعتمد كثير من المؤرخين في كتاباتهم على هذه السجلات اليومية التي دونها القاضي الفاضل آنذاك ، مثل أبي شامة في كتابه الروضتين في أخبار الدولتين ، والمقريزي في كتابه الخطط ، وابن تغري بردى في كتابه النجوم الزاهرة وغيرهم .(٣)

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ١٥٨ ــ ١٥٩ ، ١٦١ ــ ١٦٢ ؛ نظير حسان سعداوي ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، ص ٢٩ ــ ٣٠ ، أنظر أيضا ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

(٢) أنظر ، نظير حسان سعداوي ، المرجع نفسه ، ص ٣٦ .

(٣) أنظر ابو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧٠٩ ؛ المقريزي ، الخطط ج ١ ، ص ٢٥٣ ؛ ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٥٦ .

وأمدت الرسائل التى كان القاضى الفاضل يكتبها على لسان صلاح الدين الى بلاط الخليفة العباسى فى بغداد والى غيره من الملوك والأمراء المسلمين هذا البحث بمعلومات غاية فى الأهمية • وقد ذكر ابن خلكان أن مسودات هذه الرسائل المتناثرة بين المجلدات والتعليقات والأوراق اذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد (١) •

وقد صورت لنا هذه المتجددات والرسائل ما بذله صلاح الدين من جهود جبارة أثمرت استرجاع بيت المقدس من أيدى الصليبيين ، فهى فى مضمونها قد شملت جهوده فى توحيد الجبهة الاسلامية التى ضمت مصر والشام وأجزاء من أرض العراق ، وحشد كل الامكانات والقوى الاسلامية لاقتلاع الوجود الصليبى من بلاد الشام • ولعل خير دليل على ذلك تلك الرسالة التى أنشأها القاضى الفاضل على لسان صلاح الدين الى الخليفة العباسى المستضىء بالله التى تعد أروع الرسائل التى كتبت فى السياسة والأدب (٢) •

ويلى ذلك فى الأهمية مؤلفات العماد الكاتب الاصفهانى وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله ، ولد بأصبهان سنة ٥١٩ هـ/١١٢٥م ونشأ بها ، ثم قدم بغداد فى حداثة سنه ، وانتظم فى المدرسة النظامية واتقن الفقه والحديث والنحو الأدب • وعاد الى أصبهان وتفقه على علمائها ، وعاد مرة أخرى الى بغداد واشتغل بالكتابة وبالوظائف الادارية

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ١٥٩ ؛ هناك مخطوطة محفوظة بمكتبة المتحف البريطانى بلندن عنوانها (عيون الرسائل الفاضلية) تحت رقم ؛ كما توجد مخطوطة أخرى فى دار الكتب المصرية لابن نباته تحمل اسم (مختارات من كلام القاضى الفاضل) ، تحت رقم (٣٨٨٢ أدب) •

(٢) أنظر ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٦ - ٦٢٣ ؛ نظير حسان سعداوى ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ص ٣٧ حاشية •

حيث ولاه الوزير ابن هبيره النظر بالبصرة ثم واسط (١) .

وما لبث العماد أن انتقل الى دمشق فى أيام السلطان نور الدين محمود والتحق بالمدرسة العمادية وهناك علم بنوجود نجم الدين أيوب والد صلاح الدين فبادر بالسلام عليه وعرفه ابنه صلاح الدين (٢) . وعاد العماد بعد وفاة نور الدين الى العراق ومكث بها الى أن بلغه خروج صلاح الدين من مصر الى دمشق فعزم على العودة الى بلاد الشام (٣) . وهناك التقى العماد بالقاضي فقدمه لصلاح الدين (٤) . ومنذ ذلك الوقت لازم العماد صلاح الدين فى السفر والحضر (٥) وظل ملازما له حتى وفاته وبوفاة صلاح الدين اختلفت أحوال العماد فلزم بيته بدمشق وأقبل على التأليف حتى وافته المنية فيها سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠٠ م (٦) .

صنف العماد كتبا عديدة فى التاريخ يهمنا منها كتابان الأول : كتاب البرق الشامى والثانى كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى . ويقع الأول فى سبعة مجلدات لم يعد موجودا منها سوى الثالث والخامس (٧) .

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ١٤٨ ؛ السبكى طبقات الشافعية ، ج ٦ ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ ؛ الباز العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٢٣٧ ؛ نظير سعداوى ، المرجع نفسه ، ص ١٩ ـ ٢٠ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ١٤٨ ؛ السبكى ، طبقات الشافعية ، ج ٦ ، ص ١٨٩ ، نظير سعداوى المرجع نفسه ، ص ٢٠ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ١٤٩ .

(٤) أنظر سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

(٥) العمرى ، مسالك الابصار ، ج ٧ ، ورقة ٣٧٢ ؛ أنظر أيضا نظير سعداوى المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ص ٢١ ـ ٢٢ .

(٦) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ١٥٢ ؛ السبكى ، طبقات الشافعية ، ج ٦ ، ص ١٨٠ نظير سعداوى ، المرجع نفسه ، ص ٢٣ .

(٧) السيد الباز العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٢٤٣ ؛ نظير حسان سعداوى ، المرجع نفسه ، ص ٢٤ .

استهل العماد حديثه فى كتابه هذا بالحديث عن نفسه وتاريخ حياته ونشأته وما جرى له فى خدمة السلطان نور الدين محمود ، وكيفية تملقه بخدمة السلطان صلاح الدين ، وذكر شيئا من الفتوحات فى الشام (١) وقد اختصر الفتح بن على البندارى أحد مؤرخى القرن السابع الهجرى هذا الكتاب وسماه سنا البرق الشامى . وقد أفاد هذا الكتاب البحث فائدة قيمة خاصة فيما يتعلق بالفترة الأولى من جهاد صلاح الدين ، تلك الفترة التى شملت مرحلة توحيد الجبهة الاسلامية استعدادا لجهاد الصليبيين .

أما كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى وهو الذى يهمنا بالدرجة الأولى فقد بدأ العماد تأليفه بعد وفاة صلاح الدين ، وتحدث فيه عن معركة حطين وفتح بيت المقدس وما تلا ذلك من صراع مع الصليبيين ممثلا فيما عرف بالحملة الصليبية الثالثة .

والواقع أن هذا الكتاب من المصادر الأصلية التى تناولت موضوع صلاح الدين واسترجاع بيت المقدس ، فقد تناول العماد فى هذا الكتاب بالتفصيل تلك الجهود العظيمة التى بذلها صلاح الدين فى الفترة الممتدة بين سنتى ٥٨٣ ـ ٥٨٩ هـ ، والتى تمكن صلاح الدين خلالها من ضرب الصليبيين ضربة قاصمة فى حطين ، ثم استرجاعه بيت المقدس منهم ، وانهاء محاولاتهم لاسترجاعه

وما يزيد المعلومات الواردة عن موضوع البحث فى هذا الكتاب أهمية ، أن كتابات العماد الأصفهانى هذه أنها تصوير لما شاهده العماد نفسه فى تلك

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ١٥٠ ، نظير سعداوى ، المرجع نفسه ، ص ٢٤ .

الفترة الهامة من جهاد صلاح الدين .

وقد اتبع العماد في تأليف كتابه هذا أسلوبا مغايرا للأساليب التى اتبعها المؤرخون في العصور الوسطى ، فقد حرص العماد في هذا الكتاب على تدوين أعمال صلاح الدين في أسلوب نثرى مسجوع يتطلب من الباحث التمعن والدقة حتى يتمكن من استخراج الحقائق التاريخية منه . واذا تمعن القارئ في ذلك الأسلوب المسجوع فانه يخرج منه بمعلومات توضح تلك الخطط السياسية والحربية التى اتبعها صلاح الدين أثناء جهوده لتصفية الوجود الصليبى من بلاد الشام .

ولا تقل أهمية عن ذلك كتابات المؤرخ ابن أبى طى وهو يحيى بن حامد ابو طى النجار بن ظافر بن على بن عبد الله الغسانى الحلبى ، ولد سنة ٥٧٥ هـ / ١١٨٠م في مدينة حلب التى كان أبوه رئيسا لنقابة النجارين بها ، وأحد زعماء الشيعة بها . وشب يحيى في حلب يتلقى العلم عن أبيه وعن علماء حلب ، وصنف كثيرا من الكتب في الفقه وغيره ، ولا تعرف بالضبط سنة وفاته التى كانت بين ٦٢٥ و ٦٣٠ هـ/١٢٣٣ . م .(١)

ومن أهم مصنفات ابن أبى طى كتابه (كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين) وهو الذى أطلق عليه أبو شامة (السيرة الصلاحية)(٢) . ورتب ابن أبى طى تاريخه هذا حسب السنين ، وهى الطريقة الحولية الشائعة بين مؤرخى

---

(١) الباز العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ ؛ نظير حسان سعداوى ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ص ٤ ؛ شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ .
(٢) أنظر ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٤١٥ .

العصور الوسطى . ويتميز أسلوبه بالسرد البسيط ، ويقترب من أسلوب ابن الأثير ، فهو موجز بعيد عن التكلف . وروى ابن أبي طي عن والده (١) . كما اعتمد على عدد (٢) من الوثائق منها رسائل القاضي الفاضل ، ومن مصادره أيضا كتابات ابن رزيق وابن أبي جرادة جد المؤرخ ابن العديم والعظيمي وابن القلانسي والعماد الأصفهاني ، ومؤلف مجهول في تاريخ مصر (٣) .

وكتاب السيرة الصلاحية يعتبر في عداد الكتب التاريخية المفقودة ، واعتمد عليه المؤرخ أبو شامه في كتابه (الروضتين في أخبار الدولتين) اعتمادا كبيرا لما تضمنه من معلومات هامة عن صلاح الدين يدلنا على ذلك قول أبي شامه " وهذا الذي ذكرناه من قصة شاور وما جرى بسببه للديار المصرية الى أن تمت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطا مشتملا على زيادات وفوائد في كتاب ليحيى بن أبي طي في السيرة الصلاحية ، فأحببت ذكره مختصرا " (٤) . ونقل عنه أبو شامه في كثير من المواضع (٥) .

وقد عني تاريخ ابن أبي طي بسيرة صلاح الدين ، فأمدنا بمعلومات قيمة عن تاريخ صلاح الدين وجهوده في توحيد الجبهة الاسلامية ، واحياء فكرة حركة الجهاد الاسلامي في نفوس المسلمين ومن ثم استرداد بيت المقدس من الصليبيين . وقد ظهرت تلك الاستفادة واضحة في كتاب الروضتين لأبي شامه ،

---

(١) نظير حسان سعداوي ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، ص ٤٠ ؛ شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ، ج ٢، ص ٢٥٤ .
(٢) أنظر ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ١، ق ٢ ، ص ٥٢٥ .
(٣) شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ، ج ٢، ص ٢٥٤ .
(٤) أبو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٥ .
(٥) أنظر على سبيل المثال ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ٢، ص ٥٣١ ، ٥٣٤ ، ٥٦١ ، ٥٨٨ ، ٦٣١ .

كما اعتمد على كتابات ابن أبى طيى مؤرخون آخرون يعدون من المصادر الهامة لهذا البحث . ويعاب على معظمهم أنه لم يشر الى ذلك فى كتاباته منهم ابن شداد ، صاحب الأعلاق الخطيرة وابن عبد الظاهر وابن ميسر وابن العديم والذهبى والمقريزى وابن قاضى شهبه وغيرهم . ويبدو أن كتاب السيرة الصلاحية هذا ظل موجودا حتى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى حين استخدمه ابن الفرات المتوفى سنة ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥م . ثم اختفى ولم يبق منه الا ما نقل عنه .(١)

ويعتبر كتاب الكامل فى التاريخ لابن الاثير الجزرى من أهم مصادر البحث وابن الأثير هو أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى ، المعروف بابن الأثير الجزرى ، والملقب بعز الدين . ولد سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م بجزيرة ابن عمر الواقعة على نهر الفرات والتى كان والده يشغل وظيفة هامة بها ، ثم تحول ابن الاثير مع والده الى الموصل لخدمة الأمراء الزنكيين ، وهناك نشأ نشأة علمية ، وتعلم على علماء العصر .(٢) وحظى بمكانة سامية لدى أمير الموصل فاستخدمه فى بعض المهام ، كما أوفده سفيرا الى أولى الأمر فى بغداد .(٣) ثم رحل الى بلاد الشام وتردد على دمشق وحلب لطلب العلم . وبرع فى كتابة التاريخ ، حتى اعتبر من أبرز المؤرخين المسلمين بعد الطبرى ، ومؤلفاته تبرز ذلك .(٤) توفى فى رمضان من سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣م .(٥)

---

(١) نظير حسان سعداوى ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، ص ٤ ؛ شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .

(٢) السبكى ، طبقات الشافعية ، ج ٨ ، ص ٢٩٩ ؛ نظير سعداوى ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ص ٦ ــ ٧ ؛ سعيد عاشور ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٣٩٣ ــ ٣٩٤ .

(٣) سعيد عاشور ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٣٩٤ .

(٤) شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ، ج ٢ ، ص ١١٢ .

(٥) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٣٤٩ ؛ السبكى ، طبقات الشافعية ج ٨ ، ص ٣٠٠ .

وكتاب الكامل في التاريخ يعتبر من المصادر الهامة لعصر صلاح الدين ، فقد استقى ابن الأثير معلوماته مما شاهده بنفسه يدلنا على ذلك قوله عند حديثه عن معركة تل السلطان سنة ٥٧١ هـ « فانني وقفت على جريدة العرض ، وترتيب العسكر للمصاف ميمنة وميسرة وقلبا وجاليشيه وغير ذلك »(١) وكذلك استقى كثيرا من الأخبار عن كبار رجال صلاح الدين وقادته يدلنا على ذلك قوله « فحكى لي الأفضل ولد صلاح الدين »(٢) وقوله عند حديثه عن حصار صلاح الدين لمدينة الرها سنة ٥٧٨ هـ « فحدثني بعض من كان بها من الجند أنه عد في غلاف رمح أربعة عشر خرقا وقد حرقته السهام »(٣) ونقل ابن الأثير أيضا عن العماد الأصفهاني في كتابه البرق الشامي(٤) وهو بهذا ينقل عن مصدر موثوق ، وذلك لأن العماد اشتهر بملازمته صلاح الدين ، لهذا فان كتاباته عن صلاح الدين كانت عن قرب . وقد امتاز ابن الأثير في كتابه الكامل بالدقة في ايراد الاحصاءات عن عدد الجيوش في المعارك وكذلك احصاءه للأسرى وغيرهم(٥) .

والواقع أن ابن الأثير في كتابه الكامل قد تناول بالتفصيل تاريخ صلاح الدين منذ خروجه مع عمه أسد الدين شيركوه الى مصر حتى آخر أيامه ، لذلك فهو من المصادر الأصلية التي تصور ما بذله صلاح الدين من جهود لتوحيد الجبهة الاسلامية ، وبث فكرة الجهاد الاسلامي في نفوس المسلمين ، وكيف تمكن صلاح الدين بفضل تلك السياسية القائمة على الجهاد الاسلامي من استرداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين ، وانهاء كل محاولاتهم لاستعادته من المسلمين .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢٩ .
(٢) أنظر ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٦ .
(٣) المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٤٨٣ .
(٤) أنظر ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢٩ .
(٥) أنظر المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٤٨٢ .

ويلاحظ على ابن الأثير فى كتابه الكامل تحاملهعلى صلاح الدين وميلـــه الواضح الى البيت الزنكى ، فكثيرا ما صب اللوم على صلاح الدين الذى أشتهـــر بتسامحه فى معاملة الصليبيين • ويرى ابن الأثير فى كتابه هذا أنه كان من الأفضل أن لا يفعل صلاح الدين ذلك وأن ذلك التسامح كان السبب الأكبر الذى سـبب المتاعب للمسلمين بعد ذلك فى صراعهم مع الصليبيين • ويظهر ذلك فيما ذكـــره عند حديثه عن حصار صلاح الدين لمدينة صور سنة ٥٨٣ هـ، وكذلك عند حديثـــه عن حصار عكا سنة ٥٨٥ هـ (١) •

ومنه يبدو لنا أن ابن الأثير فى كتابه الكامل كان متحاملا على صلاح الدين وأنه لم يستطع اخفاء حقده عليه فى أكثر من موضع ، حيث كان يتلمس المناســـبات لغمز صلاح الدين ونقده وذلك بحكم نشأته فى الموصل موطن الزنكيين الذين كـــان يتحيز لهم (٢) • ونسى ابن الأثير أن تلك السياسة الحكيمة التى سار عليها صلاح الدين باتباعه مبدأ التسامح مع الصليبيين هى التى مكنته من السيطرة على المدن الساحلية فى مدة لا تتجاوز الشهرين •

ويعتبر كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد من أهـــم مصادر البحث • وابن شداد هو بهاء الدين أبى المحاسن يوسف بن رافع بن تميم ابن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الأسدى قاضى حلب المعروف بابن شداد ، توفى والده وهو صغير السن فنشأ عند أخواله بنى شداد فنسب اليهم • ولد بالموصـــــل سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م وحفظ القرآن فى صغره وأخذ عن شيوخ الموصل ، ثم انحدر الى بغداد بعد التأهل التام ونزل بالمدرسة النظامية وعين فيها معيدا بعد وصوله

---

(١) أنظر مايلى ص :

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٢٣ ، حاشية ٤ سعيد عاشـــور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٢٩ •

اليها بقليل ، واستمر بها نحو أربع سنين ثم عاد مرة أخرى الى الموصل وذلك سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م فرتب مدرسا بالمدرسة التى أنشأها القاضى كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزورى (١) .

وسرعان ما أشتهر ابن شداد لدى الأمراء المواصلة بالحكمة وسداد الرأى فأوكلوا اليه عددا من المهام (٢) . وبقى بالعراق بعيدا عن صلاح الدين حتى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م وذلك أنه شد الرحال الى مكة فى سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧م لقصد الحج ، وعزم فى طريق عودته على زيارة بيت المقدس الذى كان صلاح الدين آنذاك قد استرده من الصليبيين . فلما سمع صلاح الدين بقدومه أبدى رغبته فى مقابلته ، واجتمع به صلاح الدين فأكرمه وطلب منه أن يسمعه جزءا من الحديث ، فقرأه عليه بنفسه ، ثم جمع كتابه فى فضائل الجهاد وقدمه الى السلطان صلاح الدين ، وطلب صلاح الدين من ابن شداد البقاء معه ، ثم ولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف ، ومنذ ذلك الوقت لازم ابن شداد صلاح الدين ولم يفارقه حتى وفاته (٣) . وبلغ الأمر بصلاح الدين أنه كان يفضى اليه بأمور لا يجب أن يطلع عليها أحدا (٤) . واستمر ابن شداد فى خدمة البيت الأيوبى

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ٨٤ ، ٨٦ ــ ٨٧ ؛ السبكى ، طبقات الشافعية ، ج ٨ ، ص ٣٤٠ ، والقاضى كمال الدين الشهرزورى هو ابو الفضل محمد بن ابى محمد عبد الله بن أبى احمد القاسم الشهرزورى ، كان فقيها أديبا شاعرا تولى القضاء فى الموصل ودمشق وحماه وحمص . توفى سنة ٥٧٢ هـ بدمشق (أنظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٤ ، ص ٢٤١ ــ ٢٤٤ ؛ ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٤٠ .

(٢) أنظر ما يلى ، ص

(٣) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ٨٨ ؛ السبكى ، طبقات الشافعية ، ج ٨ ، ص ٣٦١ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، مقدمة الشيال ، ص ١ ــ ٤ ؛ الباز العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٢٠٠ ، نظير حسان سعداوى ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، ص ١٥ ــ ١٦ .

(٤) أنظر ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٣٥ .

الى أن توفى سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤ (١) .

ولابن شداد عدد من المؤلفات التاريخية يهمنا منها كتابه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية الذى أمد البحث بمعلومات فى غاية الأهمية لأنه دون فيه بأسلوب ممتع حياة صلاح الدين شارحا خططه السياسية والعسكرية ومكارمه الأخلاقية . ويمكن تقسيم المعلومات التى تضمنها هذا الكتاب الى قسمين ؛ القسم الأول يشمل الفترة الأولى من حياة صلاح الدين حتى سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م . وقد بدأها ابن شداد بحديث مفصل عن مولد صلاح الدين ونشأته وخصائصه وأخلاقه وشمائله ، وهى الفترة التى سبقت مجيئه الى بلاد الشام . وقد اعتمد ابن شداد فى تدوين معلوماته عنها على ثقاته (٢) . أما القسم الثانى فيشمل الأحداث فى هذه السنة وما بعدها ، وقد اعتمد فى تدوينها على ما شاهده بنفسه ، يدلنا على ذلك ما ذكره ابن شداد نفسه من أنه خدم صلاح الدين من مستهل جمادى الأولى سنة ٥٨٤ هـ ، وأن جميع ما أورده من معلومات عن الأحداث السابقة لذلك قد استقاه عمن يثق به ممن شاهد تلك الأحداث ، ومنذ ذلك التاريخ لم يدون الا ما شاهده بنفسه أو أخبره به من الثقة خبرا يقارب العيان (٣) . وبالرغم من أنه قد اعتبر القسم الأول من هذا الكتاب الذى يشمل الفترة الواقعة بين سنتى ٥٦٥ هـ - ٥٨٤هـ/ ١١٦٩ - ١١٨٨م مصدرا ثانويا لا يخلو من الخطأ عن تفاصيل الحقيقة والتاريخ (٤) ، فانه يبدو أن ذلك القول قد جانبه الصواب

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ؛ الباز العرينى ، مؤرخو الحروب الصليبية ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .
(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، مقدمة الشيال .
(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧١ ؛ نذير حسان سعداوى ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ص ١٨ .
(٤) أنظر الباز العرينى ، مؤرخوا الحروب الصليبية ، ص ٢٠٤ .

بدليل أن ابن شداد لم يكتف بمجرد السماع فيما أورده من معلومات عن تلك الفترة بل قام بتحقيق ما سمعه ودونه عن تلك الفترة.(١) فضلا عن رجوع ابن شداد الى صلاح الدين نفسه عند تدوينه لأحداث تلك الفترة التى لم يتمكن من مشاهدتها ؛ بدليل قول ابن شداد عند حديثه عن حملات أسد الدين شيركوه على مصر «ولقد قال لى السلطان قدس الله روحه كنت أكره الناس للخروج فى هذه الدفعة»(٢)

أما الفترة الأخيرة من حياة صلاح الدين ، التى كان ابن شداد فيها قد اتصل بخدمته ، فان أدلة كثيرة تدل على أن ماكتبه ابن شداد كان تعبيرا عن مشاهداته الشخصية للأحداث وذلك بحكم مشاركته صلاح الدين أحداث تلك الفترة.(٣) وعليه يمكن القول بأن كتاب ابن شداد (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية) يعد مصدرا أصليا أمدنا بمعلومات قيمة عما بذله صلاح الدين من جهود عظيمة مكنته من استرداد بيت المقدس من أيدى الصليبيين . وأنه فى القسم الأخير من كتابه هذا الذى يشمل أحداث سنة ٥٨٤ هـ وما بعدها قد أعطى تلك الجهود تفصيلا واسعا وذلك بحكم مشاهداته لأحداث تلك الفترة ، وبخاصة حديثه عن مجئ الحملة الصليبية الثالثة الى بلاد الشام وفشلها فى استعادة بيت المقدس من المسلمين .

أما عن المجموعة الثانية لمصادر الرسالة فهى مؤلفات لمؤرخين عاشوا بعد عصر صلاح الدين غير أنهم نقلوا عن مؤرخين معاصرين . ويأتى فى مقدمة هؤلاء

---

(١) أنظر ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٨ ؛ نظير حسان سعداوى ، المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ص ١٨ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٩ .

(٣) أنظر على سبيل المثال ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠٨ – ١٠٩ ، ٢٣٥ .

كتابات المؤرخ شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي ، المعروف بأبي شامه الذى ولد سنة ٥٩٩ هـ ، ونبغ فى العلم حتى صار من كبار رجال الفقه والحديث والنحو واللغة والتاريخ وتوفى مقتولا فى منزله سنة ٥٦٥هـ/١٢٦٨ م (١) .

ألف أبو شامة الى جانب كتب الدين واللغة ، كتبا فى التاريخ يهمنا منها ، كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، وقصد به دولة نور الدين وصلاح الدين . ويمتاز هذا الكتاب بشهرة عظيمة وذلك لاعتماده على مصادر ضائعة لمؤرخين معاصرين لصلاح الدين ، مثل كتاب العماد الأصفهانى البرق الشامى وكتاب ابن أبى طى السيرة الصلاحية ، فضلا عن اعتماده على وثائق كثيرة يأتى بها فى مواضعها لتوثيق تاريخه .

وكتاب (أبو شامة) هذا لا يقل أهمية عن المصادر المعاصرة لصلاح الدين ، فقد أمد موضوع البحث بمعلومات قيمة ، وذلك لأنه اعتمد فى تدوين معلوماته على المصادر الأساسية لعصر صلاح الدين ، اذ استعرض أبو شامة آراء المؤرخين أمثال العماد وابن شداد ، وابن الأثير والقاضى الفاضل وابن أبى طى وغيرهم ، ليضع القارئ أمام الحقيقة الواضحة .

ويلى ذلك كتاب مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٧م ، وهو أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلو بن عبد الله التركى العونى البغدادى ، وجده لأمه الحافظ ابن الجوزى تلقى سبط ابن الجوزى العلم فى بغداد والموصل ودمشق

---

(١) السبكى ، طبقات الشافعية ، ج ٨ ، ص ١٦٧ ؛ شاكر مصطفى ، التاريخ العربى والمؤرخون ج ٢ ، ص ٢٦٦ .

وزار مصر ، فنبغ فى الحديث والفقه والتفسير والتاريخ . ويهمنا من مؤلفاته التاريخية كتابه مرآة الزمان فى وفيات الفضلاء والأعيان ، وهو تاريخ عام رتبه على أساس حولى وقد تناول بالحديث فى الجزء الثامن منه (١) ، ما بذله صلاح الدين من جهود مكثفة من استعادة بيت المقدس من أيدى الصليبيين .

والواقع أن هذا الكتاب يعد من المصادر الهامة التى تناولت البحث عن صلاح الدين واسترداد بيت المقدس ، وذلك لاعتماده على مصادر معاصرة لعصر صلاح الدين كابن شداد ، وكذلك جده ابن الجوزى صاحب المنتظم ، وابن الأثير وغيرهم (٢) . ويؤخذ على سبط ابن الجوزى أنه — على ما يبدو — قد تأثر بابن الأثير فى تحامله على صلاح الدين يدلنا على ذلك ما ذكره سبط عند حديثه عن حصار صلاح الدين لمدينة صور (٣) .

ويهمنا أيضا كتاب مضمار الحقائق وسر الخلائق لمؤرخ من البيت الأيوبى اسمه أبو المعالى محمد بن عبد الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب المعروف بابن شاهنشاه الأيوبى المتوفى سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م . ويقع كتابه هذا فى عشرة مجلدات (٤) ، فقد معظمها ، ولم يبق منه سوى جزء قليل ويعد هذا القسم من المصادر الهامة التى أمدتنا بمعلومات طيبة عن جهاد صلاح الدين

---

(١) طبع هذا الجزء من كتاب مرآة الزمان فى مطبعة حيدر اباد بالهند ، أما بقية الكتاب فلا يزال مخطوطا ، وتوجد أجزاء منه فى مكتبة أحمد الثالث باستانبول تحت رقم (٢٩٠٧) .

(٢) أنظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٧١ ، ٢٩٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٢ .

(٣) أنظر ما يلى ، ص

(٤) أبو شامه ، الذيل على الروضتين ، ص ١٢٤ ؛ شاكر مصطفى التاريخ العربى والمؤرخون ، ج ٢ ، ص ٢٤٩ .

لتصفية العدوان الصليبي من بلاد الشام • ويعتبر كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل للقاضى جمال الدين محمد المتوفى سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م من أهم المصادر التى تناولت بالبحث عصر صلاح الدين • فقد أمدنا هذا الكتاب بمعلومات قيمة عن جهود صلاح الدين لاسترداد بيت المقدس من أيدى الصليبيين ، وخاصة الجزء الثانى منه الذى تناول فيه ابن واصل بالتفصيل وفى أسلوب ممتع خطط صلاح الدين السياسية والعسكرية القائمة على أحياء فكرة الجهاد الاسلامى،تلك الفكرة التى تمكن بفضلها من تطهير بيت المقدس من براثن الصليبيين • واعتمد ابن واصل فى تدوين معلوماته فى هذا الكتاب على النقل عن مؤرخين معاصرين لصلاح الدين أمثال ابن شداد ، وابن الأثير ، والعماد الأصفهانى وغيرهم (١) • كما نقل ابن واصل عن أمير يدعى حسام الدين على ، وهذا الأخير كان يستقى معلوماته عن جده الذى كان فى خدمة صلاح الدين (٢) •

ومن المصادر الهامة لموضوع الرسالة كتاب (نهاية الأرب فى فنون الأدب) لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى المتوفى سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١ م • وقد أمدّ الجزء السادس والعشرون من نهاية الارب موضوع الرسالة بمعلومات تاريخية قيمة (٣) • وكتاب (الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب) لابن أيبك الدوادار المتوفى سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٢م • وتناول ابن أيبك فى هذا الكتاب جهود صلاح الدين لاسترداد بيت المقدس • كما تعتبر مؤلفات المؤرخ الكبير أحمد بن على المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م من أهم المصادر التى تناولت

---

(١) أنظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٨ •
(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٤٨ •
(٣) مخطوط مصور بدار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٥٤٩ معارف عامة •

موضوع البحث ، وخاصة كتاب (اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء) وكتاب (اغاثة الأمة بكشف الغمة) ، وكتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) ، وكتاب (الخطط) التى أفادت موضوع البحث عن جهود صلاح الدين لاسترداد بيت المقدس بمعلومات تاريخية قيمة . ولا يقل أهمية عن ذلك كتاب العماد الحنبلى ، الذى أسماه (شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب)(١) الذى أفاد البحث بمعلومات فى غاية الاهمية ، وكتاب (الروض المهضوب فى دولة أيوب)(٢) لابن سعيد الذى أمدنا بمعلومات طيبة عن موضوع الرسالة . وكتاب (تاريخ ابن أبى الهيجاء)(٣) لابن أبى الهيجاء نفسه ، وهو عبارة عن تاريخ عام أمد البحث بمعلومات طيبة .

أما بالنسبة لفصول الرسالة ، فقد تناول الفصل الأول وعنوانه (صلاح الدين وتوحيد الجبهة الاسلامية) ضعف النفوذ الفاطمى فى مصر بسبب المشاكل الداخلية وانتشار الأوبئة والمجاعات ، ومن ثم استغلال ذلك الضعف الذى حل بالدولة الفاطمية من جانب نور الدين محمود الذى أخذ يواصل جهود والده عماد الدين زنكى لاقامة جبهة اسلامية موحدة . وأوضحت الدراسة كيف تمكنت جيوشه التى دخلت مصر تحت قيادة أسد الدين شيركوه من فرض السيادة على مصر وتولى أسد الدين شيركوه الوزارة المصرية ، وما أعقب وفاة أسد الدين من تولى صلاح الدين الوزارة المصرية والتمكين لنفسه هناك ، واخماد الفتن التى ظهرت ضده . كما أوضحت الدراسة ما حدث بعد وفاة نور الدين محمود من

---

(١) مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٣١ .
(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٢٧١٢ تاريخ .
(٣) مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رقم ٩٤٥ .

اختلاف فى البيت الزنكى ومن ثم تفكير صلاح الدين فى القضاء على تلك الخلافات التى نشأت بين الأمراء بسبب تنافسهم على الفوز بالوصاية على الملك الصغير الصالح اسماعيل • فخرج صلاح الدين من مصر الى الشام ، وتمكن من انهاء تلك الخلافات بالسيطرة على المدن الشامية الهامة ، كما فرض سيطرته على مدن اقليم الجزيرة والموصل محققا بذلك اتمام مشروع الجبهة الاسلامية الذى ضم مصر وبلاد الشام ومعظم أراضى العراق ، فضلا عن الحجاز واليمن •

أما الفصل الثانى وعنوانه (جيش صلاح الدين وتنظيماته الحربية) فقد تناول بالشرح كيف تمكن صلاح الدين من احياء فكرة الجهاد الاسلامى فى نفوس المسلمين ، ومن ثم تفكيره فى تكوين جيش كبير منظم ، قام على أساس اقطاعى كفل لصلاح الدين توفير كافة الاحتياجات له ولجيشه من مؤن وعتاد وأسلحة ، فضلا عن كون هذا النظام الاقطاعى قد كفى صلاح الدين دفع رواتب لجيشه • كما تناول هذا الفصل بالدراسة ديوان الجيش الصلاحى الذى كان بمثابة الجهاز التنظيمى لنظام الاقطاع الحربى ، وكذلك عناصر الجيش الصلاحى الذى كان يتكون من الجيش السلطانى ، وجند الامراء ، وفرق الجند المتطوعة • كما عالج هذا الفصل أساليب القتال التى اتبعها صلاح الدين فى جهاده ضد الصليبيين ، وكذلك أنواع الاسلحة التى أستخدمت فى ذلك • وأخيرا تناولت الدراسة فى هذا الفصل دور صلاح الدين فى اعادة بناء الأسطول الاسلامى منذ بداية حكمه ، وما أسهم به الأسطول من مجهود وافر فى تحقيق النصر على الصليبيين باسترجاع بيت المقدس منهم •

وناقش الفصل الثالث وموضوعه (معركة حطين مقدمة لاسترداد بيت المقدس) ما سبق معركة حطين نفسها من مقدمات متمثلة فى انتصاره فى معركة

من العيون سنة ٥٧٥ هـ ، وإغاراته على مدن الساحل الشامي لمحاولة عـزل مملكة بيت المقدس عن الغرب الأوربي . كما تناول الفصل فشل غارة أرناط صاحب الكرك على ساحل البحر الأحمر ، واستعدادات صلاح الدين العسكر لمعركـة حطين ، تلك الاستعدادات التي شملت ضمان وصول الامدادات الى أرض المعركة ، فضلا عن ادخال الخلل والفرقة بين صفوف الصليبيين لاضعافهم . وأخيرا تناولت الدراسة في هذا الفصل تلك التنظيمات العسكرية التي اتبعها صلاح الدين عند اشتباكه مع الصليبيين في صفورية وحطين ، والتي أدت الى تحقيقه ذلك الانتصار الحاسم على الصليبيين وما ترتب عليه من نتائج عظيمة ، كان أهمها تلك الخسائر المادية والمعنوية التي منى بها الصليبيون .

وتناول الفصل الرابع وعنوانه (حصار واسترداد بيت المقدس) أحـوال مملكة بيت المقدس عقب معركة حطين ، التي باتت مفتقرة الى القادة والفرسان فضلا عن عزلها عن الغرب الأوربي والامارات الصليبية ببلاد الشام بسبب سيطرة صلاح الدين على مدن الساحل الشامي عقب انتصاره في حطين مباشرة . كما ناقش هذا الفصل ما قام به القادة الصليبيون من استعدادات عسكرية داخل بيت المقدس لمواجهة الهجوم الاسلامي ، وكذلك خطة صلاح الدين العسكرية لفتح بيت المقدس التي شملت جمع الحشود العسكرية ، وأدوات الحصار ، وكذلك اختيار المكان والزمان الملائم للهجوم على بيت المقدس ، وكيفية استسلام بيت المقدس بعد أن شعر الصليبيون بعدم مقدرتهم على مقاومة الهجوم الاسلامي . كما أوضحت الدراسة في هذا الفصل ما أبداه صلاح الدين عند دخوله بيت المقدس من تسامح منقطع النظير في معاملته لأسرى الصليبيين واحترامه لمشاعرهم . وأنه لتسامحه وشهامته لم يتأثر بما فعله الصليبيون بالمسلمين عند دخولهم بيت

المقدس . وأوضحت الدراسة أيضا صدى استرجاع بيت المقدس في العالم الاسلامي حين أرسل صلاح الدين البشائر باسترجاعه الى كافة ديار الاسلام حيث عبر ملوكه وأمراؤه عن مشاعرهم بارسال الوفود والرسائل لتهنئة صلاح الدين بذلك الفتح العظيم . كما تناولت الدراسة ما قام به صلاح الدين بعد دخول بيت المقدس من ازالة ما أستحدثه الصليبيون فيه ، وكذلك ما قام به من تطهيره المسجد الأقصى من شعارات صليبية . وأخيرا تناولت الدراسة في هذا الفصل أهمية استرجاع بيت المقدس بالنسبة لصلاح الدين نفسه ومكانته بين أبطال المسلمين ، فضلا عن أهمية ذلك بالنسبة لحركة الجهاد الاسلامي عامة وضد الصليبيين خاصة .

أما الفصل الخامس والأخير فقد ناقش موضوع (فشل الحملة الصليبية الثالثة في استرجاع بيت المقدس) حيث تناول بشيء من التفصيل آثار وأصداء استرجاع صلاح الدين لبيت المقدس في الغرب الأوربي وما ترتب على ذلك من جهود صليبية أدت الى دفع القادة الأوربيين الى تسيير حملة صليبية الى بلاد الشام لمساعدة فلول الصليبيين التي تجمعت داخل مدينة صور محاولة لاستعادة بيت المقدس من المسلمين . فناقش هذا الفصل طرق سير هذه الحملة وقادتها ، وما حل بجيوش هذه الحملة من كوارث ومتاعب أثناء سيرها الى بلاد الشام ، وكذلك ما حل بها من خسائر من جراء صراعها المرير مع الجيوش الاسلامية ، ومن ثم كيفية تمكنها من دخول عكا . كما عالج هذا الفصل عجز الصليبيين عن فرض سيطرتهم على المدن الساحلية الواقعة جنوب عكا وكذلك أحداث معركة ارسوف وما ترتب عليها من فشل ريتشارد قلب الاسد في استرجاع بيت المقدس . وأخيرا أوضحت الدراسة انتصار المسلمين بافشال مهمة الحملة الصليبية الثالثة التي

انتهت بعقد صلح الرملة ، الذى يعد فى حد ذاته نصرا للمسلمين لما ترتب عليه من عودة تلك الجموع الصليبية الى بلادها خائبة خاسرة .

ومن الواجب فى هذا المقام أن أتقدم بخالص شكرى وتقديرى واعترافى بالجميل الى أستاذى الفاضل المشرف على الرسالة الأستاذ الدكتور / حسنين محمد ربيع الذى لم يبخل على طيلة مدة البحث بغزير علمه ، ووافر توجيهاته وارشاداته العلمية السديدة . جزاه الله عنى وعن طلابه وطالباته خير الجزاء . كما لا يفوتنى أن أتقدم بخالص شكرى الى المسئولين فى مكتبة جامعة أم القرى بمكة المكرمة ومكتبة الحرم المكى الشريف ، ومكتبة جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، ودار الكتب المصرية ومكتبة جامعة القاهرة ومعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ، والمكتبة الظاهرية بدمشق ، ومكتبات أحمد الثالث والسليمانية ونور عثمانية وفاتح وكوبريلى باستانبول لما قدموه من مساعدات قيمة .

والله أسأله العون والسداد ، انه نعم المولى ونعم النصير وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

****

الفصل الأول

صلاح الدين وتوحيد الجبهة الاسلامية

- قضاء صلاح الدين على الخلافة الفاطمية في مصر سنة ٥٦٧ هـ/١١٧١م
- دخول صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م
- نزاع صلاح الدين مع الزنكيين : معركة قرون حماه ، معركة تل السلطان .
- إستيلاء صلاح الدين على مدن إقليم الجزيرة سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢ م .
- استيلاء صلاح الدين على حلب سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م .
- الموصل تدين بالولاء لصلاح الدين سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م .

الفصـــــل الأول

صـلاح الدين وتوحيد الجبهة الاسلامية

قضاء صلاح الدين على الخلافة الفاطمية في مصر سنة ٥٦٧ هـ :

تأسست الخلافة الفاطمية الشيعية سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩م ، حينما أخذت البيعة لعبيد الله المهدي في مدينة سجلماسة بافريقية . ثم انتقلت الخلافة الفاطمية الى مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م ، حيث أسست مدينة القاهرة لتكون عاصمة لهذه الخلافة التي وقفت موقف المعارض والمناوئ من الخلافة العباسية السنية في بغداد . على أن الضعف ما لبث أن دب في جسم الخلافة الفاطمية منذ أواخر عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ ـ ٤٧٨ هـ / ١٠٣٥ ـ ١٠٩٤ م) لأسباب كثيرة منها داخلي وبعضها خارجي اذ أخذ نفوذ الوزراء في الازدياد منذ أواخر عهده ، وبدأ ذلك باستئثار الوزير بدر الجمالي بالسلطة دون الخليفة ، وتغالي ابنه الافضل في اغتصاب حقوقه اذا قدم بعد وفاة الخليفة المستنصر على ابعاد ابنه نزار ولي عهده وأكبر أبنائه عن العرش ، وأقام مكانه أخاه الصغير أبا القاسم أحمد الذي لقب بالمستعلي بالله ليتمكن من التصرف في شئون الدولة .

وقد أدى اقصاء نزار عن الخلافة رغم أحقيته لها الى اضطراب الأمور في بعض البلاد المصرية ، وخاصة الاسكندرية التي خرج أهلها عن طاعة المستعلي وأعلنوا ولاءهم لنزار الذي قدم اليهم مع أحد اخوته ، فبايعوه بالخلافة

---

(١) المقريزي ، اتعاظ الحنفاء ، ج ٣ ، ص ١٢ ـ ١٣ ؛ أنظر جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية ص ١٦٣ .

ولقبوه بالمصطفى لدين الله ـ الأمر الذى أثار الأفضل بن بدر الجمالى ، فسار الى الاسكندرية على رأس حملة كبيرة . وهناك دارت معركة بينه وبين والى الاسكندرية ناصر الدولة افتكين . الذى وعده نزار بالوزارة ان ظفر هو بالخلافة . واستطاع والى الاسكندرية هزيمة الافضل وارجاعه الى القاهرة ، الا أن الأفضل لم ييأس من ذلك فأعد حملة جديدة فى أوائل سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥م وسار الى الاسكندرية للمرة الثانية ، وفرض عليها حصارا قويا ، أضطر على اثره كل من أفتكين ونزار الى طلب الامان ، فأمنهما الأفضل ثم أمر بانفاذهما الى القاهرة حيث نكل بهما (١).

وبالقضاء على تلك المحاولة التى قام بها نزار لاستعادة الخلافة لنفسه ، تمكن الافضل بن بدر الجمالى من القبض على شئون الحكم فى البلاد ، واستبد بالأمور دون المستعلى ، وبذلك دخلت مصر عهد نفوذ الوزراء . وأصبح الوزير يتمتع بالسلطة الكاملة فى مصر ، فهو صاحب الحل والعقد ، واليه الحكم فى جميع الامراء والاجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية ، وهو الذى يتولى توزيع المناصب الديوانية والدينية (٢).

ونتيجة لذلك ، أصبح منصب الوزارة فى مصر مجالا للتنافس بين كبار الرجال ـ الذين أخذوا يتعاقبون عليه بصورة غير معقولة . ففى سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩م تولى الخلافة الفاطمية الخليفة الظافر بأعداء الله ، بعد وفاة والده الحافظ ، وذلك بعهد منه (٣) . حدث هذا فى وقت كانت هذه الدولة

---

(١) المقريزى ، اتعاظ الحنفاء ، ج ٣ ، ص ١٤ ، جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية ، ص ١١٤ .
(٢) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٤٠ ؛
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٢ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٧٤ ؛ ابن ظافر الأزدى ، أخبار الدول المنقطعة ، ص ١٠٢ .

تسير من سوء الى أسوأ ، بسبب استبداد الوزراء بادارة دقة الخلافة ، وتنافسهم في ذلك . ففي خلافة الظافر ، التي لم تدم أكثر من أربع سنوات وسبعة أشهر تعاقب على منصب الوزارة ثلاثة وزراء كان أولهم نجم الدين بن مصال الملقب بالأفضل الذى لم تدم وزارته أكثر من خمسين يوما (١) ، اذ خرج عليه والى الاسكندرية ابن السلار ومعه ابن لزوجته يدعى عباس بن أبى الفتوح الصنهاجى (٢) . ولم يستطع ابن مصال مقاومتهما ، بل هرب الى بلدة بصعيد مصر يقال لها دلاص وذلك في شعبان من سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩م . ولم يكتف ابن السلار بهذا ، بل بعث عباسا المذكور ليتعقبه حتى أدركه بهذه البلدة وقتله (٣) . ودخل ابن السلار بعد ذلك القاهرة ، وتولى وزارة الظافر ، فلقبه الخليفة بالعادل أمير الجيوش ، فقام بأمور الدولة ، واستبد بها (٤) . الأمر الذى أثار حقد الخليفة عليه ، وحفزه الى تدبير مؤامرة أدت الى الاطاحة به ، وذلك بمساعدة عباس الصنهاجى ربيب ابن السلار الذى أخذ بدوره يتحين الفرص للفتك به كى يتولى أمر الوزارة من بعده (٥) . وهنا يبدو لنا مدى ما وصلت اليه

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ص ١٤٢ ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٤١٦ ـ ٤١٧ ؛ ابن ظافر ، أخبار الدول المنقطعة ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ، أما ابن خلدون فيذكر في العبر ، ج ٤ ، ص ٧٤ ، انها استمرت أربعين يوما فقط ؛ وابن مصال هذا هو من أهل (لك) بضم اللام ، وتشديد الكاف وهي بليدة عند برقة (ابن خلكان ، المصدر نفسه) .

(٢) هو أبو الفضل عباس بن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم بن باديس الصنهاجى ، قدم من أفريقية الى الديار المصرية ، ومعه والدته (بلاره) فتزوجها ابن السلار (أنظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٤١٧) .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٢ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ٧٤ ؛ ابن ظافر الازدى أخبار الدول المنقطعة ، ص ١٠٧ .

(٤) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٤١٦ .

(٥) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٢٠ .

الخلافة الفاطمية من ضعف بلغ بها حد تدخل الخلفاء أنفسهم فى مساعدة الرجال الطامعين فى منصب الوزارة مهما كلف ذلك من غدر وخيانة وتدبير مؤامرات ، وكأن لسان حالهم يقول " الخلافة فى مصر لمن غلب " (١) .

لم يكن عباس الصنهاجي عند توليه الوزارة أحسن حالا من سابقيه ، اذ استبد بالأمور وسيرها على هواه ، فسقطت عسقلان فى أيدى الصليبيين ، واقتطع نور الدين محمود الذى كانت حلب قاعدة حكمه فى ذلك الوقت دمشق من مجير الدين آبق (٢) . الأمر الذى جعل الخليفة الظافر يتذمر منه ، فلجأ الى الأسلوب المعتاد ، وهو تدبير المؤامرات . وعمد هذه المرة الى الاستعانة بابن عباس نفسه ، ووعده توليته الوزارة ، الا أن عباسا أطلع على المؤامرة وأدرك أنه لا سبيل الى بقائه الا بالقضاء على الخليفة الظافر ، ففتك به فى سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤م (٣) . ودخل عباس القصر متظاهرا بالسلام على الخليفة ، فلما لم يجده أنب من فى القصر على ذلك ، وأحضر أخوين للخليفة هما يوسف ، وجبريل ، وأتهمهما بقتل أخيهما ، فقتلا فى الحال ( ) . ثم أحضر عباس ابنا صغيرا للظافر اسمه عيسى لم يكن وقتذاك قد تجاوز خمس السنين وأجلسه على كرسى الخلافة خلفا لوالده المقتول مسندا اليه لقب الفائز بنصر الله ( ) .

---

(١) ابو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢٧ ؛ أنظر أيضا ، الحنبلى شفا القلوب ، ورقة ٥ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٢ .
(٣) أسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ص ١٩ — ٢٠ ؛ ابو الفداء ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٨ .
(٤) اسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ص ٢١ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ص ١٩٢ .
(٥) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٩٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ج ١٢ ، ص ٢٣١ .

واذا كان الوزير عباس قد حقق آماله ، باقامة خليفة عاجز ، ليبقى بذلك وزيرا ، فان فعلته تلك ، التى أدمت قلوب أهل القصر ، لم تغب عن أذهانهم ، بل سارعوا الى التفكير فى الانتقام منه ، ولجأوا الى الاستنجاد بأبى الغارات طلائع بن رزيك والى منية بنى خصيب فى صعيد مصر ، فسارع ابن رزيك الى نجدتهم (١) . أما عباس فقد وجد أن الامراء فى القاهرة غاضبون عليه ، وأبن رزيك قادم ، وأنه لا قبل له بذلك ، فأخذ يتأهب للنجاة بنفسه ، فهرب ومعه ابنه نصر ، وأسامة ابن منقذ متجها الى بلاد الشام ، قاصدا الاستنجاد بالملك العادل نور الدين محمود (٢) . لكنه ما ان اقترب من عسقلان حتى لقيه خيالة الصليبيين ، ودارت بينهما معركة حامية ، وقتل الصليبيون عباسا وأسروا ابنه ، فأرسل الصالح بن رزيك وأهل القصر الهدايا يطلبون تسليم ابن عباس لهم (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فانه بمجرد خروج العباس وابنه من القاهرة ، سارع ابن رزيك الى دخولها ، فخلع عليه الخليفة الفائز الفاطمى خلع الوزارة ، ولقبه بالملك الصالح (٤) . وكعادة من سبقه لم يكد يأنس بكرسى الوزارة ، حتى اتبع أسلوب الاستبداد وحب البقاء ، فعمل على تصفية كل من يشك فى اخلاصه

---

(١) اسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ص ٢٤ ؛ ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣٠ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٩٣ .

(٢) اسامة بن منقذ ، كتاب الاعتبار ، ص ٢٣ ؛ ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣٠ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٩٢ ؛ أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٢٨ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٩٣ ؛ ابو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ، ص ٢٨ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٩٣ ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٥٢٦ .

له ، فقبض على أصحاب البيوت الكبار وأعيان الدولة المصرية ، فقتل بعضهم ، وأبعد البعض الآخر عن مصر (١) .

والواقع أن أسلوب الاستبداد لم يقف بالصالح بن رزيك عند هذا الحد بل تعدى ذلك الى التدخل فى شئون الخليفة نفسه ، فعند وفاة الخليفة الفائز سنة ٥٥٥ هـ / ١١٥٩م أحضر أهل القصر شخصا راشدا صالحا للخلافة ، فتدخل خواصه ونصحوه بابعاده ، فاستجاب لنصحهم ، وطلب احضار العاضد لدين الله الذى وصفه ابن الأثير بأن كان مراهقا ، قارب البلوغ ، وبايعه بالخلافة (٢) . ولكى يحكم قبضته على الخليفة العاضد ، أقدم ابن رزيك على تزويجه من ابنته ، فأصبح بذلك وزيره وصهره (٣) . ويبدو من ذلك أن الصالح بن رزيك ، ربما قصد بذلك أن تنجب ابنته ابنا من الخليفة العاضد يكون بعده خليفة ، فتجتمع لبنى رزيك الخلافة مع الملك (٤) .

لم ترق سياسة الصالح هذه لأهل القصر ، وعلى رأسهم الخليفة العاضد نفسه ، الأمر الذى دعاهم الى التفكير فى التخلص منه وقتله (٥) . وكان قد أوصى قبل وفاته بالوزارة لابنه رزيك . فلما توفى ولى مقاليد الوزارة ، وخلع عليه الخليفة

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، ج ٧ ، ورقة ١١٧ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٩٤ ؛ ابن خلدون العبر ، ج ٤ ، ص ٧٦ ؛ على بيومى ، قيام الدولة الأيوبية ، ص ٩٦ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٥٥ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ج ١١ ، ص ٢٥٥ ؛ ابو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٣٧ .

(٤) جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ١٢٦ .

(٥) ابن ظافر الازدى ، أخبار الدول المنقطعة ، ص ١١٢ . ابن ايبك الدوادارى ، الدر المطلوب ، ص ١٦ . ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٧٤ ؛

العاضد ، ولقبه بالعادل وذلك فى سنة ٥٥٦ هـ / ١١٦٠م (١) . ولم تدم وزارته طويلا ، بل ثار عليه شاور السعدى (٢) ، الذى كان واليا على الصعيد ، عندما عندما حاول العادل رزيك عزله عن ولاية الصعيد ، متناسيا وصية والده بعدم التعرض له ، خوفا من خروجه عن طاعته (٣) . وجاهر شاور بالعصيان ، وسار على رأس جيشه فى اتجاه القاهرة ، وما أن وصل الى مشارفها حتى شعر ابن رزيك بالفشل أمامه ، فهرب بنفسه ، ودخل شاور القاهرة ، وحضر بين يدى الخليفة العاضد ، الذى خلع عليه الوزارة ، ولقبه بأمير الجيوش ، وذلك فى سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣م . ثم أمر بتعقب العادل رزيك ، فجئ به اليه وقتله (٤) .

لم يكن شاور هذا أحسن حالا من سابقيه ، فبمجرد توليه الوزارة سار على سيرتهم السيئة ، فاعتدى على دار الوزارة ، وهجم على دور العادل رزيك فنهبها ، كما عمل على مراقبة كبار العسكر ، واضطهدهم خوفا من منافسته (٥) . الأمر الذى جعلهم يتفقون على التآمر عليه ، وابعاده عن الوزارة ، وكان من جملتهم أبو الأشبال ضرغام (٦) الذى استطاع أن يضم حوله عددا كبيرا من الجند ،

---

(١) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١٩١ ب ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٧٤ — ٢٧٥ .

(٢) هو ابو شجاع شاور بن مجير الدين بن نزار من عشائر بن شاش ، قيل انه عرف بشاور السعدى نسبة الى حليمة السعدية (أنظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٤٣٩ ؛ العمرى ، مسالك الابصار ، ج ٧ ، ص ١٢٧) .

(٣) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١٩٢ أ ؛ العمرى ، مسالك الابصار ، ج ٧ ، ص ١١٥ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٩٠ ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٩٠ ؛ أما ابن واصل ، فيذكر فى التاريخ الصالحى ، ورقة ١٩٢ ب أن شاور عندما قبض عليه سجنه وضيق عليه فقط .

(٥) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١٩٣ أ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٩٠ ؛ ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ١٦٣ ؛ ابن الراهب ؛ على بيومى ، قيام الدولة الايوبية ، ص ٩٨ .

(٦) هو ابو الاشبال ضرغام بن عامر المنذرى كان مقدما على جماعة من الامراء ، =

وسار لمحاربة شاور ، فلقيه الأخير ، ودارت بينهما معركة انتهت بهزيمة شاور ودخل ضرغام بعدها القاهرة ، وتولى الوزارة فى رمضان من سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣م(١). أما شاور فقد هرب بنفسه متجها الى بلاد الشام ، بطلب النجدة من نور الدين محمود بن زنكى . وهنا يبدو لنا أن نور الدين محمود ، الذى كان يعمل آنذاك جاهدا فى بلاد الشام لتوحيد الجبهة الاسلامية للوقوف فى وجه الصليبيين ، أدرك مدى ما وصلت اليه الدولة الفاطمية فى مصر من تفكك وانحلال فرأى فى استنجاد شاور به فرصة طيبة للتدخل فى شئون مصر ، وضمها الى مشروع الوحدة الاسلامية ، لذلك سارع الى تلبية طلب شاور ووعده بالمساعدة على ضرغام(٢).

وهنا يظهر لنا جليا مدى ما وصلت اليها الخلافة من ضعف ، بسبب استبداد الوزراء وتعاقبهم ، حيث ولى الوزارة فى هذه السنة ثلاثة وزراء ، هم العادل رزيك وشاور السعدى ثم ابو الاشبال ضرغام الذى نهج نهج سابقيه ، فأستبد بالأمور ، وأخذ يوطد لنفسه فى الوزارة ، فعمل على التخلص من كثير من الأمراء ، لتخلو له البلاد من أى منازع(٣). الا أن لجوء شاور الى معسكر نور الدين محمود ، حرم ضرغاما من الاستمرار فى ذلك المنصب ، ثم أن ذلك مكن نور الدين من التدخل فى شئون مصر لتحقيق وحدة اسلامية بين الشام ومصر ، ووضع الصليبيين بين شقى الرحى — كما سنرى فيما بعد .

= يدعون (البرقية) وهم أمراء أنشأهم الصالح رزيك فى وزارته (أنظر المقريزى الخطط ، ج ٢ ، ص ١٢ ؛ ابن خلدون العبر ، ج ٤ ، ص ٧٧ ؛ اليافعى ، مرآة الجنان ، ج ٣ ، ص ٣١١ ، ٣١٢).

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٩٣ ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ص ٤٤٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٩٨ .

(٣) " " " " ، ١١ ، ص ١٩٣ ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ .

كان من أهم نتائج سياسة الاستبداد التى اتبعها الوزراء فى الدولة الفاطمية ، اضافة الى عدم وفاء النيل فى بعض السنوات ، أن حلت بمصر أزمات اقتصادية أدت الى اثارة الفوضى والشغب داخل البلاد كما حدث فى عهد الخليفة المستنصر فى سنة ٤٥٧ هـ / ١١٦٢م • فقد استمر انخفاض ماء النيل سبع سنين حتى تزايد الغلاء ، وأعقبه وباء أدى الى ترك الأراضى بدون زراعة • واضطر الخليفة المستنصر الى بيع ما فى قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره (١) • يضاف الى ذلك أن الوزراء أثقلوا كاهل الناس بالضرائب والمكوس التى استمرت تفرض عليهم (٢) •

وفى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله (٤٩٥ هـ / ١١٠١ ــ ١١٣٠م) وقع فى مصر غلاء شديد بلغ القمح فيه كل مائة أردب بمائة وثلاثين دينارا (٣) • كما حدث غلاء آخر فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله (٥٢٤ ــ ٥٤٤ هـ / ١١٣٠ ــ ١١٤٩م) بسبب القحط واحتكار بعض الناس للغلات ، حتى نقصت الأقوات ، واستاء الناس ، لولا مبادرة الوزير الافضل الذى تدارك الأمر بتتبع أسباب تلك الأزمة ، فأنزل العقوبة بجماعة من المحتكرين وفرض عليهم رقابة شديدة ، حتى عادت الأمور الى حالتها الطبيعية (٤) •

ومهما يكن من شئ فان هذه الازمات كانت لا تكاد تنفك حتى تعود مرة

---

(١) المقريزى ، اغاثة الأمة بكشف الغمة ، ص ٢٣ ، ٢٤ •
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٦٨ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٧ •
(٣) المقريزى ، اغاثة الأمة ، ص ٢٦ ــ ٢٧ •
(٤) المقريزى ، المصدر نفسه ، ص ٢٧ •

أخرى ، ففى عهد الخليفة الفائز (٥٤٩ ـ ٥٥٥ هـ / ١١٥٤ ـ ١١٦٠م) حلت أزمة اقتصادية أخرى ارتفعت على أثرها الاسعار ، وقلت السلع الضرورية فى الاسواق ، حتى تضرر الناس من ذلك ، واضطر الخليفة الى اصدار أوامره الى كل من عنده فائض عن حاجته باعطاء المحتاج حتى تزول الازمة (١) . كما يذكر المقريزى أيضا أن غلاء ومجاعة نزلا بمصر فى أيام الخليفة الفائز حيث قلت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، وحل بالناس كرب شديد ، اضطر معه الخليفة الفائز الى اخراج ما كان بالأهراء (٢) من غلات وتوزيعه على الفقراء والمحتاجين. كما أسهم جماعة من الأمراء وأهل البيوت الكبار فى ذلك (٣) . ومما لا شك فيه أن هذه المجاعات وما صاحبها من فوضى واضطراب ، لم يقتصر تأثيرها على عامة الناس فحسب ، بل أدت الى تزايد اطماع الصليبيين فى التدخل فى شئون مصر ، والطمع فى الاستيلاء عليها (٤) .

وفى الوقت الذى كانت الخلافة الفاطمية فى مصر تسير من سىء الى أسوأ ، بسبب تولى مقاليد الحكم فيها ، خلفاء ضعاف الشخصية أسلموا أمورهم الى وزراء عرفوا بسياسة الاستبداد وحب البقاء ، فى ذلك الوقت كان نور الدين محمود يدرك ما لمصر من أهمية فى مشروع الوحدة الاسلامية ، لعدة أسباب ، منها ما وصلت اليه الحالة فى مصر من ضعف ، واضطراب ، حتى أصبحت الأمور

---

(١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٣٦ .

(٢) الاهراء هى الاماكن التى كانت تخزن بها الغلات الخاصة بالخليفة تحسبا لمثل هذه الطوارىء الاقتصادية ، وكانت لا تفتح الا عند الضرورة ، (أنظر المقريزى السلوك ، ج ١ ، ص ٥٨ ، حاشية) .

(٣) المقريزى ، اغاثة الأمة ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٤) كلود كاهن ، تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ص ٢٤٩ .

هناك تسير بمجرد الايهام والمحال ، على حد تعبير ابن شداد[1] . هذا بالاضافة الى أن الصليبيين كانوا يدركون أن مصر هى مركز المقاومة الحقيقية فى العالم الاسلامى ، وبذلك غدت موضع اهتمامهم على اعتبار أنها الطريق الذى سيسهل لهم البقاء فى بيت المقدس .

ولا يخفى أيضا أن هناك سببا قويا ربما حرك عند نور الدين الرغبة فى غزو مصر لضمها الى مشروع الوحدة الاسلامية ، ووضع الصليبيين بين شقى الرحى للقضاء عليهم ، ذلك هو العامل المذهبى ، فالخلافة الفاطمية فى مصر ، كانت شيعية ، فى حين أن الخلافة العباسية فى بغداد تدين بالمذهب السنى ، وهذا بلا شك كان مصدرا من مصادر الفرقة فى العالم . لذلك كان من الطبيعى أن يعمل نور الدين محمود ــ وهو الحاكم السنى ــ على ازالة هذه الفرقة واعادة مصر الى حظيرة الخلافة العباسية السنية ، لتكوين جبهة اسلامية تمتد من الفرات الى النيل[2] . ويمكننا أن نلحق بذلك سببا رابعا ، هو أن مصر مشهورة بخيراتها الوفيرة التى لا تنضب ، والتى لا غنى عنها أثناء الجهاد ضد العدوان الصليبى .

وعلى كل فان نور الدين ــ ما أن وصل اليه فى دمشق شاور سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٤م مستنجدا به على ضرغام الخارج عليه ، ووعده بأن ينزل له عن ثلث خراج مصر اضافة الى اقطاعات الجيش ، وأن يقيم أسد الدين شيركوه بجيشه فى مصر ، ويتصرف بأمر نور الدين محمود . اذا ما عاونه فى التغلب

---

(١) أنظر ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٦ .
(٢) أنظر سعيد عاشور ، الايوبيون والمماليك ، ص ١٣ ــ ١٤ .

على ضرغام وانتزاع الوزارة منه حتى أحسن اليه وأكرمه ووعده النصرة واعادته الى الوزارة فى مصر ، قاصدا من ذلك كشف أخبار مصر والتعرف على أحوالها (١) .

وهنا تذكر المصادر أن نور الدين تردد بادئ الأمر فى اجابة شاور « فبقى يقدم لهذا الغرض رجلا ويؤخر أخرى » على حد تعبير ابن الأثير ، فتارة يعزم على مساعدته عطفا عليه ورغبة فى التوسع ، وأخرى يتخوف من الاقدام على ذلك لسببين ، أحدهما تخوفه من خطر الطريق لوجود الصليبيين بينه وبين مصر ، والثانى شكه فى اخلاص شاور له (٢) . ولعل مما يؤيد السبب الأول ، أن نور الدين خرج على رأس جيشه فى ذلك الوقت لمنازلة الصليبيين ، حتى يشغلهم عن التعرض لذلك الجيش الذاهب الى مصر (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فان أسد الدين شيركوه (٤) الذى ولاه نور الدين قيادة ذلك الجيش ، دخل مصر سالما ، ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، الذى كان لا يفصل أمرا ولا يقرر حالا الا بمشورته ، وجعله « مقدم عسكره وصاحب رايه » (٥) .

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٦ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٩٨ — ٢٩٩ ؛ ابو شامة ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٢ ؛ أنظر أيضا حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص ١٠٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٩٨ ؛ أنظر أيضا ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٢ ؛ ابن خلكان وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣١٦ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٩٩ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٨ — ١٣٩ . أنظر أيضا ، حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص ١٠٥ .

(٤) هو ابو الحارث شيركوه بن شاذى بن مروان ، لقب الملك المنصور أسد الدين ، وهو عم صلاح الدين (أنظر ترجمته فى ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٣١٧) .

(٥) أنظر ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٧ .

وسار شيركوه حتى وصل بلبيس ، وهناك لقيه ناصر الدين أخو ضرغام على رأس جيش كبير . ودارت بين الطرفين معركة انتهت بانتصار أسد الدين شيركوه ، الذى سار بعدها الى القاهرة ، فدخلها في أواخر جمادى الآخرة من سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٤م فخرج ضرغام منها هاربا بنفسه ولكن رجال شاور لحقوا به وقتلوه . وتولى شاور الوزارة مرة ثانية فى رجب من السنة نفسها (١) . وكما توقع نور الدين محمود ، فان شاورما أن تمكن من الوزارة حتى تنكر لعهده ، وكتب الى أسد الدين يطلب العودة الى الشام ، فلم يجبه الى ذلك ، بل طالبه بما وعدهم به . ولكن شاورا تمادى فى الرفض وألحّ على خروج أسد الدين ، الذى أرسل فرقة من جيشه استولت على بلبيس (٢) .

وهنا يبدو أن شاورا أدرك عجزه عن مقاومة شيركوه ، فبعث الى الصليبيين يطلب منهم مساعدته ، ويخوفهم من امتلاك نور الدين لمصر ، فسارعوا الى اجابته ، الأمر الذى أجبر نور الدين محمود على غزو ممتلكاتهم فى الشام لكى يشغلهم عن مساعدة شاور ، الا أن ذلك لم يمنعهم لعلمهم بأهمية مصر ، فتركوا فى الشام من يقاوم نور الدين ، وساروا يتقدمهم عموري الأول (Amarlic I) ملك بيت المقدس الى مصر ، واتجهوا صوب بلبيس التى كان يتمركز فيها شيركوه ، وحاصروه بها ثلاثة أشهر ، ولكنهم لم ينالوا منها شيئا رغم قلة الاستعدادات بها (٣) . وفى الوقت نفسه بلغهم انتصار نور الدين محمود

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٩٩ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٣٣٣ ، حسن حبشى نور الدين والصليبيون ص ١٠٦ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٩٩ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٩٩ ــ ٣٠٠ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٣٣٥ ــ ٣٣٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٣٩ ــ ١٤٠ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ؛ الذهبى العبر فى خبر من غبر ، ج ٤ ، ص ٨٦٧ .

فى حارم واستيلاؤه عليها ، ثم تقدمه الى بانياس . وهنا أدركوا خطورة الأمر ، ورأوا ، أنه لابد من العودة الى الشام ، فراسلوا أسد الدين شيركوه فى الصلح ، وتسليم ما بيده لشاور . ويبدو لنا من هذا أن شيركوه لم يكن يعلم بما فعلـــه نور الدين فى الشام من انتصارات ، هذا بالاضافة الى نقص الذخائر والأقوات عنده ، نتيجة لطول الحصار عليه ، فوافق شيركوه على الصلح ، وكان ذلك فـى ذى الحجة من سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٤م ، وعاد الى الشام سالما رغم ما تعـــرض له من الصليبيين فى طريق عودته (١) . وتعرف شيركوه على أحوال مصر ، وانغـــرس فى نفسه الطمع فيها ، حتى كانت مجالسه بالشام لا تخلو من التحدث بالرجـوع اليها ، وظل يمنى نفسه بالعودة اليها (٢) " وكان عنده من الحرص على ذلـــك كثير " (٣) .

وأدرك نور الدين محمود أن ثروة مصر ، ربما يفيد منها الصليبيـــون حربيا وماديا ، خاصة بعد أن بلغه أن شاورا قد كاتب الصليبيين ، طالبـــا منهم الدخول الى مصر لمساعدته ، وتمكينه فيها (٤) . فضلا عن استياء الخليفـــة الفاطمى العاضد ، الذى بعث الى نور الدين يستنجد به منه ، لاتباعه سياسة الظلم وسفك الدماء فى مصر (٥) ،

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٠٠ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٣٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٠ ؛ ابـــن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢١ ـ ٢٢ .

(٢) ابن سعيد ، الروض المعطار (المغضوب) ، ج ١ ، ورقة ٢٤ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٢٤ .

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٧ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ١٤٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٥٢ .

(٥) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٦٨ ؛ ابن تغـــرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٨ .

بالاضافة الى غدره بأسد الدين وعدم وفائه بعهده لنور الدين محمود (١) . كل ذلك كان كفيلا بتحريك همم نور الدين للدخول الى مصر ، حيث غادرت الحملة النورية الثانية دمشق فى ربيع الأول من سنة ٥٦٢ هـ / يناير ١١٦٧م فى طريقها الى مصر تحت قيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، الذى ذكر البعض أنه خرج الى مصر مكرها (٢) . ولكن الذى يهمنا هو أن صلاح الدين قد استفاد من اشتراكه فى تلك الحملات ، حيث وقف بنفسه على أحوال مصر وعرف أهلها ، فدخل مصر ، حتى وصل الى بلدة أطفيح (٣) ثم عبر النيل ، ونزل بالجيزة وعسكر هناك (٤) .

أما شاور فانه لما بلغه مجىء أسد الدين شيركوه ، كاتب الفرنج طالبا النجدة فأتوه فى جموع كثيرة ، يحدوهم الى ذلك أمران : الاول طمعهم فى مصر ، والثانى خوفهم من سيطرة نور الدين عليها (٥) . ثم سار بعد ذلك أسد الدين شيركوه بجيشه متجها الى الصعيد حتى وصل الى مكان يعرف بالبابين وتبعته جيوش مصر والصليبيين ، ولحقوا به هناك فى جمادى الآخرة من سنة ٥٦٢ هـ/ مارس ١١٦٧ . واستشار أسد الدين أصحابه فى ملاقاتهم فترددوا بادىء

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٣٦٣ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٨ ؛ ابن قاضى شهبه الكواكب الدرية ، ص ١٦٩ .

(٢) أنظر ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٩ ، ٣٠ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٧ .

(٣) اطفيح ، بلد بالصعيد الادنى من أرض مصر على شاطىء النيل الشرقى (أنظر ياقوت معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢١٨) .

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٧ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٢٤ ؛ ابن واصل مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٠ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٢٤ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٤٩ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٥٢ .

الأمر ، لكنهم عادوا واجتمعت كلمتهم على القتال . ودارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس انتهت بانتصار أسد الدين شيركوه ، وهزيمة أعدائه (١).

سار أسد الدين بعد هذه المعركة متجها الى الاسكندرية ، وما أن وصلها ، حتى سارع أهلها بتسليمها له ، بسبب ميلهم الى المذهب السنى ، فاستناب بها ابن أخيه صلاح الدين وعاد هو الى الصعيد (٢). ويبدو أن أسد الدين شيركوه ربما يكون قد خاف أن تصل لشاور والصليبيين بعد هزيمتهم فى معركة البابين امدادات من البحر ، لذلك سارع الى الاستيلاء على الاسكندرية لمنع ذلك . وهو ما حدث فعلا ففى الوقت الذى كانت قوات الصليبيين والفاطميين قد عادت الى القاهرة بعد واقعة البابين ، ثم زحفت الى الاسكندرية حيث قامت بحصارها برا ، كان الاسطول الصليبى قد شرع فى حصارها بحرا (٣) الأمر الذى أجبر أسد الدين شيركوه على ترك الصعيد والعودة الى الاسكندرية . وهنا يبدو أن هزيمة شاور وحلفائه فى البابين ، وتفرق عسكر اسد الدين بين الشمال والجنوب ، جعل كلا منهما يوافق على الصلح عندما بعث الصليبيون والفاطميون اليه فى طلبه ، مقابل اعطائه خمسين ألف دينار ، فأجاب طلبهم واشترط ألا يقيم الصليبيون فى البلاد المصرية ، ثم عاد شيركوه وصلاح الدين الى الشام (٤). عاد أسد الدين شيركوه من مصر الى الشام بعد أن عقد صلحا مع

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤٥ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٠ وعن تفاصيل موقعة البابين ، وأسباب هزيمة الصليبيين فيها ، أنظر حسن حبشى ، نور الدين والصليبيون ، ص ١١٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٢٦ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٥ ــ ٣٦٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥١ ؛ ابن العديم زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ .

(٣) أنظر جمال الدين سرور ، الدولة الفاطمية فى مصر ، ص ١٢٨ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٢٦ ــ ٣٢٧ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥١ ــ ١٥٢ .

شاور وحلفائه اشترط فيه لخروج الصليبيين جميعا من مصر ، الا أن الصليبيين اتفقوا مع شاور على أن يبقى لهم بالقاهرة مندوب أو شحنة (١) ، وأن تكون لهم حامية • تحرس أبواب المدينة وأسوارها ، هذا بالاضافة الى الزامهم شاورا بدفع مائة ألف دينار سنويا (٢) •

وهنا يبدو أن الصليبيين المقيمين بمصر أدركوا سهولة الاستيلاء عليها ، فبعثوا الى ملكهم عموري الأول ، يستدعونه لدخولها ، فرفض فى بادئ الأمر ، ولكنه عاد الى اجابة طلبهم مرغما • هذا بالاضافة الى ما قام به بعض أعيان الدولة الفاطمية الناقمين على شاور من الاتفاق مع عموري الاول على دخول مصر ومساعدتهم (٣) • وسار عموري الاول على رأس جيش كبير الى مصر ، فنزل بلبيس واستولى عليها فى صفر من سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨م ، ثم سار منها فى اتجاه القاهرة • وهنا يذكر ابن الأثير ، أن أهلها قاوموا الصليبيين خوفا من التعرض للمصير السيء الذى تعرض له أهل بلبيس ، وأن عموري لو أحسن السيرة فى بلبيس لملك القاهرة • أما شاور ، فيبدو أنه قد شعر بحرج موقفه أمام الصليبيين فأمر باشعال النار فى الفسطاط بعد أن نقل أهلها الى القاهرة (٤) •

---

(١) الشحنه : هو رئيس الشرطة والموكل بالأمن فى بلد من البلاد ، والشحنكية هى وظيفة رياسة الشرطة ـ أنظر المقريزى ، السلوك ، ج ١ قسم ١ ص ٣٥ ، ص ٩٧٩ ؛ سعداوى ، جيش مصر ، ص ٣٢ ، حاشية رقم (١) •

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٢٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٥ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٣٨ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٤ ، ج ١ ، ص ١٩ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٤ •

(٣) أنظر ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٦ ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦ •

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٣٦ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩٠ ـ ٣٩١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٥٧ •

وكان الخليفة الفاطمي قد أدرك خطر الصليبيين على بلاده ، وعجز شاور عن وقفهم ، فبعث الى نور الدين محمود يخبره بذلك ، ويطلب النجدة منه (١) . والواقع أن نور الدين لم يكن من الممكن أن يترك الصليبيين يستولون على مصر ، لما كان يعقد عليها من الآمال في تحقيق مشروع الوحدة الاسلامية . لذلك فلم يكد يسمع بعودة عموري اليها ، حتى سارع الى تجهيز قوة كبيرة بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين . الذى حرصت المصادر العربية على اظهاره في صورة الممتنع عن المجيء الى مصر في صحبة عمه شيركوه (٢) . ولكن يبدو أن المؤرخين انما قصدوا من تلك الاشارات ايضاح أهمية الدور الذى يمليه القدر المكتوب ، وكيف أن نور الدين ألح على صلاح الدين في الحضور الى مصر دون أن يدري أن صلاح الدين هذا سيكون منافسه في المستقبل ، وانه سيرثه في دولته .

وعلى كل فان شاورا عندما أدرك خطر الصليبيين ، حين شددوا الحصار على القاهرة اتبع أسلوب اللين والمفاوضة معهم ، فبعث الى عموري الأول ، يتودد اليه ويطلب المصالحة فوافق عموري بعد أن أشترط على شاور أن يدفع له مبلغا كبيرا من المال ، على أمل الاستعداد والعودة الى مصر مرة ثانية (٣) . أما أسد الدين شيركوه فقد اخترق الصحراء الى القاهرة حيث رحب به الناس والتفوا حوله . وهنا يبدو أن عموري الاول ، لم يجد حلفاء من الفاطميين فادرك فشله فعاد الى الشام يجر أذيال الخيبة . أما شيركوه ، فبمجرد

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ٣٣٦ ــ ٣٣٧ .
(٢) أنظر ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٣٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٥٠ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٣٧ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ص ٣٩١ .

دخوله القاهرة استدعاه الخليفة العاضد ، وخلع عليه خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور ، وذلك في ربيع الآخرة من سنة ٥٦٤ هـ / يناير ١١٦٩م (١) .

تولى أسد الدين شيركوه الوزارة للخليفة الفاطمي العاضد وتحقق بذلك ما كان يصبو اليه نور الدين محمود من تحقيق وحدة اسلامية تمتد من الفرات الى النيل لوضع الصليبيين بين شقي الرحى تمهيدا للقضاء عليهم . لذلك ، لم يكد يسمع بانتصار قائده شيركوه حتى غمرته فرحة كبيرة وبعث رسله بالبشائر الى مختلف البلاد (٢) .

وكان من الطبيعي أن يحقد شاور على شيركوه وخاصة بعد أن ظهر تأييد الخليفة العاضد لشيركوه . فأرسل شاور مرة أخرى الى الصليبيين يستدعيهم لمساعدته وطلب منهم الدخول الى مصر عن طريق دمياط (٣) . ويبدو أن الصليبيين قد تأخروا عن الوصول لمساعدته ، فأخذ يعمل على تدبير مؤامرة يقضي بها على شيركوه وأمراء نور الدين جميعا (٤) . لذلك اجتمع أعيان مصر ، وكبار قادة جيش شيركوه وقالوا له « ان شاورا سبب فساد البلاد والعباد » وطالبوه بقتله ، وانقاذ المسلمين من شره (٥) . وهنا يذكر ابن الاثير أن شيركوه نهى رجاله عن قتل

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٣٨ ـ ٣٣٩ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٣٢٧ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦١ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٣٩ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٧٦ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٣٩ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩٧ ؛ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٧٦ .
(٥) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٣٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٠٠ .

شاور ، فأجابوه الى ذلك فى الظاهر ، أما فى السرفقد عزموا على قتله (١) . ولعل السبب فى ذلك خوف شيركوه من ظهور فتنة فى مصر بسبب قتله قد تؤدى الى اضاعة جهوده . وقبض رجال شيركوه على شاور ولم يجهزوا عليه بل جاءوا به أسيرا اليه . ولم يفعل شيركوه به شيئا ، حتى أرسل اليه الخليفة العاضد ، يأمر بقتله ، وانفاذ رأسه اليه (٢) . وهكذا انتهى الأمر بقتل شاور فى ربيع الأول ٥٦٤ هـ / يناير ١١٦٩م واستمر أسد الدين شيركوه وزيرا للخليفة العاضد الفاطمى لمدة شهرين وخمسة أيام ، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى .

أما عن صلاح الدين فهو صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذى ولد فى قلعة تكريت سنة ٥٣٢ هـ / ١١٣٨م وكان والده أيوب واليا عليها . ولكن يبدو أن صلاح الدين لم يطل به المقام بها وذلك لانتقال أسرته الى الموصل ثم الى الشام ، حيث أصبح والده حاكما على بعلبك التى اقطعها اياه نور الدين محمود . وقضى صلاح الدين طفولته ببعلبك (٣) ، وتلقى بها ما يتلقاه الطفل المسلم من العلوم الاسلامية ، ولقى من الرعاية والاهتمام باعتباره ابن والى المدينة ، مالا يلقاه أبناء أوساط الناس ، فدرس القرآن الكريم والحديث والفقه والنحو والتاريخ واللغة والأدب . فضلا عن لعب الكرة والفروسية والصيد وغيرها مما يتاح لابناء الطبقات الحاكمة (٤) . ثم لحق الشاب صلاح الدين بعمه أسد

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤٠ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ص ٣٤٠ ؛ ابن واصل ، التاريخ الصالحى ورقة ١٩٤ ب ـ ١٩٥ أ ؛ مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٦ .
(٤) أنظر الباز العرينى ، الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ص ٢٩ .

الدين شيركوه فى حلب ، حيث كان شيركوه فى خدمة نور الدين وحصل على اقطاع بها ، ثم خلف صلاح الدين بعد ذلك أخاه الاكبر توران شاه فى شحنكية دمشق فى سنة ٥٥٠ هـ / ١١٥٦م بعد أن أصبحت دمشق من ممتلكات نور الدين . وأبدى صلاح الدين فى هذا المنصب قدرة كبيرة ومهارة فائقة ، غير أنه لم يلبث أن دب خلاف بينه وبين صاحب الديوان أدى الى تخليه عن ذلك المنصب (١) . ورجع صلاح الدين الى حلب مرة أخرى ، وهناك شمله نور الدين بعنايته ، لما بدا فيه من أمارات السعادة ولاح عليه من علامات التقدم والسيادة (٢) وظل نور الدين يقربه اليه ويخصصه وهو " كلما تقدم قدما تبدو منه أسباب تقتضى تقديمه " على حد تعبير ابن شداد (٣) . حتى اتفق لعمه أسد الدين شيركوه الدخول الى مصر فاصطحبه معه ـ كما سبق أن رأينا ـ . لتبدأ تلك المرحلة الهامة من حياة صلاح الدين .

ولم ينعم أسد الدين شيركوه بالحياة طويلا فى مصر اذ توفى فى ٢٢ جمادى الآخرة من سنة ٥٦٤ هـ / ٢٣ مارس ١١٦٩م وذلك بعد شهرين وخمسة أيام من توليه الوزارة (٤) . وولى الخليفة العاضد بعده ابن أخيه صلاح الدين ، وذكر ابو شامه نقلا عن ابن أبى طى أنه عندما توفى أسد الدين شيركوه وقع اختلاف بين العسكر الشامى فيمن يتولى الوزارة . ومالت الاسدية

---

(١) ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق١ ، ص
(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٦ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٦ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤١ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٤٠٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٦٨ ، البنداري ، سنا البرق الشامى ، ج ١ ، ص ٨١ .

الى صلاح الدين ، وفى تلك الساعة أرسل العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة فأشار عليه جماعة من الأمراء بشهاب الدين محمود الحارمى خال صلاح الدين فاستدعاه ، وخاطبه فىتولى الوزارة ، فامتنع من ذلك وأشار بولاية ابن أخته صلاح الدين . وكان الحارمى أولا قد رغب فى الوزارة وتحدث فيها ، فلما رأى مزاحمة بعض كبار الامراء له ، خاف أن يشتغل بطلبها فتفوته ، وربما فاتت صلاح الدين ، فأشار به لانها اذا كانت فى ابن أخته كانت فى بيته (١) .

وقد وجد ذلك قبولا لدى الخليفة العاضد لأن صلاح الدين لم تكن له بطانة بمصر وكان صغير السن ، ظنا من الخليفة الفاطمى أنه بذلك يستطيع التحكم فى الأمور على هواه ، ومن ثم منع نور الدين من التدخل فى شئون مصر بعد ذلك (٢) ، بالاضافة الى ايقاع الفتنة بين الامراء النوريين الكبار أمثال المشطوب والحارمى وغيرهما . هذا ما حدث بالفعل ، فقد رفض بعض الأمراء تولى صلاح الدين الوزارة ، لولا ذلك المجهود المثمر الذى بذله الفقيه عيسى الهكارى (٣) فى اقناعهم بذلك ، حيث استجابوا ما عدا عين الدولة ياروق الذى عاد الى الشام غاضبا (٤) .

---

(١) ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٤٣٨ ـ ٤٣٩ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤٣ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٤٠٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٧ .

(٣) هو الفقيه ابو محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد الهكارى ، من كبار رجال الدولة الصلاحية ، ذكر ابن خلكان أن نسبه ينتهى الى الحسن ابن على بن أبى طالب (أنظر وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٤٧٩) .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤٤ ؛ ابو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

لكن صلاح الدين لم يكد يتولى الوزارة ، حتى خيب آمال الخليفة العاضد ، فاستمال الناس بالغاء المكوس الفاطمية (١) ، وبذل الاموال والهبات والخلع لهم ، حتى أحبوه وساسهم سياسة حسنة (٢) . ولعل مما زاد الناس حبا له وتعلقا به ، تمكنه من صد تلك الغارة التى شنها الصليبيون على دمياط فى صفر من سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩م وردهم خائبين عنها (٣) . فضلا عما قام به أثناء وزارته من تأسيس المدارس وتحصين المدن والموانئ والثغور المصرية ، وبناء القلعة على طرف المقطم ، حتى استطاع أن يمكن لنفسه فى الوزارة ، ليبدأ بذلك صفحة جديدة فى تاريخ الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين ، انتهت بانتصاره عليهم واستعادة بيت المقدس .

ولكن يبدو أن الخليفة العاضد لم يكن وحده المستاء من نفوذ صلاح الدين وبالتالى نور الدين فى مصر ، بل ان ذلك امتد الى نفوس عامة الناس حيث قام الطواشى مؤتمن الخلافة (٤) أحد رجال القصر الفاطمى بالاتصال بالصليبيين ، وتحريضهم على مهاجمة مصر ، حتى يضطر صلاح الدين الى الخروج من القاهرة لصد غارتهم ، فيتمكن هو من القضاء على البقية الباقية من

---

(١) ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٣ .
(٢) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١٩٥ أ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤٤ .
(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤١ ـ ٤٣ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٥١ ـ ٣٥٢ ؛ ابو شامه الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٧٩ ؛ ابن ابيك الدوادارى ، الدر المطلوب ، ص ٤١ ؛ السبكى ، طبقات الشافعية ، ج ٧ ، ص ٣٥٥ .
(٤) مؤتمن الخلافة هو خصى متحكم فى القصر قيل أن اسمه جوهر (أنظر ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٠ .

رجال صلاح الدين بالداخل • الا أن صلاح الدين الذى كان — على ما يبدو — ويدرك استياء بعض الفاطميين من سياسته تلك قد جعل بمصر جواسيس لمراقبة كل التحركات هناك فاكتشف رجاله حامل رسالة مؤتمن الخلافة وهو فى طريقه بها الى الصليبيين ، فاكتشف صلاح الدين تلك المؤامرة فأسرع بقتل مؤتمن الخلافة وذلك فى سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩م (١) • وأثار مقتله غضب أتباعه من السودان ، فقرروا الخروج على صلاح الدين • الذى ما أن علم بذلك حتى جمع أصحابه ، واستعد لذلك ، فوصل السودان الى القاهرة • ودارت بين الطرفين معركة تجلت فيها مقدرة صلاح الدين الحربية ، فرجحت كفة جيشه ، حتى اضطر السودان الى طلب الأمان منه ، فأجابهم الى ذلك (٢) •

وفى الوقت الذى شدد نور الدين محمود هجماته على الصليبيين بالشام ، واستولى على الموصل سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧١م (٣) ، كانت هناك مشكلة عظيمة لها خطورتها تقلق باله ، تلك هى الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر • فنور الدين محمود ، كان سنيا يدين بالتبعية للخلافة العباسية فى بغداد ، اضافة الى أن علاقته بها قد ازدادت على ما يبدو وعقب استيلائه على الموصل (٤) •

أما صلاح الدين فى مصر فلم يكن أقل تحمسا للمذهب السنى ، اذ كان

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤٥ ، ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٧٦ ، المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٩ •

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤٧ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ •

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٤ •

(٤) سعيد عاشور الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص

شافعي المذهب فأخذ يعمل على نشر المذهب السني هناك ، تمهيدا لاعلان الخلافة العباسية في مصر . وبدأ صلاح الدين بعزل قضاة مصر الشيعة ، وعين مكانهم قضاة شافعية[1]. كما أنشأ مدارس للشافعية وأخرى للمالكية ووقف عليهما الأوقاف[2] ، كما عمل على الغاء " حي على خير العمل من الآذان "[3] ، بالاضافة الى ما قام به صلاح الدين من جهود لاضعاف مركز الخليفة العاضد وتقوية مركزه في مصر ، فيقال أنه تتبع جند العاضد ، واستولى على دور الامراء واقطاعاتهم ، وأعطاها لاصحابه ، ولم يبق للعاضد معه الا الاسم فقط[4]. ومع ذلك فان صلاح الدين ، ظل متخوفا من الاقدام على تلك الخطوة الكبيرة وهي اسقاط الخلافة الفاطمية في مصر . ولعل السبب في ذلك أن صلاح الدين نفسه ، كان حريصا على ابقاء الخلافة الفاطمية في صورتها الشكلية ، لاحساسه بتغير شعور نور الدين نحوه وتخوفه منه ، فأراد أن تبقى ليلوذ بها عند الحاجة[5]. يدلنا على

---

(١) النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٦ ، ورقة ١١٠ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣١٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٩٨ ؛ المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٩ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٥ .

(٢) ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٦ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٢٨٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٣٥٨ — ٣٥٩ ؛ البنداري ، سنا البرق الشامي ، ص ١١٠ تاريخ ابن الفرات م ٤ ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٦٣ .

(٤) المقريزي ، الخطط ، ص ٣٥٨ ؛ السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٧ ، ص ٣٤١ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٤ ، ج ١ ، ص ١٦١ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٨ ، أنظر أيضا سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٢٣ .

ذلك أن صلاح الدين عندما جاءته أوامر نور الدين بذلك ماطله بادئ الأمر بحجة خوفه من وثوب أهل مصر عليه لميلهم الى العلويين الا أن نور الدين لم يصغ اليه بل شدد عليه بذلك " وألزمه الزاما لا فسحة فيه " (١) . وأخيرا لم يسر صلاح الدين بدا من تنفيذ أوامر سيده نور الدين باعلان الخلافة العباسية فى مصر بعد أن استشار أصحابه وبعض الفقهاء (٢) فأمر الخطباء بالدعاء للخليفة العباسى على المنابر فى أول جمعة من المحرم سنة ٥٦٧ هـ / سبتمبر ١١٧١م (٣) .

أما الخليفة العاضد فيقال انه فى ذلك الحين مرض مرضا شديدا ، ولم يخبره أحد بما فعله صلاح الدين وقالوا " ان عوفى فهو يعلم ، وان توفى فلا ينبغى أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته " فمات يوم عاشوراء دون أن يعلم بذلك (٤) .

ومما لاشك فيه أن سقوط الخلافة ، كان حدثا خطيرا فى تاريخ العالم الاسلامى بوجه عام وفى مصر بوجه خاص ، فها هى دولة الفاطميين تنهار بعد

---

(١) العينى ، عقد الجمان ، ج ١٢ ، ورقة ١٦٥ ب ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ ؛ ابن العديم زبدة الحلب ، ج ٢ ص ٣٣٣ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول . ص ٢١٥ .

(٢) ذكر العينى فى عقد الجمان ، ج ١٢ ، ورقة ١٦٧ أ وابن الشحنه فى روضة المناظر ورقة ٧٠ ب ان صلاح الدين قبل الاقدام على قطع خطبة العاضد الفاطمى واقامتها للمستضئ العباسى ، استفتى الفقهاء ، فافتوه بجواز ذلك لما كان عليه الشيعة فى مصر من فساد الاعتقاد .

(٣) الاصفهانى ، البستان الجامع ، ورقة ١١٨ أ ؛ الكتبى ، عيون التواريخ ، ج ١٧ ، ورقة ١٣٥ أ ؛ ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٦ ؛ ابو شامه الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ج ١ ، ص ٢٠٠ أنظر أيضا : Cambridge History of Islam, P. 203.

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٠١ ؛ ابو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٥١ .

قرنين من الزمان تقريبا • لتعود للعالم الاسلامى وحدته هيبة ، وتصبح الخلافة العباسيه هى الخلافة الوحيدة التى تدين لها العالم الاسلامى بولائه الروحى • لذلك فلا غرابة اذا أقيمت الاحتفالات فى بغداد تعبيرا عن شعور الفرح بذلك النصر الذى تحقق للخلافة العباسية (١) حيث كان نور الدين قد بعث الى الخليفة العباسى في بغداد رسلا يبشرونه بذلك ، فرد عليه الخليفة المستضيء بارسال الخلع والتشريفات له ولصلاح الدين ومعها الاعلام والرايات السود شعار العباسيين (٢) •

ب

لم يؤد اعلان الخلافة العباسية فى مصر وموت الخليفة العاضد الى استتباب الأمور لصلاح الدين ، بل واجه فتنا عدة كان من أهمها ظهور بعض المنتمين الى الخلافة الفاطمية ، الذين حاولوا احياءها فى مصر• ففى سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤م دبرت مؤامرة اشترك فيها الناقمون على صلاح الدين ، وكان من زعمائها عمارة اليمنى وعبد الصمد الكاتب ، وداعى الدعاة (٣) فضلا عن غيرهم من جند مصر ، وبقايا السودان وحاشية القصر (٤) •

---

(١) سعيد عاشور ، الايوبيون والمماليك ، ص ٢٨ •
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٧١ ؛ البندارى ، سنا البرق الشامى ، ج ١ ، ص ١١٥ ــ ١١٧ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٧ •
(٣) عمارة اليمني : هو الفقيه ابو محمد عمارة بن أبى الحسن على الحكمى اليمنى الملقب نجم الدين والشاعر المشهور كان فقيها شافعى المذهب شديد التعصب للمذهب السني ، له كتاب فى تاريخ اليمن ، توفى سنة ٥٦٩ هـ• (أنظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٤٣١ ــ ٤٣٥) •
(٤) الحنبلى ، شفاء القلوب ، ورقة ٢٢ (مخطوط) ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ص ٣٩٨ ــ ٣٩٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٤٣ ــ ٢٤٤ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ •

ويبدو أن هؤلاء المتآمرين أدركوا عجزهم عن مواجهة صلاح الدين دون الاستعانة بقوة خارجية ، فاتصلوا بالاسماعيلية فى الشام ، وطلبوا منهم التدبير لقتل صلاح الدين — وذلك لما عرفوا به من براعة فى هذا المجال[1]. كما أن عمارة وأصحابه لم يكتفوا بهذا بل اتصلوا بالصليبيين فى الشام وصقلية ، واتفقوا معهم على غزو مصر. وفى الوقت نفسه يقومون هم باشعال الفتنة من الداخل. ولكن هذه المؤامرة كشفت واحبطت قبل أن تنفذ ، وذلك بفضل اشتراك زين الدين على بن الواعظ ، أحد رجال صلاح الدين مع مدبريها ، فقد أخبره بما عزم عليه أولئك فقبض عليهم[2]. وعندما تأكد له ذلك ، صلب زعماءهم فى رمضان من سنة ٥٦٩ هـ / ابريل ١١٧٤م. ثم التفت الى بقية المتآمرين من الفاطميين فنفاهم الى الصعيد. أما أهل القصر فقد فرض عليهم رقابة شديدة ، حتى لم يعد يصل اليهم شىء من أمر الدولة ، وأجرى عليهم من الارزاق والكسوة ما يليق بحالهم[3].

أما بالنسبة للصليبيين ، فيبدو ، أن صليبى الشام عرفوا انكشاف مؤامرة عمارة وأصحابه ، وأنه لا قبل لهم بملاقاة صلاح الدين ، فلم يفعلوا شيئا[4]. أما ملك صقلية فيحتمل أنه قد استجاب لذلك الطلب من ساعته ، فجهز اسطولا ضخما ، وبعثه الى مصر ، فسار حتى وصل الى الاسكندرية فى ذى الحجة

(١) عن الاسماعيلية أنظر ما يلى ص ٦٠ — ...
(٢) ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦١ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٠٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .
(٣) الكتبى عيون التواريخ ، ج ١٧ ، ورقة ١٥٣ أ — ب ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٠٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٤٧ ؛ ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ٢٢٥ — ٢٢٦ ؛ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٠١ .

من سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣م • وهناك دارت معركة كبيرة بينه وبين قوات صلاح الدين فى البر والبحر ، انتهت بانتصار جيوش صلاح الدين • وعاد أسطول صقلية عن مصر يجر اذيال الخيبة ، بعد أن فقد عددا كبيرا من رجاله وعدده (١) •

ولم تقتصر الفتن التى ظهرت فى مصر لمناوأة صلاح الدين على تلك التى ظهرت بالقاهرة ، بل تعدتها الى أنحاء مختلفة من البلاد المصرية ، كان من أهمها تلك التى أشعل نارها فى أسوان على حدود النوبة أحد قادة الفاطميين الذى يدعى كنز الدولة • التف حول ذلك القائد جمع كثير من المصريين الناقمين على سياسة صلاح الدين أوهمهم بأنه يملك البلاد المصرية ويعيد الخلافة الفاطمية فيها ، وهاجم مدينة قوص (٢) ويضيف ابن الأثير ، أن كنز الدولة أقدم على قتل أحد أمراء صلاح الدين ، الذين كانت اقطاعاتهم فى تلك البلاد (٣) • الأمر الذى زاد من غضب صلاح الدين عليه ، وقرر وأد هذه الفتنة فى مهدها • فجهز جيشا كبيرا ، أسند قيادته الى أخيه الملك العادل ، فسار حتى لقى الكنز وأصحابه ، ودارت بين الطرفين معركة قتل فيها عدد كبير من عسكر الكنز • وعاد العادل الى القاهرة بعد أن قضى على تلك الفتنة ، وذلك

---

(١) المصدر السابق ، ج ١١ ، ص ٤١٤ ؛ ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨ ؛ ابن ايبك الدوادارى ، الدر المطلوب ، ص ٤٩ •

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤٧ ــ ٤٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٦ ــ ١٧ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٨ ؛ وقوص مدينة كبيرة فى صعيد مصر (أنظر ياقوت ، معجم البلدان) •

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٤ •

في صفر من سنة ٥٧٠ هـ / سبتمبر ١١٧٤م [1] .

وفي الوقت الذى تحققت فيه أحلام نور الدين محمود باقامة جبهة اسلامية موحدة تضم مصر وبلاد الشام يستطيع بها الوقوف في وجه العدوان الصليبي ، ظهرت أحداث أدت الى ظهور وحشه بينه وبين قائده صلاح الدين . فقد اتبع صلاح الدين سياسة متشددة في مصر لتستتب له الأمور فيها ؛ فغادر مصر كبار القادة في الجيش النوري ، أمثال عين الدولة ياروق وعز الدين جرديك وغيرهما ، من لم تعجبهم سياسة صلاح الدين ، ولعلهم أثاروا نور الدين ضده [2] . فضلا عن احاطة صلاح الدين نفسه بجماعة من الامراء الأسدية وهم أمراء عمه أسد الدين شيركوه وعلى رأسهم الفقيه عيسى الهكارى ، وجاولى الاسدى ، وبهاء الدين خراقوش الذى حكمه في قصور الخليفة العاضد ضد بعد وفاته [3] . بالاضافة الى تحكم صلاح الدين في خيرات مصر ، وعدم تخصيص شيء منها لبلاد الشام ، حتى اضطر نور الدين الى أن يرسل مبعوثا من قبله هو الموفق خالد بن القيسراني الى صلاح الدين ، ليطلع على الأمور ، ويطالبه بحساب ما أخذه من قصور الخليفة الفاطمي ودواوين الدولة الفاطمية " وتقرير

---

(١) الحنبلى ، شفاء القلوب ، ورقة ٢٢ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٤٨ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ص ٣٣٨ ؛ أبن واصل مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٩ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٠ .

(٣) نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٥ ـ ١٦ .

القطيمة على صلاح الدين فى كل سنة (١) .

وما لبثت النفرة التى حدثت بين نور الدين وصلاح الدين أن انتقلت الى مرحلة أخطر ، اذ تطور الأمر الى تخوف صلاح الدين من الاجتماع بسيده نور الدين فى أى عمل حربى مشترك ؛ ففى سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١م عزم نور الدين على مهاجمة حصنى الكرك والشوبك ، وأمر صلاح الدين بأن يخرج اليه من مصر ، فى الوقت الذى يأتى هو من بلاد الشام لاحكام الحصار عليه . فوعده صلاح الدين بادئ الأمر بالطاعة ، الا أنه عاد فاعتذر عن لقائه عندما علم بوصوله الى الكرك متعللا بخوفه من وثوب الشيعة على مصر فى حالة غيابه عنها (٢) .

ومن الواضح أنه كان على صلاح الدين ، فى تلك الظروف ، أن يحدد موقفه من نور الدين فاما أن يظل على ولائه له بوصفه نائبا عنه فى مصر ، وفى هذه الحالة عليه أن يتقبل قرار نقله منها فى أى وقت من الأوقات ، واما أن يستقل عن نور الدين ويخرج عن طاعته ، وفى هذه الحالة عليه أن يصد هجوم نور الدين (٣) .

وازاء هذا أدرك صلاح الدين خطورة موقفه أمام جيوش نور الدين اذا ما حاولت دخول مصر ، فعزم على الاستيلاء على مناطق أخرى تكون ملاذا له يقيم فيها دولته اذا ما نجح نور الدين فى اخراجه من مصر . ففكر بادئ الأمر

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٥١ ــ ٥٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٧٠ ؛ الذهبى ، دول الاسلام ، ورقة ١٠٦ أ .

(٢) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٥٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٢١ ؛ البندارى ، سنا البرق الشامى ، ج ١ ، ص ١١٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٦٨ .

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٢٥ ــ ٧٢٦ .

فى بلاد النوبة ، وبعث اليها أخاه توران شاه فأستولى عليها ، ولكنه رأى أنها بلاد فقيرة لا تفى بحاجاتهم اذا احتاجوا لها (١) . كما فكر أيضا فى الاستيلاء على برقة طمعا فى ثروتها (٢) . وأخيرا اختار على ما يبدو أن يكون ملجأه عند الحاجة الى اليمن التى اشتهرت فى ذلك الحين بغنى مواردها ، وبعث أخاه توران شاه اليها فأستولى عليها سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م (٣) .

وبالاضافة الى ذلك ، لا يوجد أدنى شك فى أن صلاح الدين لم تكن تخفى عليه أهمية بلاد اليمن بالنسبة لتجارة البحر الأحمر ، لذلك قرر السيطرة على المدخل الجنوبى لهذا البحر خاصة بعد أن أصبحت عدن مركزا تجاريا . يضاف الى ذلك أن صلاح الدين أراد أن يضمن لقاعدة ملكه فى مصر ورود متاجر الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر ، وتزويد موارد مصر المالية بالضرائب التى تجبى من ميناء عيذاب وغيره (٤) .

وعندما أدرك نور الدين أن صلاح الدين أخذ يوسع نفوذه فى البلدان المجاورة لمصر ، قرر الدخول اليها وأخذها منه ، فاستدعى جيوشه من الشرق وعزم على المسير الى مصر . الا أن مشروعه هذا لم يتم حيث وافاه الأجل قبل

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٨٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٢٩ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٧ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٧٠ ؛ وتوران شاه هو : الملك المعظم توران شاه ابن أيوب بن شادى توفى بالاسكندرية سنة ٥٧٦هـ (ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ٣٠٦) .

(٢) سعيد عاشور ، الايوبيون والمماليك ، ص ٢٩ .

(٣) الكتبى ، عيون التواريخ ، ج ١٧ ، ورقة ١٥٢ أ ؛ ابن الشحنه ، روضة المناظر ، ورقة ٧٠ ب ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٨٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٩ ؛ المقريزى ، السلوك ج ١ ، ص ٥٣ .

(٤) حسنين ربيع . البحر الاحمر فى العصر الأيوبى ، ندوة تاريخ البحر الأحمر بجامعة عين شمس ، سنة ١٩٧٩م ، ص ١٠٦ ــ ١٠٧ .

تنفيذه ٠ (١)

د خول صلاح الدين د مشق سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م :

لم يكد نور الدين محمود ينهى مشروع توحيد الجبهة الاسلامية الذى أصبح يضم الشام ومصر ، حتى وافته المنية فى شوال من سنة ٥٦٨هـ / مايو ١١٧٤م ، قبل أن يجنى ثمار تلك الجهود التى بذل الغالى والرخيص من أجلها ٠ وتولى الأمر بعده ابنه الملك الصالح اسماعيل الذى لم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره ، مما أثار الأطماع داخل البيت الزنكى وخارجه فى امتلاك هذه الدولة ، وكان أول الطامعين سيف الدين غازى ، صاحب الموصل (٢) ، ذلك أن نور الدين عندما ظهرت الوحشة بينه وبين قائده صلاح الدين وعزم على الدخول الى مصر وأخذها من صلاح الدين ، بعث الى الموصل وديار بكر وبلاد الجزيرة يطلب مجيئهم للاستعانة بهم فى غزو مصر ٠ فسار سيف الدين ابن عم نور الدين على رأس جيشه قاصدا الشام ٠ وفى أثناء سيره بلغه نبأ وفاة نور الدين ، وتولى ابنه الصغير فداخله الطمع فى هذه المملكة ، وأسرع باحتلال بعض المواقع الهامة ببلاد الجزيرة مثل نصيبين والخابور وحران والرها والرقه وسروج وغيرها ، ولم يبق سوى رأس العين (٣) لأنها كانت لقطب الدين صاحب هو ابن خاله ، وقلعة جعبر (٤) لحصانتها (٥) ٠ وقد شعر سيف الدين

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٠٢ ٠

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤٧ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ص ٤٠٢ ٠

(٣) رأس العين ، ويقال رأس عين ، مدينة مشهورة من مدن أقليم الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر (أنظر ياقوت ، معجم البلدان ٠) ٠

(٤) قلعة جعبر على الفرات مقابل صفين ، وكانت تعرف أولا بدوسر ثم ملكها رجل يدعى جعبر بن مالك فسميت به (أنظر ياقوت ، معجم البلدان) ٠

(٥) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٧٥ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٠ ــ ٥٩١ ؛ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ص ٣٢٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٦٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٢ ٠

غازى بتسلط أمراء الشام وغيرهم على أحوال الدولة النورية مستغلين صغر سن الملك الصالح وعجزه عن تدبير أمور دولته • ولعل ذلك كان السبب فى هروب سعد الدين كشتكين من صفوف جيش سيف الدين غازى ، عندما علم بوفاة نور الدين محمود بالشام لينافس غيره من الأمراء فى تدبير دولة الملك الصالح (١) •

ولم تقتصر تلك الاطماع بعد وفاة الملك نور الدين على أفراد البيت الزنكى فى بلاد الشام ، وانما تمدت ذلك الى الامراء النوريين هناك ، وذلك للفوز بتدبير مملكة الملك الصالح ، مع أنهم أجمعوا بادئ الأمر على توحيد كلمتهم لخدمته والحفاظ على دولته وجعل شمس الدولة ابن المقدم صاحب الرأى الأول فى ذلك (٢) •

الا أن هؤلاء الأمراء ، ما لبثوا أن اختلفت كلمتهم ، فدب الخلاف بين أثنين من أكابرهم هما شمس الدين على بن الداية الذى تمركز بحلب ، وأخذ يقوى مركزه هناك ، وشمس الدين محمد بن المقدم بدمشق ، حيث كان يقيم الملك الصالح عنده • وأخذ كل منهما يسعى للحصول على الوصاية على الملك الصالح فابن المقدم يسعى للحفاظ عليه بدمشق فى الوقت الذى كان ابن الداية يتحين

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٠١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٩ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١١ •

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٠٥ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ص ٥٨٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٦١ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ج ٣ ، ص ١٢ ، ابن الوردى تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١١٩ ، وابن المقدم هو الامير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم من كبار أمراء الدولتين النورية والصلاحية ، توفى بمكة سنة ٥٨٣ هـ متأثرا بجراحه التى لحقت به أثناء المعركة التى دارت بين الحجاج العراقيين والشاميين ، أنظر الذهبى ، تاريخ الاسلام ، ج ٧ ورقة ١٢ أ •

الفرص لنقله الى حلب • وعندما استولى سيف الدين غازى على بلاد الجزيرة ،بعث ابن الداية الى دمشق يطلب احضار الملك الصالح ، بحجة خوفه من مجئ سيف الدين للسيطرة على بلاد الشام (١) •

ويبدو أن ابن المقدم أدرك نوايا ابن الداية فرفض ارسال الملك الصالح عندما بعث اليه يطلبه • ثم عاود ابن الداية فبعث سعد الدين كمشتكين ، ومعه بعض الأمراء الى دمشق لاحضار الملك الصالح ، فخرج لهم ابن المقدم وتعقبهم فى الطريق وأنزل بهم خسائر عادوا على أثرها الى حلب (٢) • ولم ييأس ابن الداية من ذلك ، بل عاود تجهيز كمشتكين ، وبعثه مرة أخرى الى دمشق ، وسير معه الكتب الى كبار الامراء ، فدخل دمشق واجتمع بهم وأخبرهم بما فى مسير الملك الصالح الى حلب من الصالح فوافقوه على ذلك وعاد الى حلب ومعه الملك الصالح (٤)

ويبدو أن ابن الداية عندما عزم على ارسال سعد الدين كمشتكين الى دمشق للمرة الثانية كان قد زوده بمعلومات كفيلة باقناع الامراء الدماشقة دون ابن المقدم ، بوجوب انتقال السلطان الطفل الى حلب • ولعل تلك المعلومات تتلخص فى أن ابن المقدم على صلة بصلاح الدين ، وان صلاح الدين ربما استولى على شخص اسماعيل بمساعدته ، وان المصلحة تتطلب ارساله الى حلب قبل فوات

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٥ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٠ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٢ •

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٠ •

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١٢ ص ٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٤ •

(٤) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ١٧٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٤ •

الأوان (١). كما يمكن القول بأن ابن الداية ربما يكون قد زود كمشتكين بالاغراءات للامراء الدماشقة ، باسناد المناصب اليهم أو بزيادة اقطاعاتهم ، بدليل أنهم اشترطوا على ابن الداية عند موافقتهم على ارسال الصالح أن يخلف لهم على اقطاعاتهم بدمشق ويبعث نسخة اليمين مع أخيه سابق الدين عثمان (٢).

وبخروج الملك الصالح من دمشق الى حلب ، ازداد التنافس بين الأمراء وطمع كمشتكين فى الاستئثار بتدبير دولته . ودبر وهو فى طريقه الى حلب مؤامرة للقبض على أولاد الداية وغيرهم من كبار الأمراء ، فقبض عليهم وأودعوا السجون ، وانفرد هو بتدبير أمور الملك الصالح وذلك فى المحرم من سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤م (٣).

وازاء هذا الحدث أيقن ابن المقدم ، ومعه الأمراء الدماشقة أن كمشتكين ان استقر له الامر بحلب ، أخذ الملك الصالح وسار اليهم ، فقرروا اللجوء الى وسيلة تحميهم من ذلك ، وراسلوا سيف الدين غازى ، صاحب الموصل. الذى رفض المجيء لاستلام دمشق ، بل سارع الى مراسلة الملك الصالح وسعد الدين كمشتكين وصالحهما على ما أخذه من البلاد ، معتقدا بأن الدماشقة ينوون خداعه . الأمر الذى ازدادت معه مخاوفهم ، فكاتبوا صلاح الدين فى مصر ،

(١) أنظر حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ٥٣ .
(٢) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ص ١٤ .
(٣) الحنبلى ، شفاء القلوب ، ورقة ٢٢ ـ ٢٣ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ص ٤١٥ ، ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٥٩٣ ـ ٥٩٤ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ١٦٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٤ ـ ١٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ٢٤ .

وطلبوا منه الخروج اليهم لامتلاك دمشق (١) .

كان للتنافس الذى حدث بين الامراء النوريين بالشام حول الفوز بتدبير دولة الملك الصالح ، وما أعقبه من أطماع داخلية وخارجية فى السيطرة على أملاك الدولة النورية ، تلك الأطماع التى أهمها ما قام به الصليبيون من محاولة للسيطرة على أملاك تلك الدولة ، حتى اضطر هؤلاء الأمراء الذين حرصوا منذ البداية على منع صلاح الدين من التدخل فى شئون الشام ، الى مراسلة عمورى الأول ومهادنته (٢) . وكان لذلك أثره البالغ فى اثارة غضب صلاح الدين ، فبعث يهدد الأمراء النوريين بالشام ويتوعدهم بالخروج اليهم لحماية الملك الصالح ودولته ، فكتب رسالة الى شمس الدين بن المقدم وغيره من الأمراء يقول فيها « لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى ، أو يثق به ، مثل ثقته بى لسلّم اليه مصر ، التى هى أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى ، وأراكم قد تفردتم بمولاى دونى ، وسوف أصل الى خدمته ، وأجازى انعام والده بخدمة يظهر أثرها وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده (٣) » ورسالة أخرى يقول فيها « انا لا نؤثر الاسلام وأهله الا ما جمع شملهم ، ولفّ كلمتهم ، وللبيت

---

(١) الحنبلى ، شفاء القلوب ، ورقة ٢٣ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٥ ـ ٤١٦ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٩ ، ابو الفدا المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٥٦ . ابن أبى الهيجاء ، تاريخ ابن أبى الهيجا ، ورقة ١٧٣ .

(٢) ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٩٤ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٢٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧ ؛ السبكى ، طبقات الشافعية ، ج ٧ ، ص ٣٦٠ ـ ٣٦١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٢ ـ ١٣ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٣ .

الأتابكى ـ أعلاه الله ـ الا ما حفظ أصله وفرعه أو دفع ضره وجلب نفعه ، فالوفاء انما يكون بعد الوفاة ، والمحبة انما تظهر أثرها عند تكاثر اطماع العداة ، وبالجملة انا فى واد والظانون بنا ظن السوء فى واد ، ولنا من الصلاح مراد ، ولم يعدنا عنه مراد (١) " .

والخلاصة أن تلك الخلافات بين الأمراء الشاميين ، تطورت تطورا خطيرا ، عند ما انفرد كمشتكين بتدبير أمور الملك الصالح ، ثم مصالحته لسيف الدين غازى ، مما أثار مخاوف بقية الأمراء من اطماعه ، فاضطروا الى الاستنجاد بصلاح الدين ، الذى أدرك أنه ينبغى مواصلة السياسة التى بدأها زنكى ، وجرى عليها نور الدين من بعده ، والتى تقضى بتوحيد كلمة المسلمين ، والقضاء على الصليبيين ، فأجاب طلبهم (٢) .

خرج صلاح الدين من مصر ، قاصدا الشام بعد أن تأكد من أن " الملك الصالح صبى لا يستقل بالأمر ، ولا ينهض بأعباء الملك (٣) " ، على رأس جيش قوامه سبعمائة فارس ، بعد أن استخلف على مصر أخاه الملك العادل ، وسار حتى وصل بصرى ، وهناك استقبله صاحبها الذى سبق أن كاتب صلاح الدين للقدوم الى الشام وقدم له المساعدات والتسهيلات (٤) . ثم سار صلاح الدين

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨ ؛ السبكى ، طبقات الشافعية ، ج ٧ ، ص ٣٦١ .

(٢) الباز العرينى ، الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ص

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥٠ ؛ ابو شامه الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٥ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٦ ؛ وبصرى موضع بالشام من أعمال دمشق وهى قصبة كوره حوران (أنظر ياقوت ، معجم البلدان) .

حتى وصل دمشق ، وفتحت له أبوابها وتسلمها دون عناء يذكر فى أواخر شهر ربيع الآخر من سنة ٥٧٠هـ / نوفمبر ١١٧٤م (١) .

وهنا يمكننا أن نؤكد أن خروج صلاح الدين الى الشام لم يكن لمجرد الرغبة فى تحقيق اطماع ومكاسب شخصية ، وانما ظهر الاتجاه واضحا فى سياسته نحو تحقيق الوحدة الاسلامية والقضاء على عوامل الفرقة التى ظهرت فى الدولة النورية بقصد مواجهة الصليبيين صفا واحدا بدليل ما صرح به صلاح الدين من عبارات تدل على ذلك عند خروجه الى الشام (٢) .

تسلم صلاح الدين دمشق ، وسكن دار والده المعروفة بدار العقيقى ، وكان عليه أن يتسلم قلعتها التى احتفظ بها الخادم ريحان ، ورفض بادئ الأمر تسلمها . وهنا يبدو أن صلاح الدين لم يرد الاصطدام بريحان وبعث اليه القاضى كمال الدين بن الشهرزورى يخبره بأنه لا يزال على ولائه للملك الصالح ابن نور الدين محمود ، وانه انما جاء لخدمته واعادة دولته ، واستطاع ابن الشهرزورى اقناع ريحان . وتسلم صلاح الدين القلعة ، واستتب له الأمر فى

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥٠ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ص ٤١٦ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ص ٦٠٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٦ ، ص ٢٥

(٢) أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٤٧ ؛ أما العبارات التى قالها صلاح الدين عند خروجه الى الشام فيذكر سبط ابن الجوزى (مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٤ ــ ٣) أن صلاح الدين كتب الى شرف الدين بن عصرون يقول " لما بلغنى وفاة المرحوم ، خرجت من مصر لقصد الجهاد ، وتطهير البلاد من أهل الكفر والعناد . " وذكر ابن واصل (مفرج الكروب) ، ج ٢ ، ص ١٨) أن صلاح الدين قال " ولو استمرت ولاية هؤلاء القوم تفرقت الكلمة ، وطمع الكفار فى البلاد " كما قال " انا لا نؤثر للاسلام وأهله الا ما جمع شملهم ولف كلمتهم " .

دمشق ، وظل يظهر الطاعة للملك الصالح ، فضرب النقود وأقام الخطبة باسمه (١) .

ولعل السبب فى اتباع صلاح الدين لأسلوب الولاء للملك الصالح ، هو خوفه من اثارة الناس ضده واتهامه بخيانة سيده نور الدين . والتفت صلاح الدين بعد ذلك الى استمالة قلوب أهل دمشق وذلك بتوزيع الأموال عليهم ، وازالة ما استجد بعد وفاة نور الدين من منكرات وضرائب ومكوس (٢) .

وكان لدخول صلاح الدين دمشق ، وتثبيت أقدامه فيها بالاستيلاء على قلعتها ، أثره البالغ على نفوس القائمين بتدبير دولة الملك الصالح فى حلب وعلى رأسهم سعد الدين كمشتكين . فما أن سمعوا بذلك الأمر حتى سارعوا الى الاستنجاد بسيف الدين غازى صاحب الموصل الذى سبق أن راسلهم فصالحوه على ما بيده من البلاد (٣) .

وهنا يبدو أن صلاح الدين أراد أن يتجنب الصدام مع الملك الصالح ، فأرسل اليه كتابا يظهر له الولاء ، ويؤكد له أنه انما جاء لخدمته ، ولجمع كلمة المسلمين للوقوف فى وجه العدو الصليبى . واستشار الملك الصالح كبار رجال دولته فى حلب ، فأشاروا عليه بعدم الموافقة ، فرد على صلاح الدين برسالة شديدة اللهجة هدده فيها باخراجه من دمشق واتهمه بالطمع فى الملك . فغضب

---

(١) ابن النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٦ ، ورقة ١١٣ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٦ ـ ٤١٧ ؛ البندارى ، سنا البرق الشامى ، ج ١ ، ص ١٧٧ ؛ ابن خلكان وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ١٦٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ج ١٢ ، ص ٢٨٨ .

(٢) ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ج ٦ ، ص ٢٥ ؛ السبكى ، طبقات الشافعية ، ج ٧ ، ص ٣٦٢ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١ .

صلاح الدين من ذلك ، وقال لرسول الملك الصالح « والله ما جئت الى هاهنا شرها ولا طمعا فى الدنيا ، وفى مصر كفاية ، وما جئت الا لاستنقذ هذا الصبى من يد مثلك وأمثالك وأنتم سبب زوال دولته »(١) .

وعلى كل فانه يحتمل أن صلاح الدين عندما وصله ذلك التهديد من الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ، وسمع باستنجاده بسيف الدين غازى ، أدرك خطورة موقفه فى دمشق ، وقرر توسيع نفوذه فى بلاد الشام ، فخرج من دمشق بعد أن استخلف عليها أخاه سيف الاسلام طغتكين ، فبدأ بحمص واستولى عليها فى جمادى الأولى من سنة ٥٧٠هـ / ديسمبر ١١٧٤م ، واستعصت عليه قلعتها ، فلم ير تضييع الوقت فى حصارها(٢) . وسار الى حماه ، فأستولى عليها فى بداية شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٧٠هـ / أواخر ديسمبر ١١٧٤م(٣) .

ثم اتجه صلاح الدين الى حصار حلب ، فخرج الملك الصالح ، واحضر أهل حلب ، وذكرهم بسيرة نور الدين فيهم ، وتوسل اليهم بمقاومة صلاح الدين ، فخرجوا لقتاله . ولكن يبدو أن سعد الدين كمشتكين أدرك خطورة الموقف فراسل الاسماعيلية ، وبذل لهم أموالا طائلة ليقتلوا صلاح الدين ، وكادوا ينجحون فى مهمتهم لولا انكشاف أمرهم وقتلهم بعد أن جرحوا صلاح الدين .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٢٧ ــ ٣٢٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١ .

(٢) ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٧ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٧ ــ ٤١٨ ؛ ابو شامه ، الروضتين ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٧ ــ ٦٠٨ ؛ ابن واصل مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٢ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٠ ــ ٢١ ؛ ابن ايبك الدوادارى الدر المطلوب ، ص ٥٨ ــ ٥٩ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٨ ــ ٥٩ .

ولما فشل الاسماعيلية فى أداء مهمتهم ، وبقى صلاح الدين على حصار حلب ، أرسل الحلبيون الى ريموند الصنجيلى أمير أمارة طرابلس الصليبية ، يطلبون منه المساعدة . وهنا يبدو أن ريموند هذا ، الذى كان وصيا على مملكة بيت المقدس عندئذ ، كان يدرك تماما أهمية تحالف الصليبيين مع أهل حلب ، بالاضافة الى خطورة قيام وحدة بين القاهرة ودمشق وحلب لذلك أسرع الى نجدتهم ، وسار لحصار حمص ، فاضطر صلاح الدين الى ترك حصار حلب وذلك فى رجب من سنة ٥٧٠هـ / فبراير ١١٧٥م . فلما سمع الصليبيون بمقدمه رحلوا عن حمص ، فدخلها وملك قلعتها ، ثم توجه الى بعلبك فملكها أيضا فى السنة نفسها .(١)

نزاع صلاح الدين مع الزنكيين : معركة قرون حماه ، معركة تل السلطان :

والواقع أن صلاح الدين اتبع تلك السياسة الجديدة مرغما ، قاصرا بذلك توحيد الصف لجهاد الصليبيين ، وذلك لما رآه من تواطىء الأمراء فى حلب معهم خاصة بعد استنجادهم بريموند الثالث الصنجيلى صاحب طرابلس، يدلنا على ذلك تلك الرسالة التى كتبت بخط القاضى الفاضل ، وبعثها صلاح الدين الى الخليفة العباسى ، ذكر فيها أن سبب خروجه الى الشام ، ما توالى اليه من الأخبار : « بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء توزعها ، وتشتت الأمور

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ج ١٢ ، ص ٢٩ – ٣٠ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٨ – ٥٩ ؛ سعيد عاشور ، الايوبيون والمماليك ، ص ٤١ ؛ ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٨٠ .

وتقطعها ، وأن كل قلعة حصل فيها صاحب وكل جانب طمع اليه طالب " ، وأن قصده من ذلك الاستعداد لاسترجاع بيت المقدس الذى لن يتيسر فتحه وهو بمصر ، " لبعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب التى بها على الجهاد القوة " . وأنه متى جاور بيت المقدس بانتقاله الى البلاد الشامية " كانت المصلحة بادية والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة والميرة متسعة ، والخيل مستريحة ، والعساكر كثيرة الجموع والأوقات مساعدة " . وأن ذلك يمكنه من الحفاظ على الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين الذى كان صلاح الدين يرى أنه " به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ويظهرون الوفاء فى خدمته وهم عاملون بظلمه " (١)

وأدرك سيف الدين غازى أن صلاح الدين اذا ما تمكن من بلاد الشام فانه سوف يتجه الى الموصل نفسه (٢) ، لذلك سارع باجابة الملك الصالح وبعث الى أخيه عماد الدين زنكى صاحب سنجار يطلب منه الاستعداد للمسير معه الى الشام . وهنا يبدو أن صلاح الدين قد أدرك بادئ ذى بدئ خطورة تحالف الزنكيين ضده فسعى الى الايقاع بينهم . ويقال أنه أرسل الى عماد الدين صاحب سنجار يمنيه بصفته أكبر أخوته (٣) ، فرفض اجابة أخيه سيف الدين الى ذلك .

وعلى كل فان سيف الدين غازى ، عندما رأى عدم استجابة عماد الدين ،

---

(١) أنظر ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢٢ ـ ٦٢٣ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٠ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .
(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٢ .

جهز جيشا أسند قيادته الى أخيه عز الدين مسعود . وبعد أن أنضم اليه الجيش الحلبي زحفوا جميعا على حماه ، وعندئذ عرض صلاح الدين على الزنكيين أن يتنازل لهم عن الحصون التى أخذها ويكتفى هو بدمشق على أن يكون نائبا للملك الصالح فيها ، الا أن الزنكيين رفضوا ذلك العرض . والتقى الجمعان بقرون حماه فى رمضان من سنة ٥٧٠هـ / ابريل ١١٧٥م ، ودارت بين الجانبين معركة انتهت بانتصار صلاح الدين (١) .

والواقع أن هذه المعركة تعد من المعارك الهامة فى ذلك النزاع ، لما ترتب عليها من نتائج كان أهمها اقدام صلاح الدين عقب انتصاره فى تلك المعركة على حصار حلب ومن ثم اعلانه عزل الملك الصالح اسماعيل بقطع الخطبة عنه ، وازالة اسمه من النقود ، ليبدأ بذلك سياسة مغايرة لما كان عليه من قبل ، حيث كان قبل ذلك يكن ولاء للملك الصالح على أساس الاعتراف بجميل والده نور الدين محمود . الا أن تلك السياسة لم تجد على ما يبدو مع أولئك الأمراء الطامعين ، الذين اضطروا نتيجة تجرأ صلاح الدين على عزل الملك الصالح الى الاعتراف بالأمر الواقع والسعى للصلح مع صلاح الدين ، ووافق صلاح الدين على رفع الحصار عن حلب على أن يكون له ما بيده ولهم ما بأيديهم من بلاد الشام ، وأن يطلقوا ابن الداية . وأن تجتمع الجيوش الاسلامية لقتال الصليبيين ، ووقعت الايمان على ذلك . ويضيف أبو شامه نقلا عن ابن أبى طى أن من جملة

---

(١) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١٩٨أ ، الحنبلى ، شفاء القلوب ، ورقة ٢٣ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥٠ ـ ٥١ ، ابن الاثير الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ ، ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ص ٦٣٣ ـ ٦٣٤ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤ البندارى ، سنا البرق الشامى ، ج ١ ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٢ ـ ٢٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

اليمين أنه متى قصد الملك الصالح عدو حضر صلاح بنفسه وجيوشه ودافع عنه ، والا يغير الدعاء له على منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولاياته وولاية أصحابه ، وأن تكون السكة باسمه (١) .

وعقب توقيع ذلك الصلح ، عاد صلاح الدين قاصدا دمشق ، فلما وصل الى حماه وصلت اليه رسل الخليفة العباسي المستضئ ، ومعهم التشريفات الجليلة والاعلام السود ، وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام (٢) . ويبدو أن ذلك كان ردا على الرسالة السابقة ، التي أرسلها صلاح الدين الى الخليفة العباسي ، تلك الرسالة التي حدد فيها أهدافه من المجئ الى الشام .

وبذلك يمكن القول بأن صلاح الدين أصبح مطلق التصرف في البلاد التي تحت يده ، حيث اقطع خاله شهاب الدين الحارمي حماه وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه حمص (٣) .

وبعث سيف الدين غازي صاحب الموصل الى أمراء حلب يلومهم على ذلك الصلح الذي نص على تملك صلاح الدين ما بيده من بلاد الشام ، بالاضافة

---

(١) الحنبلي ، شفاء القلوب ، ورقة ٣ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ص ٦٣٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٢ ـ ٣٣ ؛ .
(٢) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ١٩٨ أ ؛ النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٦ ، ورقة ١١٤ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢٢ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ص ٣٦٩ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢٣ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٦٤٠ .

الى تبنيه حماية الملك الصالح عند تعرضه لأى خطر خارجي [١] . ولم يكتف سيف الدين غازى أمير الموصل بذلك التوبيخ الذى وجهه الى أمراء حلب بل أجبرهم على نقض ذلك العهد ، وبعث اليهم رسولا من قبله أخذ عليهم المواثيق بذلك ، ثم توجه ذلك الرسول الى دمشق ، ليأخذ له من صلاح الدين العهد والميثاق ويكشف ما عنده من نوايا . فلما وصل طالبه صلاح الدين بنسخة اليمين ، فأخطأ الرسول وسلمه ميثاق الحلبيين ، فاطلع صلاح الدين على ما اتفقوا عليه ، وتحقق انهم نقضوا العهد معه . فكتب الى نائبه بمصر الملك العادل يطلب منه المجيء الى الشام استعدادا لما يبيته له الزنكيون [٢] .

أما سيف الدين فقد استعد للقتال استعدادا كبيرا حيث أنهى خلافه مع أخيه عماد الدين زنكى صاحب سنجار ، واستنجد بصاحب حصن كيفا ، وصاحب ماردين [٣] ، وسار بجيشه الى حلب ، فانضم اليه أهلها ، كما أرسل الى الصليبيين يطلب منهم مساعدته مقابل اطلاق سراح من كان فى الأسر من أمرائهم [٤] . ثم سارت عساكر الموصل وحلب مع من أنضم اليها الى تل السلطان وهو موضع على مسافة مرحلة من حلب باتجاه دمشق . أما صلاح الدين ، فقد سار بعد أن وصلته الامدادات من مصر على رأس جيشه لملاقاة الزنكيين وحلفائهم

---

(١) العينى ، عقد الحماية ، ج ١٢ ، ورقة ٢٠١ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٦٤٧ ؛ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٣٣٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ج ١٢ ، ص ٢٩٢ .

(٢) ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٦٤٧ — ٦٤٨ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٣٣٢ ؛ ابن واصل مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٦ — ٣٧ .

(٣) حصن كيفا ، ويقال كيبا ، وهى بلدة وقلعة عظيمة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . .

(٣) وماردين قلعة مشهورة على جبل الجزيرة مشرفة على دنيسرودارا ونصيبين (أنظر ياقوت معجم البلدان) .

(٤) أنظر ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٦٥١ .

فوصل الى تل السلطان . وهناك دارت بين الطرفين معركة فى شوال سنة ٥٧١هـ / ابريل ١١٧٦م انتهت بانتصار صلاح الدين وهزيمة أعدائه .(١)

ويمكن القول بأنه اذا كانت معركة قرون حماه ، قد أنهت كل آمال للملك الصالح فى استعادة ما أخذه صلاح الدين من البلاد ، فان سيف الدين غازى بعد هذه المعركة تعرض لنفس المصير ، فقد عاد هاربا بعد تلك الهزيمة . وبلغ به الأمر أنه لم يعد يأمن على نفسه هنناك حتى فكر فى الهرب من الموصل لولا تدخل بعض رجاله لاقناعه بالبقاء هناك . كما أن تصرف صلاح الدين بعد معركة تل السلطان دل على استحقاقه لزعامة المسلمين وقيادة جيوشهم فى مستقبل جهادهم ضد الصليبيين ، اذا أسر جماعة أمراء حلب والموصل ثم أطلقهم بعد أن خلع عليهم وبهذا التصرف دفعهم الى الانضواء تحت لوائه .(٢)

كما يلاحظ أيضا أن صلاح الدين أراد بعد تلك المعركة تأمين مركزه فى بلاد الشام وذلك بفصل حلب عن الموصل ، فأستولى على بعض المدن الواقعة شرقى حلب مثل بزاعه ومنبج(٣) ، كما يبدو أيضا أنه أراد قطع كل اتصال بها

---

(١) الاصفهانى ، البستان الجامع ، ورقة ١٢٠ أ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥١ ــ ٥٢ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥١ ــ ٦٥٢ ؛ ابن واصل مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧ ، ٣٩ ؛ البنداوى سنا البرق الشامى ، ج ١ ، ص ٢٠١ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٦ ــ ٢٧ .

(٢) أنظر ابن واصل مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٠ ؛ نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ٧٣ .

(٣) بزاعه : بلدة من أعمال حلب بين منبج وحلب (أنظر ياقوت ، معجم البلدان) .

فاستولى على قلعة أعزاز سنة ٥٧١هـ / ١١٧٦م (١) • ثم توجه بعدها ففرض حصارا قويا على حلب فى ذى الحجة من سنة ٥٧١هـ / يونية ١١٧٦م • وهنا يبدو أن الحلبيين أدركوا عدم قدرتهم على المقاومة ، فكاتبوا صلاح الدين يتوسلون اليه ويطلبون منه الصلح ، فأجابهم الى ذلك • ودخل فى هذا الصلح المواصلة وصاحب حصن كيفا ، وصاحب ماردين ، على أن يكونوا يدا واحدة على من نكثه (٢) •

والواقع أننا نلاحظ أن صلاح الدين كان يسارع فى كل مرة الى قبول الصلح عندما يطلبه منه الزنكيون ، ولا يستبعد أن يكون قد قصد بذلك الاسلوب معالجة الأمور معهم بالطرق السلمية ، مدخرا القوة للجهاد ضد الصليبيين •

أما عن دور الاسماعيلية فى نزاع صلاح الدين مع الزنكيين ، فتجدر الاشارة الى أن الاسماعيلية طائفة لعبت دورا خطيرا فى تاريخ الشرق الأدنى فى عصر الحروب الصليبية ، وأثرت عن طريق مباشر وغير مباشر فى مجرى وأحداث تلك الحروب • وينتسب أفراد هذه الطائفة الى اسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٥ هـ والذى نجح اتباعه فى اقامة الدولة الفاطمية • وظلت هذه هذه الدولة تتزعم الدعوة الاسماعيلية التى اشتد ساعدها بصفة خاصة فى مصر والشام وفارس ، الا أن هذه الدعوة تصدعت عقب وفاة الخليفة المستنصر بالله

---

(١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج ١ ، ورقة ١٢٨ ب ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢٩ ــ ٤٣٠ ، ابو شامه الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٥٥ ــ ٦٥٦ ، ابن الوردى تتمة المختصر ، ص ١٢٣ ، سعيد عاشور ، الايوبيون والمماليك ، ص ٤٣ •

(٢) ابن واصل التاريخ الصالحى ، ورقة ١٩٨ ب ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ص ٤٣١ ، ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢ ، ص ٦٦٨ •

الفاطمي حيث انشق اتباعها في فارس والشام وانتموا الى نزار بن المستنصر فأطلق عليهم اسم فرقة النزارية (١) . ومن أهم المبادئ التي أقام هؤلاء الاسماعيلية عليها مذهبهم ، أيمانهم بأن للعقيدة ظاهرا وباطنا ، وأن الشخص الذي يدرك كنه الباطن ويتبعه لايستحق العقاب ، وقد أدى بهم هذا الرأي الى تأويل أحكام الشريعة ، فجعلوا لكل نوع من أنواع العبادة باطنا ، مما جعل الناس يطلقون عليهم اسم الباطنية (٢) .

وكان أول دعاة الباطنية احمد بن عبد الملك بن عطاش الذي قدم الباطنية عليهم وألبسوه تاجا وجمعوا له الأموال . وبعد وفاته حل محله الحسن ابن الصباح ، الذي يعد أشهر دعاة هذه الفرقة في التنظيم ، اذ نظم هذه الفرقة تنظيما محكما أساسه مبدآن هما : السرية التامة والطاعة العمياء (٣) . كما قام الحسن بن الصباح أيضا بتقسيم هذه الدعوة الى مراتب عدة ، أهمها مرتبة الفداوية أو الفدائيين ، التي اهتم الحسن بتدريب أفرادها تدريبا خاصا يتناول الجانبين الروحي والمادي ، بوصفهم الأداة التي اشتهرت بتنفيذ سلسلة الاغتيالات التي اشتهروا بها في عصر الحروب الصليبية ، حيث كان القتل هو السلاح الرهيب الذي استغله الباطنية في تنفيذ أغراضهم والتخلص من أعدائهم (٤) .

---

(١) سعيد عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ٣٤٠ ؛ برنارد لويس ، الدعوة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشية) ص ٥٤ _ ٥٥ ، ٦٤ .

(٢) عبد النعيم حسنين ، سلاجقة ايران ، ص ٧١ ؛ سعيد عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ٣٤٠ .

(٣) سعيد عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ٣٤١ ؛ برنارد لويس ، الدعوة الاسماعيلية الجديدة ، (الحشيشية) ص ٦٣ .

(٤) سعيد عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٣٤١ _ ٣٤٤ .

ويبدو أن نشاط هؤلاء الباطنية الهدام أخذ يمتد الى بلاد الشام منذ نهاية القرن الخامس الهجرى ، عندما عطف عليهم رضوان ملك حلب واستمد لحمايتهم ، حيث استغل هؤلاء الباطنية ذلك ، وأخذوا يباشرون أعمالهم الاجرامية هناك ، حيث قاموا فى سنة ٤٩٩ هـ/ ١١٠٥م بقتل خلف بن ملاعب صاحب أفاميه (١) .

وعلى كل فانه فى الوقت الذى كان صلاح الدين مشغولا بتوحيد الجبهة الاسلامية اضطر بعض الأحيان الى عقد هدنة مع طائفة الاسماعيلية فى بلاد الشام ، تلك التى أصبحت تملك قلاعا قوية ، وقد أزعجها ذلك النجاح الذى حققه صلاح الدين فى هذه البلاد . كما يبدو أن زعماء المسلمين وأمراءهم بالشام جعلوا منهم ورقة رابحة لاخراجها عند عزمهم على التخلص من منافسيهم، وخصومهم. ولعل أكبر دليل على ذلك ما حدث من أمراء حلب من الاستعانة بهم للفتك بصلاح الدين عند حصاره لحلب سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٥م . حيث أرسل سعد كمشتكين الى سنان مقدم الاسماعيليه ، وبذل له أموالا كثيرة ليقتل صلاح الدين فأرسل سنان جماعة من "فتاك أصحابه" فجاءوا الى معسكر صلاح الدين واختلطوا بعسكره فعرفهم الأمير خمارتكين صاحب قلعة أبى قبيس ، فزجرهم ، فوثبوا عليه وجرحوه ، (٢) ثم تقدم أحدهم وبيده سكينة مشهورة ليقتل صلاح الدين ، فلما وصل الى باب الخيمة اعترضه أحد الأمراء فقتله ، ثم قبض على الباقين وقتلوا (٣) .

---

(١) ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٩ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٩ ، أبو شامه فيذكر فى الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٠ ، نقلا عن ابن أبى طى أن الاسماعيلية وثبوا على ناصح الدين خمارتكين وقتلوه .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٩ ، ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ص ٦١٠ ،

لم تقتصر محاولة الاسماعيلية الفتك بصلاح الدين على هذه المحاولة الأولى التي وقعت في حلب ، بل حاولوا مرة أخرى الوثوب عليه بتحريض من أمراء حلب ، وهو يحاصر قلعة أعزاز سنة ٥٧١هـ / ١١٧٦م ، حين هجم عليه جماعة منهم حاولوا قتله لولا شجاعة صلاح الدين وتفاني أصحابه في الدفاع عنه ، واحباط محاولتهم تلك وقتلهم (١) .

وهكذا أدى اتساع نشاط هؤلاء الاسماعيلية في بلاد الشام بوجه خاص الى اضافة عامل قوي جديد الى عوامل التفكك التي تعرضت لها تلك البلاد في عصر الحروب الصليبية (٢) . ومن هذا المنطلق أدرك صلاح الدين أنه لكي يحقق مشروع الوحدة الاسلامية ، فان عليه أن يقوم بتأديب تلك الطائفة . فما أن عقد الصلح مع أهل حلب حتى اتجه الى بلادهم وحاصر أهم قلاعهم وهي قلعة مصياف (٣) سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م ، وضيق على من بداخلها ، ولم يزل كذلك حتى أرسل سنان مقدم الاسماعيلية الى شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين صاحب حماه يطلب منه التدخل بينهم « ويصلح الحال ويشفع فيهم » . وهنا يذكر ابن الاثير أن شهاب الدين وافق على طلبهم ذلك وتدخل لدى صلاح الدين بسبب تهديد الاسماعيلية له ، بالاضافة الى ضجر جيش صلاح الدين

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥٢ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٣٠ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ١٥٩ ، سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٣٥ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٨ – ٢٩ ؛ ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ٦ ، ص ٧٦ أنظر أيضا : Lewis, Saladin and the Assassins, p.P. 238-239.

(٢) سعيد عاشور ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ٣٤٤ .

(٣) مصياف ، أو مصياب ، حصن مشهور بالساحل قرب طرابلس . (ياقوت ، معجم البلدان) .

من طول الحرب • أما ابن واصل (١) ، فيرجع ذلك الى الجيرة التى كانت بين الاسماعيلية وشهاب الدين الحارمى (٢) ، فى حين يذهب آخرون أن شهاب الدين هذا لا علاقة له بذلك وأن صلاح الدين وافق على الصلح بسبب خوفه من هجوم الصليبيين على الشام الأعلى وهو بعيد عنهم (٣) •

ومهما يكن من أمر ، فان صلاح الدين الذى كان يبذل كل جهده للقضاء على كل ما يعكر صفو الوحدة الاسلامية وافق على مصالحة الاسماعيلية لأنه كان يرى أن من الأحسن ادخار قوته لساعة الفصل مع الصليبيين •

استيلاء صلاح الدين على مدن أقليم الجزيرة سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م :

وفى سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م توفى الملك الصالح اسماعيل بعد أن عهد بولاية حلب لعز الدين مسعود ، صاحب الموصل ، فرأى صلاح الدين خطورة ذلك ، وأخذ يفكر فى قطع الصلة نهائيا بين حلب والموصل واضعافهما ورأى الوسيلة الى ذلك استيلائه على مدن أقليم الجزيرة •

ومما لا شك فيه أن صلاح الدين كان يعلم ما لهذه البلاد من أهمية كبرى فى جهاده ضد الصليبيين ، فهو كما يبدو لنا كان فى مقدوره عندما خرج من مصر بعد تحصينها والاطمئنان عليها ببناء السور وتشييد القلعة على طرف

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤٦ •
(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٨ • ، أنظر أيضا :
B. Lewis, Saladin, and the Assassins, p.p. 230-240.
(٣) العينى ، عقد الجمان ، ج ١٢ ، ورقة ٢٠٥ ؛ البندارى ، سنا البرق الشامى ، ج ١ ، ص ٢١٩ •

المقطم – كما سنرى فيما بعد – (١) الاتجاه الى الشام بعد وفاة الملك الصالح ، والاستيلاء على حلب ، حيث حاصرها ثلاثة أيام فقط ، ثم رحل عنها (٢) ولعل السبب فى ذلك ادراكه أن جيش الشام ومصر لن يكفى لقتال الصليبيين فى فلسطين فضلا عن تخوفه على ما يبدو من خيانة أهل هذه البلاد وضربه من الخلف أثناء جهاده ضد الصليبيين فآثر ضمها أولا . وبلغ به العزم على ذلك أنه رفض العودة الى بلاد الشام عندما بلغه آنذاك هجوم الصليبيين على دمشق وتخريب بعض المدن المحيطة بها ، بل أجاب أصحابه بقوله « يخربون قرى ونملك عوضا عنها بلادا ونعود ونعمرها ونقوى على قصدهم » (٣)

ورحل صلاح الدين عن حلب قاصدا البلاد الشرقية فى جمادى الأول من سنة ٥٧٨هـ / ديسمبر ١١٨٢م. وهنا تذكر المصادر سببا آخر شجع صلاح الدين على المسير الى هناك ، ذلك أن مظفر الدين كوكبورى ، صاحب حران ، كاتبه يحثه على ذلك ويعده المساعدة (٤) . فارتحل عن حلب ونزل على البيرة التى كان صاحبها قد دخل فى طاعة صلاح الدين (٥) . وهنا يبدو أن صلاح الدين أدرك تذمر بعض الامراء من سياسة الزنكيين ، فكاتب ملوك البلاد المجاورة هناك

---

(١) أنظر ما يلى – ص .

(٢) ابن شداد ، النودر السلطانية ، ص ٥٦ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٠ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٨ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣١١ ؛ ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، ص ١٤٨ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٨٤ .

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥٦ – ٥٧ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٠ ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٢٠٥ ، ابو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٦٤ .

(٥) أنظر ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٧٥ – ٤٧٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

ووعدهم بأن من جاء اليه راضيا سلمت بلاده له ، على أن كون من أجناد السلطان وساعد يعلى جهاد الصليبيين ، فجاء الى خدمته صاحب ماردين ، ورسول من قبل صاحب حصن كيفا معلنين طاعتهما له (١) . أما عزالدين وأصحابه فانهم كانوا قد ساروا الى نصيبين قاصدين حماية حلب من صلاح الدين الا أنهم فوجئوا به يعبر الفرات اليهم ، فعادوا الى الموصل ، فاستغل صلاح الدين ذلك ، وهاجم أقليم الجزيرة فاستولى على الرها وحران والرقه وسروج ونصيبين وغيرها سنة ٥٧٨هـ / ١١٧٢م (٢) .

ويبدو أن صلاح الدين بعد انتصاره ذلك أراد أن يستغل تواجد جيوشه فى تلك المنطقة ، فاستشار أصحابه فى مهاجمة الموصل أو سنجار أو جزيرة ابن عمر ، فأشاروا عليه بالموصل لأهميتها ، فحاصرها حصارا شديدا قابله الزنكيون بصمود هائل (٣) .

ويبدو أن صلاح الدين أخذ يشعر الحرج لمهاجمة الزنكيين — وهم مسلمون مما لا يتفق ودعوى الجهاد ضد الصليبيين ، لذلك حاول أن يدعم مركزه بطلب التأييد من الخليفة العباسى الناصر لدين الله فبعث اليه رسالة يتهم فيها أمير الموصل بأنه عقد تحالفا مع الصليبيين قال فيها : " ولما تحقق

---

(١) الاصفهانى ، البستان الجامع ، ورقة ١٢٣ أ — ب ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١١٦ — ١١٧ ؛ ابو الفدا ، المختصرة فى أخبار البشر ، ج ٣ ، ص ٦٤ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥٧ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٨٣ — ٤٨٤ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٥٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣١١ ؛ .

(٣) أنظر ابن سعيد ، الروض المهضوب ، ج ٢ ورقة ٢٩ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٨٤ — ٤٨٥ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٣ ، ابن واصل مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١١٩ — ٢٢١ .

الخادم أن المواصلة قد واصلوا الفرنج مواصلة أخلصوا فيها الضمائر ٠٠٠٠ وعقدوا معهم عقدا ٠٠٠٠ وكان عقدهم احدى عشرة سنة ، والمستقر لهم في كل سنة عشرة آلاف دينار على أن تسلم ثغور المسلمين الى الكفار ٠٠٠٠٠ وأسارى الفرنج في كل بلدة بأيديهم وفي كل بلد يسترجعونه من الخادم مساعدة الفرنج ٠٠٠٠٠٠٠ (١).

ولم يتأثر عز الدين مسعود صاحب الموصل ، بتلك المناورات التي قام بها صلاح الدين ، بل صمم على الصمود أمامه ، فلجأ الى الاستنانة ببعض الامراء المجاورين مثل قزل ارسلان صاحب اذربيجان وشاه أرمن صاحب خلاط (٢). أما الخليفة العباسي ، فقد اكتفى بالسعي للصلح بين صلاح الدين والزنكيين ، وفوض صدر الدين شيخ الشيوخ (٣) في القيام بتلك المهمة ، حيث كان المواصلة قد بعثوا اليه عندما علموا بمقدم صلاح الدين رسولا يخبره بذلك ، ويطلبون منه النجدة ، الا أن هذه الوساطة لم تنجح بسبب اختلافها حول شروط الصلح (٤).

والواقع أنه بالرغم من أن العلاقة بين صلاح الدين والخلافة العباسية قد ازدادت رسوخا وثباتا بحيث فاقت بكثير ما كان هناك بين سيده نور الدين

---

(١) ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣١ ؛ ابن شاهنشاه الأيوبي ، مضمار الحقائق ، ص ١٤٤ ؛ أنظر أيضا سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٧٦ ــ ٧٧٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٨٧ .

(٣) الشيخ صدر الدين هو شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبي سعيد ابن احمد النيسابوري ولد سنة ٥٠٨ هـ ، ذكر ابوشامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٧ أنه رتب في شيخه الشيوخ منذ توفي والده سنة احدى وا بعين وخمسمائة ، ولم يزل على ذلك الى أن توفي في سنة ٥٨٠ هـ (أنظر أيضا ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٦٢)

(٤) أنظر ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٨٦ ؛ ابو شامه ، الروضتين ج ٢ ، ص ٣٣ ؛ =

والخلافة العباسية فى بغداد ، لاتفاقهما فى المصالح والأهواء . فالخلافة الفاطمية التى انتهت فى مصر على يد صلاح الدين ، خلفت وراءها ذيولا لا يستهان بها ، مما سبب لصلاح الدين متاعب كثيرة ، حيث تعرض لمدة مؤامرات من جانب الشيعة فى مصر ، فضلا عن المؤامرات التى دبرها الباطنية لقتله بالشام . وازاء هذه الاخطار التى هددت صلاح الدين من جانب الشيعة فى مصر وجد نفيسه مضطرا للارتماء فى أحضان الخلافة العباسية ، التى لاشك أنها نظرت بعين العطف والارتياح الى الجهود الكبيرة التى بذلها صلاح الدين فى استئصال جذور التشيع من مصر ، وتوطيد دعائم المذهب السنى ، فضلا عن أن الخلافة العباسية فى صحوتها كان يعنيها فى المقام الأول ، أن يكون لها فى مصر والشام رجل قوى يدين لها بالتبعية والروحية على الاقل (١) . غير أن الخلافة العباسية قد أقلقها بعد ذلك الانتصار السريع الذى حققه صلاح الدين ضد الزنكيين ، وأنها أصبحت تخاف على مركزها سيما وأنه بوصوله الى الموصل ، أصبح منها قاب قوسين أو أدنى . لذلك لا يستبعد أن نرى أنها أصبحت عقب ذلك حريصة كل الحرص على الابقاء على البقية الباقية من البيت الزنكى خوفا من ازدياد نفوذ صلاح الدين ، ليصبح قوة تطغى على نفوذ الخلافة ، ولتظل الموصل كما كانت خطا دفاعيا عن بغداد (٢) . ولعل ما يؤيد ذلك ما ذهب اليه بعض المؤرخين من أن الخليفة العباسى بعث الى صلاح الدين يأمره بالرحيل

= ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ــ ١٢٣ ؛ ابن شاهنشاه الايوبى ، مضمار الحقائق ، ص ١٠٧ ــ ١٠٨ .

(١) أنظر سعيد عاشور ، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ص ٦٩ــ ٧١ .

(٢) نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٣٩ .

عن الموصل أثناء حصاره لها (١) .

وأخيرا يمكننا القول بأن صلاح الدين رأى أنه لابد من ترك حصار الموصل لهذه الأسباب آنفة الذكر مضافا اليها تخوفه من تلك المعاهدة التي انعقدت بين المواصلة والصليبيين ، والتي تعهد أهل الموصل فيها بدفع عشرة آلاف دينار سنويا للصليبيين ، وتسليمهم بعض ثغور المسلمين ، واطلاق سراح أسراهم مقابل مساعدتهم ضد صلاح الدين (٢) .

وفي طريق عودة صلاح الدين من الموصل ، مر بسنجار التي كان أهلها أثناء حصاره للموصل يقطعون طريق من يقصده من عساكره ، فاستولى عليها في شعبان من سنة ٥٧٨هـ / ديسمبر ١١٨٢م (٣) .

استيلاء صلاح الدين على حلب سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م :

يذكر ابن الأثير أن سيف الدين غازي صاحب الموصل في آخر أيامه وذلك سنة ٥٧٦هـ أراد أن يعهد بملك الموصل لابنه معز الدين سنجر شاه ، الا أن كبار أمرائه تدخلوا وأشاروا عليه بأن يعهد بذلك لأخيه عز الدين مسعود ، لما هو عليه من شجاعة وقوة نفس يستطيع بها مقاومة صلاح الدين الذي اتسع نفوذه في بلاد الشام (٤) .

(١) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٥٩ ؛ العبر في خبر من غبر ، ج ٤ ، ص ٢٣٢ .
(٢) أنظر ما سبق ، ص ٦٦ .
(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥٧ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٨٧ ؛ ابن خلكان وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٢٠٦ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٦٣ .

كما سار على هذا النهج الملك الصالح اسماعيل فى حلب ، فانه عندما أشتد به المرض وأراد أن يوصى بالملك بعده أشير عليه بابن عمه وصهره عماد الدين زنكى الثانى فرفض ذلك ، وذكر أصحابه بما وصل اليه نفوذ صلاح الدين فى بلاد الشام ، وأنه لم يبق منها سوى مدينة حلب نفسها واذا سلمت الى عماد الدين لم يستطع حفظها من صلاح الدين ، ومتى استولى عليها صلاح الدين فلن يبقى للبيت الزنكى مقام هناك ، وأن من الأحسن تسليمها الى عزالدين مسعود صاحب الموصل لكثرة عساكره وبلاده وأمواله (١) .

وبالرغم من أنه يبدو للباحث من هاتين الروايتين أن الأمراء الزنكيين أصبحوا يخشون بأس صلاح الدين الى درجة أن كل أمير تحضره الوفاة كان يعمد الى اختيار خلف قوى يستطيع مجابهة صلاح الدين .

وعندما توفى الملك الصالح فى رجب من سنة ٥٧٧هـ / ديسمبر ١١٨١م سار عز الدين مسعود الى حلب فتسلمها ودخل قلعتها ، واستولى على ما بها من الخزائن ، وتزوج أم الملك الصالح قاصدا بذلك تثبيت أقدامه هناك (٢) . ويذكر ابن الأثير وغيره أن أهل حماه خرجوا عن طاعة صلاح الدين وذلك فى شعبان من سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م ، وأن أهل حلب أشاروا على عز الدين بمهاجمة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٧٣ ؛ أنظر أيضا ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١ ــ ٢٢ ؛ سبط ابن الجوزى مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٦٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٠٧ ــ ١٠٨ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٤١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٨٩ ــ ٩٠ .

(٢) تاريخ ابن أبى الهيجاء ، ورقة ١٧٨ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢ ؛ ابن خلكان وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ١٦٩ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٦٧ .

دمشق وغيرها من بلاد الشام مستغلين غياب صلاح الدين عنها ، فلم يفعل وقال « بيننا يمين فلا نغدر به »(١). ويبدو أن تردد عز الدين ومحافظته على العهد يرجع الى ما أشاعته هيبة صلاح الدين وشخصيته في قلبه من رهبة وفزع(٢). كما لا يستبعد أن يكون قد شعر بأن توسعه قد يؤدى الى اثارة أخيه عماد الدين زنكى ومنافسته خاصة وانه كان يحظى بمكانة كبيرة فى نفوس أهل الشام بدليل الحاحهم بادئ الأمر على الملك الصالح بأن يجعله خلفا له .

ولم يطل مقام عز الدين مسعود بحلب بل رحل عنها فى شوال من سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م . بعد تسلمها بعدة شهور الى الرقة وفيها وصلته رسل أخيه عماد الدين صاحب سنجار يطلب منه أن يسلم اليه حلب ويأخذ منه سنجار عوضا عنها ، فلم يجبه الى ذلك . ولكن يبدو أن عز الدين كان قد تخوف من رد الفعل لدى صلاح الدين ، وخاصة أن أخاه عماد الدين قد هدده بأن يسلم سنجار الى صلاح الدين اذا لم يوافق على طلبه(٣). كما أن تسليم حلب لعز الدين لم يرق لبعض الامراء فيها ، حيث راسلوا عماد فى السر يطلبون مجيئه الى حلب(٤) بالاضافة الى الحاحهم فى طلب الاموال والزيادة فى الاقطاع(٥). كل ذلك

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٧٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٤٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٢) نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٣٠ .

(٣) ابن الاثير الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٧٤ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٠٩ - ١١٠ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

(٤) أنظر ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ٤٥ .

(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

جعل عز الدين يوافق على طلب أخيه ، فتنازل له عن حلب مقابل أخذ سنجار ، وعاد الى الموصل بعد أن أدرك أنه ليس بامكانه حفظ الموصل مع الشام (١) .

وحدث ما توقعه عز الدين مسعود حيث وصل صلاح الدين الى الشام في صفر من سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م ، وبدأ بحصار حلب ، ثم رأى أن يتجه شرقا لغزو الموصل فاستولى على مدن أقليم الجزيرة — كما سبق أن ذكرنا — وعاد بعدها قاصدا حلب فساستولى في طريقه على آمد وتل خالد وعين تاب في المحرم من سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م (٢) . ويبدو أن صلاح الدين قصد بذلك قطع أى اتصال بحلب بالاضافة الى تعزيز قواته لحصارها . ولعل ذلك كان السبب في أنه سلم آمد بخزائنها الى صاحب حصن كيفا ، كما أن هذا العمل يبعد صلاح الدين كل البعد عن الأنانية وحب السلطة ، وقصد بأعماله تلك الاستعداد لجهاد الصليبيين (٣) .

اتجه صلاح الدين بعد ذلك الى حلب في المحرم من سنة ٥٧٩هـ /يونيه ١١٨٣م فأحكم حصارها ولقى مقاومة من أهلها بادىء الأمر . ولكن يبدو أن عماد الدين زنكى الثانى أدرك أنه لا قبل له بمقاومة صلاح الدين وذلك لاسباب عدة منها : أن ذلك سوف يكلفه الشىء الكثير ، حيث أخذ يقتصد في

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٣٦٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٩٣ — ٤٩٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٣٩ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٨١ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٠ ؛ ابن الوردى/ تتمة ، المختصر ، ج ٢ ، ص ١٣٣ ، وآمد مدينة من أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدرا ، وتل خالد قلعة من نواحى حلب ، وعين تاب قلعة حصينة بين حلب وانطاكية ، (أنظر ياقوت ، معجم البلدان) .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٩٤ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، =

اخراج الاموال ، محتجا بأن أخاه عز الدين مسعود لم يترك له بها شيئا . الأمر الذى أغضب أهل حلب ، وطالبوه بانفاق كل ما يلمك فى سبيل الحفاظ عليها . (١) كما أن لحنكة صلاح الدين دور كبير فى ذلك ، حيث تظاهر بأنه يريد أن يبنى مساكن على جبل جوشن بالقرب من حلب ، مما أدخل الرهبة والفزع فى قلوب الحلبيين . (٢) يضاف الى ذلك وقوف عز الدين مسعود من ذلك موقفا سلبيا - حيث لم تذكر المصادر قيامه بشىء لمساعدة أخيه وحماية حلب . لذلك اضطر عماد الدين الى مفاوضة صلاح الدين ، ومال الى أن يسلم اليه حلب مقابل اعطائه سنجار ، فوافق صلاح الدين على ذلك ، وزاده على طلبه الخابور والرقة ونصيبين . واستقر لصلاح الدين أمر حلب فى صفر من سنة ٥٧٩هـ/يونيه ١١٨٣م . (٣)

والواقع أن استيلاء صلاح الدين على حلب قد ترتبت عليه نتائج هامة كان لها الأثر الكبير فى مشروع الجهاد ضد الصليبيين . حيث أصبحت مقاليد بلاد الشام كلها بيد صلاح الدين ، كما أنه يمكن القول بأن دولته بعد ذلك أصبحت من حيث السعة والمناعة الحربية والسمعة أكبر دولة فى الشرق الأدنى كله ، اذ شملت جميع البلاد من دجلة الى النيل وشواطىء أفريقية الشمالية حتى طرابلس ، فضلا عن النوبة واليمن والحجاز . وذكر ابن جبير أنه فى جمادى الأولى من سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م دعا الخطيب بمكة للخليفة العباسى ، ثم

■ ج ٦ ، ص ٩٤ ؛ ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢١٩ ؛ الباز العرينى ، الشرق الادنى فى العصور الوسطى ، القسم الاول ، الايوبيون ، ص ٦٦ .

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٩٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٦٤ - ٦٥ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٩٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ابن شاهنشاه الايوبى ، مضمار الحقائق ، ص ١٤١ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٩٧ ، ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٣ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٧٥ - ٣٧٦ ؛ ابن واصل ، التاريخ الصالحى ورقة ٢١٠ ب ، أنظر ايضا العماد ، البرق الشامى ج ٥ ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

لأمير مكة ، ثم لصلاح الدين ، وما أن وصل الى اسم صلاح الدين حتى " خفقت الألسنة بالتأمين عليه من كل مكان "(١) .

أما بالنسبة للصليبيين فان استيلاء صلاح الدين على حلب وتوابعها ، كان بمثابة ضربة خطيرة وجهت لهم ؛ ذلك أن صلاح الدين بهذا العمل أصبح أقوى حاكم في الشرق الاسلامي . بالاضافة الى تأكيد الروابط العسكرية بين محور مصر والشام ، حتى غدت أملاك الصليبيين بالشام محصورة داخل هذا المحور .(٢)

واستطاع صلاح الدين باستيلائه على حلب ، أن يوقع الانقسام بين البيت الزنكي نفسه ، فنرى أن من ضمن الشروط التي سلم بموجبها سنجار وغيرها من مدن أقليم الجزيرة الى عماد الدين زنكي الثاني ، أن تكون جيوش تلك المناطق تحت تصرفه اذا أراد الغزو(٣) . ولعله بهذا العمل قد ضمن عدم تدخل عماد الدين لمساعدة أخيه عز الدين مسعود صاحب الموصل اذا ما أراد صلاح الدين مهاجمة الموصل . والأهم من ذلك أنه بهذا الشرط ضمن مؤازرة عماد الدين له اذا أراد الغزو ضد الصليبيين .

الموصل تدين بالولاء لصلاح الدين سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م :

بعد أن استولى صلاح الدين على حلب اتجه الى جهاد الصليبيين

---

(١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٩٦ ، نظير حسان سعداوي ، التاريخ الحربي المصري ، ص ١٤٨ .
(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٨٠ ؛ نظير حسان سعداوي التاريخ الحربي المصري ، ص ١٤٧ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٩٧ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

بعض الوقت ، فغزا بيسان والكرك ، (١) وهذا يكشف لنا السياسة الحكيمة التي اتبعها صلاح الدين في تلك الرحلة التي كان يعد نفسه بها للجهاد ضد الصليبيين ، ففي الوقت الذي كان يعمل فيه جاهدا لتوحيد الجبهة الاسلامية ، كان يقوم بغارات متعددة على ممتلكات الصليبيين ، لايجاد توازن بينه وبينهم ، حتى تمكن في النهاية من التفرغ لهم . الا أن ذلك لم ينسه ضم الموصل ، والاستفادة من امكانياتها في جهاده ضد الصليبيين ، والعزم على حصارها . وهناك ثمة احداث ربما كان لها الأثر الكبير في دفعه الى اتخاذ هذه الخطوة من ذلك ما قام به مظفر الدين كوكبوري صاحب حران من حث صلاح الدين على قصد الموصل ، حيث أكثر من مراسلته ، ثم خلف بوعده عندما وصل صلاح الدين الى حران ، (٢) بالاضافة الى استنجاد صاحب أربل به عندما تعرض لهجوم من قبل عز الدين مسعود نفسه . (٣) كما يبدو أن عز الدين مسعود بعد أن استولى على حلب أدرك حرج موقفه ، وانه ليس في مقدوره مقاومة صلاح الدين لو حاصر الموصل . لذلك أراد أن يدخل في مفاوضات معه . فبعث الى الخليفة العباسي يتوسل اليه في انفاذ مندوب من قبله الى صلاح الدين للقيام بدور الوساطة بينهما ، فأرسل شيخ الشيوخ صدر الدين الذي انضم اليه وفد من أهل الموصل . ووصلوا الى دمشق في ذى القعدة من سنة ٥٧٩هـ/فبراير ١١٨٥م ولكنهم عادوا دون التوصل الى نتيجة في ذلك . (٤)

---

(١) أنظر ما يلي في الفصل الثالث :

(٢) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٦٥ ؛

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٦٨ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٣٨٣ .

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٦٥ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٣٧٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٦٢ ؛ ابن شاهنشاه الايوبى ، مضمار الحقائق ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ ؛ أنظر ايضا العماد ، البرق الشامى ، ج ٥ ، ص ١٦ ـ ١٧ .

ومهما يكن من أمر ، فان صلاح الدين سار الى حران فى أوائل سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م وهناك انضمت اليه عساكر صاحب حصن كيفا ، ودارا . كما دخل فى طاعته معز الدين سنجر شاه ابن أخى عز الدين مسعود ، صاحب جزيرة ابن عمر ، الذى كان قد خرج عن طاعة عمه بعد قبضه على مجاهد الدين قايماز.(١) ثم سار صلاح الدين باتجاه الموصل فى ربيع الأول من سنة ٥٨١هـ/يونية ١١٨٥م. ويبدو أنه أراد أن ينال من الخليفة العباسى تقليدا يخوله الاستيلاء على الموصل ؛ فبعث اليه يخبره بما عزم عليه من منازلة الموصل وأن هناك أسبابا تجبره على ذلك منها أن أهل الموصل يخطبون لسلطان العجم ، وينقشون النقود باسمه ، كما أنهم يراسلون الصليبيين ويحرضونهم على مهاجمة بلاد الاسلام ، وأنه لا يقصد بذلك الطمع فى الملك أو التخلص من البيت الزنكى ، وانما قصده ردهم الى طاعة الخليفة ونصرة الاسلام ، وقطعهم عن مواصلة العجم.(٢)

أما عز الدين مسعود فانه لما سمع باقتراب صلاح الدين من الموصل أخرج اليه نسوة كان من بينهن ابنة نور الدين محمود ، ومعهن جماعة من أعيان الموصل يطلبون من صلاح الدين الصلح ، فاستشار صلاح الدين أصحابه فى ذلك فاختلفوا بين مؤيد وممتنع وقال بعضهم « ان عز الدين ما أرسلهن الا وقد عجز عن حفظ البلد » وازاء هذه العبارة لم يستطع ابن الاثير أن يخفى تعصبه للمواصلة ، فذكر أن عز الدين مسعود لم يرسل هؤلاء النسوة بسبب احساسه

---

(١) أنظر ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٩٩ ــ ٥٠٠ .
(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٥ ، ص ١٦٦ .

الضعف والوهن أمام صلاح الدين ، وانما فعل ذلك لدفع الشر بالتى هى أحسن (١). ولا شك أن عز الدين مسعود أدرك أنه سيواجه صلاح الدين وحيدا ، وأنه لم يعد يطمع فى أكثر من الموصل . لذلك آثر أن يبذل كل ما فى وسعه فى سبيل الاحتفاظ بها ، الا أن صلاح الدين كان يعلم أنه لن يهدأ بالا الا بالسيطرة على تلك المنطقة ، فرد النسوة وصمم على النزول على الموصل بالرغم مما وصله عن اتفاق ملوك الشرق على قتاله اذا هاجم الموصل (٢) . وفرض عليها حصارا استمر قرابة شهر (٣) .

وفى تلك الاثناء توفى شاه أرمن صاحب خلاط فى ربيع الآخر من سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ، ولم يكن له ولد يخلفه فقام مقامه أحد مماليكه (٤) . ويبدو أن صلاح الدين كان يتحين الفرص لتوسيع نفوذه فى تلك المنطقة قاصدا بذلك تضييق الخناق على الموصل ، فاستشار أصحابه فى قصد خلاط ، ثم حدث أن جاءه بعض أعيانها ، يستدعونه ليسلموها اليه . وهنا يقال أنهم فعلوا ذلك مكرا وخديعة بصلاح الدين ، بسبب خوفهم من شمس الدين البهلوان بن ايلدكز صاحب اذربيجان وهمذان الذى كان ينوى السيطرة على بلدهم ، فى الوقت الذى سمعوا فيه بمسير صلاح الدين اليهم ، ليدفعوا به البهلوان ويدفعوه

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥١٢ .
(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٦٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٦٥ — ١٦٦ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣ ، ويذكر أن ابن العديم ، (زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٨٢) أن ذلك الحصار استمر شهرين .
(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٦٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥١٣ — ٥١٤ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٨٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٦٨ — ١٦٩ — وخلاط ، قصبة ارمينية الوسطى (أنظر ياقوت ، معجم البلدان) .

بالبهلوان ويبقى البلد بأيديهم (١) ..

ومهما يكن من أمر فان صلاح الدين سار باتجاه خلاط ونزل على ميافارقين ، وحاول الاستيلاء عليها بالقوة الا أنه لقي مقاومة كبيرة بها ، الأمر الذى دعاه الى استخدام الحيلة فى ذلك . فأوقع بين زوجة قطب الدين ايلغازى صاحب ماردين المقيمة بالبلد بعد وفاة زوجها وبين أسد الدين برنقش الذى ولى ميافارقين بعد وفاته . فسلم أسد الدين البلد الى صلاح الدين فى جمادى الأولى من سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م مقابل اشتراطه مالا واقطاعا (٢) .

والواقع أن استيلاء صلاح الدين على ميافارقين يعد من الأحداث الهامة فى ذلك النزاع الذى دارت رحاه بين صلاح الدين والبيت الزنكى ، فهو بجانب كونه بذلك قد ضيق الخناق على الموصل ، فان ابا شامة يذكر نقلا عن العماد الاصفهانى ، أن صلاح الدين قد نال بعد فتحها تشريفا من الخليفة العباسى خوله النظر فى أحوال ديار بكر ومصالح ايتام ملوكها (٣) . الأمر الذى زاد مركزه قوة فى تلك المنطقة ، وأصبح كل تصرف له مصبوغا بصبغة شرعية .

عاد صلاح الدين بعد أن رتب شئون ميافارقين قاصدا حصار الموصل ،

---

(١) أنظر ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥١٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥١٦ ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٢٠٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٧٠ ؛ ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، ص ١٥١ ؛ ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٦٨ ؛ الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ج ٤ ، ص ٢٤١ ؛ اليافعى ، مرآة الجنان ، ج ٣ ، ص ٤١٩ .

(٣) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٣ .

فنزل بالقرب منها وذلك فى شعبان من سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م . وهنا يبدو أن عز الدين مسعود قد فقد الأمل فى الحفاظ على الموصل ، خاصة بعد فشله فى الحصول على النجدة من الخليفة العباسى ، وملك العجم البهلوان (١) ، بالاضافة الى كون صلاح الدين قد عزم على المقام بالقرب من الموصل ، واقطاع تلك البلاد على جيشه ، وأخذ غلالها ودخلها ، واضعاف الموصل بذلك (٢). ومن ناحية أخرى فانه لا يستبعد أن يكون صلاح الدين نفسه قد رأى أن من الافضل معالجة الموقف بالطرق السلمية ، قاصدا بذلك حقن دماء المسلمين التى لا غنى له عنها فى جهاده ضد الصليبيين بعد ذلك . كما يحتمل أيضا أن يكون قد تخوف من قيام الصليبيين بهجوم مباغت على بلاد الشام مستغلين طول غيابه عنها . ولعل مما يؤيد ذلك ما ذهب اليه بعض المؤرخين من أن صلاح الدين قد أرسل الى عماد الدين زنكى (الثانى) صاحب سنجار يطلب منه القيام بدور الوساطة بينه وبين أمير الموصل (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فان عماد الدين زنكى لم يلبث أن قام بهذا الدور ، فأخذت رسله تتردد بين الطرفين ، وانتهى الأمر ، بأن تسلم صلاح الدين شهرزور وقلاعها وحصونها وضياعها ، وكذلك ما وراء النهر من البوازيج وغيرها من البلدان المجاورة (٤) ، وأن تكون الخطبة والسكة فى الموصل لصلاح

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٠ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٧١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٧١ .

(٣) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٦٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٢ ، ص ١٧١ .

(٤) شهرزور : كورة واسعة فى الجبال بين اربل وهمذان ، والبوازيج : بلد قرب تكريت على فم الزاب الاسفل حيث يصب فى دجله وهى من أعمال الموصل (أنظر ياقوت ، معجم البلدان) .

الدين ، الذى كان قد انتقل الى حران بسبب مرضه ، فوصلته رسل عز الدين مسعود وعلى رأسهم المؤرخ ابن شداد (١) واستقر الصلح بين الطرفين وحلف كل منهما للآخر ، وترتب على ذلك أن أقيمت الخطبة لصلاح الدين فى ديار بكر ، والبلاد الارتقية (٢) ، وذلك فى ذى الحجة من سنة ٥١٨هـ/مارس ١١٨٦م.

وهنا يبدو أن ابن الاثير الذى عرف بميله للزنكيين ، أراد أن يبعدهم عن مظهر الوهن والضعف أمام صلاح الدين ، فذكر أن صلاح الدين هو الذى حلف أولا ثم بعث رسله الى عز الدين مسعود فحلف لهم (٣).

ومما لا شك فيه أن هذا الصلح يعد مكسبا كبيرا لصلاح الدين ، استطاع بواسطته أن يقوى عدته استعدادا للجهاد ضد الصليبيين ، حيث يذكر أبو شامه فى الروضتين ، رسالة كتبها العماد الاصفهانى على لسان السلطان الى أخيه سيف الاسلام طغتكين واليه على اليمن يخبره بأن من ضمن شروط صلحه مع أهل الموصل : أن تكون عساكرهم فى خدمته للجهاد (٤). كما يبدو أيضا أنه بهذا ، استطاع أن يقضى على المعاهدة الزنكية الصليبية بعد مضى أربع سنوات على ابرامها ، وأن يحقق الشطر الاول من حلم عماد الدين الزنكى ونور الدين محمود فيما يختص بتوحيد كلمة المسلمين تحت زعامة رجل واحد .

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص .

(٢) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، جـ٢ ، ص ٦٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٧١ - ١٧٢ ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٥ ، ص ٢٠٧.

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥١٧ .

(٤) ابو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٤ .

والواقع أن صلاح الدين بهذا الانجاز العظيم الذى حققه بتوحيد الجبهة الاسلامية ، أصبح فى مركز قوى يمكنه من توجيه جهوده لجهاد الصليبيين واسترداد بيت المقدس .

****

الفصل الثانى

جيش صلاح الدين وتنظيماته الحربية

- صلاح الدين وتجديد حركة الجهاد الاسلامى ضد الصليبيين.
- تطور نظام الاقطاع الحربي فى عصر صلاح الدين .
- ديوان الجيش الصلاحى .
- تنظيم الجيش الصلاحى.
- الاسلحة والمؤن والعتاد .
- أساليب القتال .
- دور الاسطول فى جهاد صلاح الدين .

الفصـــل الثانـــي

جيش صلاح الدين وتنظيماته الحربيـة

صلاح الدين وتجديد حركة الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين :

جاء صلاح الدين ليحقق ذلك الحلم الذي بدأه عماد الدين زنكي ثـم ابنه نور الدين محمود ، لتوحيد كلمة المسلمين ووقوفهم صفا واحدا لتصفيـــة العدوان الصليبي الذي خيم على المشرق الاسلامي في ذلك الوقت . والباحـث في تاريخ الدولتين الزنكية والصلاحية يدرك أن قيامهما كان صحوة اسلاميـــة استهدفت ايقاظ العالم الاسلامي من سباته العميق الذي استغله الغـــرب الأوربي ، ممثلا في الحملات الصليبية ، ليفرض سيطرته على أجزاء منه . وبالرغـم من أن عماد الدين زنكي ثم نور الدين محمود قد تمكنا من القضاء على كل مـــا يعكر صفو الوحدة الاسلامية سواء بانهاء حالة الانقسام التي حلت بالعالـــم الاسلامي والتي أهمها قضاء نور الدين محمود على الخلافة الفاطمية الشيعيـــة في مصر التي كانت تنافس الخلافة العباسية السنية في بغداد ، أو بالقضاء على امارة الرها تلك الامارة الصليبية التي أسسها الصليبيون في أعالي العراق . وجاء صلاح الدين يجدد دعوة الجهاد الاسلامي ضد الصليبيين .

والواقع أننا اذا تتبعنا أعمال صلاح الدين في هذا المجال . ندرك أن الدافع الاساسي له كان الجهاد في سبيل الله . ولما كان ذلك لا يتأتى الا بتوحيد كلمة المسلمين فانه قد سعى جاهدا في سبيل تحقيق ذلك ، حتى تمكن من تكوين جبهة اسلامية ضمت مصر والشام وأقليم الجزيرة . قضى في سبيل تحقيقها نحـــو

تسعة أعوام (٥٧٠ ـ ٥٧٩هـ/١١٧٤ ـ ١١٨٣م) أصبح بفضلها أقوى ملك بين ملوك الشرق (١) . ثم اتبع ذلك بثلاث سنين تمكن خلالها من اخضاع الموصل وتحقيق ولائها له وذلك فى سنة ٥٨١هـ/١١٨٦م ـ كما سبق أن ذكرنا ، ليعود بعد ذلك لمواصلة الجهاد ضد الصليبيين ذلك الجهاد الذى كان يعد فى نظره فرض عين على كل مسلم ، لا يقل عن كونه ركنا من أركان الاسلام . ومن الأدلة على ذلك ما ذكره ابو شامة نقلا عن العماد الاصفهانى من أن المسلمين بعد استرجاعهم بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م عقدوا العزم على الحج وأحرموا من المسجد الأقصى على أن الحج والجهاد فى نظرهم " ركنا الاسلام " (٢) . كما أورد ابن كثير فى البداية والنهاية أن صلاح لما رجع الى دمشق بعد غزوة حصن كوكب سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٩م ووجد الصفى بن القابض (٣) وكيل الخزانة قد بنى له دارا ضخمة بقلعة دمشق ، غضب عليه وعزله وقال " انا لم نخلق للمقام بدمشق ولا بغيرها من البلاد ، وانما خلقنا لعبادة الله عز وجل والجهاد فى سبيله " (٤) .

والى جانب ذلك فان صلاح الدين كان قد اتبع أساليب عدة دلت على اهتمامه البالغ بتجديد دعوة الجهاد الاسلامى ودفع المسلمين الى أداء هذا

---

(١) أنظر نظير حسان سعداوى ، الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى .
(٢) ابو شامة ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .
(٣) الصفى بن القابض : أحد أمراء المسلمين الذين ولاهم صلاح الدين دمشق توفى سنة ٥٨٧هـ (أنظر ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٧٧) .
(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٩ .

الواجب ، منها اهتمامه الشخصي بأمر الجهاد ، حيث حرص على أن يكون قدوة صالحة في هذا العمل ، فكانت مجالسه لا تخلو من الحديث عن الجهاد لاسيما فضائله وأساليب التأهب والاستعداد له وشغفه به ، فيروى أنه قال في أحد مجالسه " متى يسر الله فتح الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر الى جزائره ، أتتبعهم حتى لا أبقى على وجه الارض من يكفر بالله أو أموت " (١) . وكان الرجل من أصحابه اذا أراد أن يتقرب اليه ، ذكر له شيئا من أخبار الجهاد ومحاسنه وفضائله وحثه عليه (٢) . كما بلغ شغف صلاح الدين بأمر الجهاد في سبيل الله أن طلب من كبار وزرائه وكتابه أن يؤلفوا له كتبا عدة في هذا الموضوع بينوا فيها فضائل الجهاد وآدابه مستشهدين بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي وردت فيه . فكان ممن ألف له في هذا الشأن العماد الأصفهاني حيث يقول " وكنت قد جمعت له كتابا في الجهاد بدمشق " (٣) ، وكذلك القاضي الفاضل الذي قال : " وأنا ممن جمع له في الجهاد كتابا جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه وكل حديث روى فيه " (٤) . كما قال المؤرخ بهاء الدين بن شداد " وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه وكل حديث روى في فضله ، وشرحت غريبها ، وكان رحمه الله كثيرا ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك الافضل " (٥)

---

(١) ابن سعيد ، الروض المهضوب ، ج ٢ ، ورقة ١٧ ب ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٢ ، ابن واصل مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٣٣ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢١ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٥ ؛ ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ص ١٢٧ .

(٣) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .

(٤) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١ ـ ٢٢ .

(٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢١ .

كما اتبع صلاح الدين الى جانب ذلك أسلوبا آخر لتجديد دعوة الجهاد الاسلامي وحث الناس عليه ، دل على رجاحة عقله وعظم اهتمامه بهذا الأمر : لقد كان يقوم بارسال الرسل ومعهم الكتب الى الخليفة العباسي اما لاطلاعه على سير المعارك والفتوحات كما حدث بعد معركة حطين وفتح عكا سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م حيث قال العماد الاصفهاني في نهاية كتاب بعثه اليه ذكر فيه ذلك الانتصار ، وعزمهم على فتح بيت المقدس " وما يتأخر النهوض الى البيت المقدس وهذا أوان فتحه وقد دام الضلال ، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صحة الاسلام "(١) واما لاخباره بحلول الازمات ، كما حدث عندما بلغه مقدم ملك الالمان فردريك بربروسا ، حيث بعث رسولا من قبله هو المؤرخ ابن شداد يعلمه بذلك ، ومن ثم أمره بالسير الى أمراء الموصل والجزيرة وسنجار واربل لحثهم على الجهاد ، فأجابوه الى ذلك وتأهبوا للمسير الى صلاح الدين(٢). ولا شك أن صلاح الدين قصد بذلك استغلال السلطة الروحية للخليفة العباسي في ذلك الحين لاستنفار المسلمين وحثهم على الجهاد في سبيل الله ، لتطهير المقدسات وصد الأعداء . بالاضافة الى أن ذلك يدلنا على أن صلاح الدين كان يبعث رسلا من قبله الى شتى البلاد الاسلامية لاستنفار المسلمين للجهاد في سبيل الله . وأن ذلك لم يكن مقصورا على البلاد الخاضعة

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٣٩٦ .

(٢) ابن سعيد ، الروض المعضوب ، ج ٢ ، ورقة ٣٦ أ ؛ النويري ، نهاية الارب ، ج ٢٦ ، ورقة ١٣٠ ؛ ابوشامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .

لسلطته بل تعدى الى أبعد من ذلك ، فأرسل رسله لاستنفار التركمان وترغيبهم في الجهاد بكافة الوسائل وذلك بمنحهم التشريفات وبذل العطايا والمنح لهم (١).

كما أنه لم يكتف بارسال رسله الى المشرق الاسلامى ، بل بعث سفارة من قبله " ومعها سنبة من التحف والالطاف " الى الموحدين في الغرب " لاستنفارهم للجهاد في سبيل الله ، وذلك عند وصول ملوك الغرب وسقوط عكا في أيديهم سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م (٢).

كما يظهر لنا أن صلاح الدين اتخذ من خطباء المساجد وسيلة للدعاء لجيشه بالنصر وحث الناس على الجهاد في سبيل الله . يدلنا على ذلك ما ذكره ابن شداد من أن صلاح الدين كان حريصا على شن معاركه أيام الجمع لا سيما أوقات صلاة الجمعة تبركا بدعاء الخطباء على المنابر (٣). يضاف الى ذلك ما كان للقضاء والفقهاء من دور كبير في ترغيب الناس في الجهاد وارشادهم الى فضائله . ولعل خير دليل على ذلك تلك الخطبة التي ألقاها القاضي محيي الدين الزكي بعد استرداد بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، والتي تضمنت الى جانب كونها شكرا لله على ما حققه المسلمون من نصر باسترداد بيت المقدس حث الناس على الجهاد وبيان ما له من فضائل (٤). ثم انه لما قضيت الصلاة نصب

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ٣٢٣ .

(٢) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٤٠٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٦١ ـ ٣٦٢ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٥ .

(٤) أنظر نص الخطبة في أبي شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٠ ـ ١١٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

سريرا للوعظ وجلس عليه زين الدين الواعظ ، فوعظ الناس موعظة وصف لهم فيها الجهاد وفرائضه وفضائله وحثهم عليه (١) .

كما أهتم صلاح الدين أيضا باشعال الحماس في نفوس المسلمين أثناء اشتداد الازمات وسير المعارك ، حيث كان كثيرا ما يسير بين صفوف الجيش ويحثهم على الجهاد وينادى " يا للاسلام " تارة بواسطة الجاووش ، كما حدث أثناء الوقعة الكبرى على مرج عكا سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م (٢) ، وتارة بنفسه كما حدث على عكا أيضا سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م عندما ساءت أحوال الحامية الاسلامية وأشرف الصليبيون على دخولها (٣) .

وخلاصة القول أن ما ذكرناه من الأدلة التى سقناها على سبيل المثال لا الحصر ، يدلنا دلالة واضحة على أن صلاح الدين قد قام بدور فعّال جدد فيه الدعوة الى الجهاد الاسلامى فى وقت كان العالم الاسلامى يمر فيه بمرحلة خطيرة ، وشجع المسلمين على الدفاع عن ممتلكاتهم ومقدساتهم ، مؤكدا أن الجهاد فرض مقدم على كل عمل ، وأنه واجب لا فسحة فيه بأى حال من الاحوال . ولعل مما يؤيد هذا ذلك الكتاب الذى بعثه الى صاحب أربل فى سنة

---

(١) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٩ ــ ١١٠ .
(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ ، والجاووش : يبدو أنه جند يا كانت مهمته النداء واستنفار الجند للقتال (أنظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ حاشية) .
(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٥٦ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م٤ ، ج ٢ ، ص ١٣ .

٥٨٠هـ/١١٨٤م عندما طلب منه منشورا يخوله الانفراد بحكم اربيل وما حولها من البلاد والقلاع ، فرد عليه قائلا : " ان الله لما مكن لنا فى الأرض ، ووفقنا فى اعزاز الحق ، واظهاره لاداء الفرض ، رأينا أن نقدم فرض الجهاد فى سبيل الله ، فنوضح سبيله ، ونقبل على اعلاء كلمته فى أرضه ...." (١) . يضاف الى ذلك أيضا ما حدث قبل ذلك عندما عزم صلاح الدين على حصار الحصن الذى بناه الصليبيون عند مخاضة بيت الأحزان مستغلين انشغاله بحصار بعلبك سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م . حيث تملل بعض أصحابه ببعض الاعذاره وطالبوه بمسالمة الصليبيين ، فرد عليهم قائلا " ان الله أمر بالجهاد وتكفل بالرزق ، فأمره واجب " (٢) .

والجدير بالذكر أن وجوب الجهاد فى نظر صلاح الدين لم يكن مقصورا على أهل تلك البلاد التى استطاع توحيد كلمتها تحت رايته ، بل أن ذلك يشمل العالم الاسلامى بأكمله ، يدلنا على ذلك احدى رسائله التى بعث بها الى أمير المغرب سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م يدعوه الى الاسهام فى الجهاد ضد الصليبيين ، تلك الرسالة التى ذكر فيها أنه لم يدعه الا " لواجب عليه والى ما هو مستقل به ومطيق له " (٣) . كما يبدو لنا من هذه العبارة أن صلاح الدين قد جعل الجهاد الاسلامى فى حكم الحج وأن الجهاد واجب على المسلم المستطيع شأنه فى ذلك شأن الحج .

---

(١) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .
(٢) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦ .
(٣) ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧١ .

ولم يكن صلاح الدين وحده هو الذى تبنى دعوة الجهاد الاسلامى ، بل كان لأفراد جيشه دور كبير فى احياء هذه الفريضة ، يدلنا على ذلك تلك الاجتماعات التى كانت تعقد بينهم ، يتذاكرون فيها فضائل الجهاد وفضائله ، فقد اجتمعوا مرة وقام المؤرخ بهاء الدين بن شداد – بأمر صلاح الدين – بحثهم على الجهاد ، ويدعوهم الى التأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان يفعله مع أصحابه ، وذلك الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت . فاستحسن الحاضرون ذلك ووافقوا عليه (١) . كما كانوا يتباشرون ويتسابقون على معسكر صلاح الدين بمجرد علمهم بعزمه على الجهاد . ولاشك أنهم بذلك يؤثرون على غيرهم من المسلمين ، فيجعلونهم يتوافدون على الجهاد فى سبيل الله ، زرافات ووحدانا ، وخاصة المتطوعة . كما حدث عند عزم صلاح الدين على كبس خيام الصليبيين فى معركة مرج العيون سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م (٢) يضاف الى ذلك ما كان يقوم به جيش صلاح الدين من أعمال جليلة فى ميادين القتال كان الهدف منها خالصا لوجه الله تعالى . ولعل خير دليل على ذلك ، ما فعله ذلك الشاب الدمشقى الذى استطاع أن يحرق تلك الابراج الثلاثة التى نصبها الصليبيون على عكا ، عندما عرضت عليه الخلع والأموال نظير ذلك ، فلم يأخذ منها شيئا قائلا « انا فعلت هذا لله تعالى » (٣) . فضلا عن أن هذا العمل دليلا واضحا على أن جهود صلاح الدين لتجديد دعوة الجهاد الاسلامى قد وجدت

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢١٦ .

(٢)

(٣) الحنبلى ، شفاء القلوب ، ورقة ٤٤ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤٠٢ .

استجابة كبيرة بين المسلمين .

تطور نظام الاقطاع الحربى فى عصر صلاح الدين :

نشأ نظام الاقطاع الحربى فى الشرق الاسلامى فى العصور الوسطى فى عهد الدولة السلجوقية ، التى كانت تسير على أساس صرف مرتبات نقدية للجيش النظامى حتى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، حيث أدى اتساع رقعة الدولة وصعوبة السيطرة عليها ، وارهاق الادارة المالية بباهظ المرتبات التى تصرف للجيش الى تفكير نظام الملك فى الاستعاضة عن المرتبات النقدية بالاقطاعات من الارض لمختلف الجند (١) .

ومن المعروف أن مصر فى العصر الفاطمى شاهدت أحيانا نظاما اقطاعيا ، ولكنه لم يكن اقطاعا حربيا . ولكن هذه الاقطاعات غير الحربية ، ما لبث أن حدث لها بعض التغيير فى طبيعتها ، وذلك عندما منحت هذه الاقطاعات المصرية لأمراء جيش نور الدين ، اذ ارتبطت هذه الاقطاعات بالخدمة الحربية حسب النظام الاقطاعى الزنكى الذى كان اقطاعا وراثيا فقد كان من عادة نور الدين محمود عندما يموت أحد الامراء المقطعين ، منح اقطاع الاب المتوفى لابنه ، وفى حالة صغر الابن كان السلطان يعين من يدير الاقطاع حتى يكبر . وكان هذا هو السبب الذى جعل الامراء يبرزون قدراتهم الحربية فى الحرب ، وكان نور الدين قد اعتاد أخذ الاقطاع من أى أمير يهمل فى واجباته ، والدليل

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٩٥ ؛ نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ٣٦٢ .

على ذلك أنه في سنة ٥٦٢هـ/١١٦٧م عندما كان غالبية أمراء نور الدين محمود مترددين في محاربة الفاطميين والصليبيين عند البابين في صعيد مصر هدد الامير شرف الدين برغش أنهم اذا رفضوا القتال فسوف يسترد السلطان نور الدين اقطاعاتهم ويطلب منهم اعادة الموارد التي أخذوها منها ، ولهذا حاربوا بشجاعة حتى انتصروا .(١)

أما الاقطاع الذى أحدثه صلاح الدين في مصر ، فلم يكن يتطابق تماما مع نموذج الاقطاع الزنكي ، وهو الاقطاع الذى اعتاده صلاح الدين وامراؤه ، فالاقطاع الايوبي كان يمنح كما هو الحال في الاقطاع الزنكي مقابل الخدمات الحربية. غير أنه لم يكن اقطاعا وراثيا ، ولا يمنح المقطع أى سيادة على أراضي الاقطاع. اذ أن من المعروف أن طبيعة نظام الاقطاع ورغبة السلطان المستمرة في تحسين فعالية النظام الحربي ، لا يسمح بتوريث الاقطاع ، وكان صلاح الدين يعرف أن توريث الاقطاع سوف يؤدى الى نتائج عكسية بالنسبة للخدمات الحربية في عدة حالات ، وذلك عندما يموت المقطع ويترك طفلا صغيرا ، أو عددا من الاطفال ويصبح الحاصل على الاقطاع ليس في سن تؤهله لحمل السلاح ، ولا يستطيع الاشتراك في حملات عسكرية ، كما أن توزيع الاقطاع بين عدد من الاطفال كان يؤدى بالتالي الى نوع من الفوضى في الاقطاع .(٢)

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٢٥ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٥ ؛ .
Hassanein Rabie, the Financial System of Egypt,. pp. 80-30.
2) Rabie, on., pp. 59-60.

والى جانب ذلك فان منح الاقطاع بواسطة السلطان ، ليس معناه منح ملكيات الأراضى الزراعية لهذا المقطع ، وليس معناه أيضا تمتع المقطع بمتحصلات الاقطاع لفترة طويلة ، بل أن منح الاقطاع يعطى المقطع مجرد الحق فى أن يجمع لنفسه ولأجناده مجموعة معينة من الضرائب فى مقابل الواجبات المدنية والعسكرية التى كان ملزما بأدائها (١) .

بدأ صلاح الدين بتوزيع أراضى مصر على هيئة اقطاعات فمنح بعضها لأهل بيته ، والبعض الآخر وزعه بين أمرائه وقادة جيشه ، فاقطع والده نجم الدين الاسكندرية ودمياط والبحيرة ، وأقطع أخاه شمس الدولة تورانشاه قوص وأسوان وعيذاب (٢) . ومما يؤيد ذلك أيضا ما ذكره المقريزى فى الخطط حيث قال « وأما منذ أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب الى يومنا هذا ، فان أراضى مصر كلها ، صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده (٣) » . ولم يقتصر توزيع الاقطاعات الحربية فى عهد صلاح الدين على أرض مصر بل تعدى ذلك الى كل البلاد ذلك ~~التى البلدان~~ التى تمكن صلاح الدين من ضمها الى مشروع الوحدة الاسلامية .
واتبع عدة طرق لتوزيع تلك الاقطاعات على أمرائه وأجناده ، منها ما كان غرضه منه تثبيت أقدامه فى البلاد التى تخضع له . مثلما حدث عندما استولى على حمص وحماه سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م حيث اقطع الأولى لابن عمه ناصر الدين محمد ابن أسد الدين شيركوه ، والثانية لخاله شباب

---

1) Hassanein Rabie, op. Cit. P. 57

(٢) العينى ، عقد الجمان ، ج ١٢ ، ورقة ١٨١ ؛ ابن قاضى شهبة الكواكب الدرية ، ص ١٨٧ ، المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٧ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٩٧ .

الدين الحارمي (١) .

كما استخدم صلاح الدين توزيع الاقطاعات وسيلة لتحقيق الوحدة الاسلامية ، يدلنا على ذلك ، النداء الذى وجهه عند نزوله على البيرة ، حيث كاتب ملوك الاطراف ، قائلا " من جاء مستسلما سلمت بلاده ، على أن يكون من أجناد السلطان ، واتباعه ومساعديه على جهاد الكفرة " (٢) وكذلك ما فعله مع عماد الدين زنكى (٣) ، وعز الدين مسعود صاحب الموصل ، كما سبق أن أشرنا . ومع صاحب عينتاب الذى قام بمراسلة السلطان معلنا دخوله فى طاعته ونزوله على خدمته ، فلما فتحها أقرها عليه اقطاعا (٤) وذلك فى سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م .

كما كان صلاح الدين يمنح رجاله الاقطاعات مكافأة لهم على ما قاموا به من أعمال جليلة ؛ يدلنا على ذلك ما فعله صلاح الدين مع أمير حصن كيفا الذى أقطعه آمد مكافأة له نظير ما قدمه لصلاح الدين من خدمات (٥) . وكذلك ما فعله مع سيف الدين المشطوب ، عندما أطلقه الصليبيون من الأسر ، اذ أحسن صلاح الدين استقباله ، واقطعه نابلس وأعمالها (٦) وذلك فى سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م .

---

(١) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ١٩٨ أ ؛ الذهبى ، دول الاسلام ، ورقة ١٠٧ أ ؛ البندارى ، سنا البرق الشامى ، ج ١ ، ص ١٩٣ ؛ ابن أيبك الدوادارى ، الدر المطلوب ، ص ٥٨ ــ ٥٩ ؛ ابن خلدون العبر ، ج ٥ ، ص ٢٥٧ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٣٩ .

(٣) أنظر ما سبق ص

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٣٩ .

(٥) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٩٤ .

(٦) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٨١ ؛ التاريخ الصالحى ، ورقة ٢٠٧ ب .

كما يلاحظ أن صلاح الدين في توزيعه للاقطاعات قد راعى الجوانب الأمنية في دولته ، فوزع الاقطاعات على القبائل العربية التي كثيرا ما خانت أهلها وحملوا الغلات الى الصليبيين ، فاقطع قبيلتي جذام وثعلبة اقطاعات متفرقة في الديار المصرية ، وذلك للحفاظ على الأمن وحث أولئك العربان على الاشتراك معه في الجهاد (١) .

ومن خصائص الاقطاع الأيوبي أنه يجيز أن ينتقل الاقطاع من مقطع الى آخر ، ولكن ذلك الانتقال لم يكن عن طريق الوراثة . ولم يحدث توريث الاقطاع في عهد صلاح الدين سوى ثلاث مرات ، ففي سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م توفي ناصر الدين محمد بن شيركوه ، فأعطى صلاح الدين اقطاعه في حمص والرحبه لولده شيركوه (٢) . وفي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م . أعطى صلاح الدين اقطاع شمس الدين ابن المقدم أمير الحاج الشامي لابنه عز الدين الذي ولاه الحاج الشامي أيضا (٣) . وفي المرة الثالثة أعطى صلاح الدين ثلثي اقطاع الأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب لابنه عماد الدين أحمد وأميرين معه (٤) .

ومن الامثلة على انتقال الاقطاع من مقطع لآخر من غير وراثة وهي القاعدة العامة ، أنه حدث في سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م أن أعطى صلاح الدين حماه

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٥ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ، ص ٢٩ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥١٨ ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ١٧٢ ؛ السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٧ ، ص ٣٤٥ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٣٧ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٥٢ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٣٧ ؛

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤١٠ ـ ٤١١ ؛ ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٠٧ ب ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٣٧ .

بعد موت صاحبها خاله شهاب الدين الحارمي لابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه[(١)] . وفي سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م توفي زين الدين يوسف بن زين الدين علي كوجك صاحب اربل ، فاقطعها صلاح الدين لاخيه مظفر الدين بوري ، وأضاف اليه شهرزور[(٢)] .

وفي مقابل الموارد المتحصلة من الاقطاع ، كان على المقطع مجموعة من الالتزامات التي كان يجب عليه أن يؤديها ، وهي التزامات حربية مثل تقديم العساكر وقت الحرب ، فضلا عن عدد من الواجبات غير الحربية . ونظرا للجهاد الذي اتصف به العصر فقد كانت الواجبات الحربية للمقطع دون شك أهم هذه الواجبات ، فقد كان المقطع مسئولا عن نفقات عساكره ، وكان عليه أن يعد نفسه لكي يلحق بجيش السلطان على رأس فرقته الحربية في كل حملة حربية ويكون مكلفا بالانفاق عليها . والدليل ذلك ماذكره العماد الكاتب أحد موظفي ديوان الانشاء من أنه عندما خرج مع السلطان صلاح الدين من مصر الى الشام لقصد الجهاد ضد الصليبيين ، ووصل جيش صلاح الدين الى السدير في حملة الرملة سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م أعلن في المعسكر أن كل القوات يجب أن تأخذ ما يكفيها من الأقوات لمدة عشرة أيام أخرى ، وأقيم سوق المعسكر لهذا الغرض ، وشجعت الاسعار المرتفعة العماد الصفهاني على أن ينتهز الفرصة ويعرض للبيع حوائجه ، حيث أنه على حد قوله من رجال القلم وليس من رجال السيف ، فتوافدوا على

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٣٥٠ ؛ اليافعي مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ٣٩٩ .

(٢) ابن الوردي تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

السوق ، واشتروا منه مؤنهم ، وذلك بعد أن أعطاهم أمراؤهم رواتب الاقامات الاقطاعية المعتادة (١) .

ويبدو أن صاحب الاقطاع لم يكن ملزما فى كل الحالات بالذهاب على رأس جيشه الى المعسكر السلطانى ، بل كان يكتفى أحيانا بارسال عدد معين من الجند ، وأحمالا من السلاح والعتاد . يدلنا على ذلك ما حدث فى سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م عندما بنى الصليبيون قلعة بيت الأحزان ، وجعلوها مرصدا لحرب المسلمين ، فأرسل صلاح الدين الى أخيه الملك العادل بمصر ، يطلب منه أن يبعث اليه خمسمائة فارس يستعين بهم على جهاد الصليبيين (٢) . وما حدث سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م حيث بعث عز الدين مسعود ، أمير الموصل الى صلاح الدين وهو على عكا ، أحمالا من النفط الأبيض ومن التراس ، والرماح ومن كل جنس أحكمه وأقومه وأجوده (٣) .

والى جانب ذلك كان على صاحب الاقطاع أن يقوم بمراقبة تحركات الأعداء وصد غاراتهم مثال ذلك ما حدث سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٨م عندما أغار أمير أنطاكية الصليبى على شيرز ، وأغار أمير طرابلس أيضا على جماعة من التركمان بعد تأمينهم ، فقد رتب صلاح الدين نتيجة لذلك الهجوم ابن أخيه تقى الدين عمر ابن شاهنشاه على حماه وأقطعه اياها وجعل فى خدمته شمس الدين بن المقدم ، وسيف الدين احمد بن المشطوب وجعل مهمته صد غارات صاحب

---

(١) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٦٩٧ ، حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٦٥ . Hassanein Rabie, op. P. 32.

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٠٠ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٠٧ ؛ العماد ، الفتح ، ص ٣٥٠

انطاكية • كما رتب ناصر الدين محمد بن شيركوه بحمص فى مقابلة صاحب طرابلس الصليبى (١) •

أما الواجبات غير الحربية التى كان على المقطع أداؤها ، فتشمل تنفيذ المراسيم السلطانية التى كان صلاح الدين يصدرها ، واقرار الأمن داخل الاقطاع ، والنظر فى صالح الرعية داخل الاقطاع (٢) • وبالاضافة الى ذلك فقد كان على المقطع عدد من الواجبات المدنية أهمها تلك التى تختص برى وزراعة الاقطاع وبعض الخدمات الخاصة بالسلطان ، فضلا عن قيام المقطع وموظفيه بتوزيع التقاوى السلطانية بين المزارعين فى الاقطاع • وكانت هذه التقاوى تمنح من جهة السلطان للمقطع مع الاقطاع لضمان سلامة المحصول • وكان من الواجب على المقطع أن يترك التقاوى فى الاقطاع ليضمن محصولا طيبا لمن يخلفه على هذا الاقطاع (٣) •

وكان الاقطاع أحيانا يحتوى على أراضى مستصلحة نتيجة شق قنوات وجسور وكان على المقطعين أن يبذلوا كل جهدهم لكى يحسنوا هذه الاراضى المستصلحة ، فضلا عن قيام المقطع باقامة الجسور البلدية وصيانتها (وهى السدود الزراعية الصغيرة) التى كان لها أهمية كبيرة فى رى الاقطاع • أما عن الجسور السلطانية وهى السدود الزراعية الكبيرة التى شيدت لمنفعة الأقاليم

---

(١) ابن الشحنه ، روضة المناظر ، ورقة ٧٢ أ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧٤ •

(٢) ابن شاهنشاه الايوبى ، مضمار الحقائق ، ص ٢٢٦ — ٢٢٧ [illegible]

Hassanein Rabie, op cit. P. 68.

فلم يكن المقطع مسئولا عنها من الناحية النظرية ولكن من الناحية العملية ، كان المقطعون يساعدون السلطان فى تشييد هذا النوع من الجسور وذلك بامداده بالرجال والبقر والآلات وغيرها . يضاف الى ذلك أيضا أن المقطع كان يشترك فى حفر وتطهير الترع والقنوات (١) .

ورأينا فى الفصل الأول أن صلاح الدين نجح فى توحيد الجبهة الاسلامية التى كان الهدف منها اعداد العدة للجهاد لتصفية الوجود الصليبى من بلاد الشام . وكان عليه أن يكون جيشا كبيرا ومنظما يستطيع به تحقيق هدفه الذى ينشده . ولما كان من الصعب عليه دفع رواتب هذا الجيش نظرا لكثرة عدده ، لذلك لجأ صلاح الدين الى نفس الاسلوب الذى اتبعه أسلافه الزنكيون من قبل ، فوزع الاقطاعات على أمرائه ليكون بديلا عما يتطلب منه من دفع رواتب للجند . يدلنا على ذلك ما كان يفعله صلاح الدين عند عزمه على الجهاد ضد الصليبيين حيث كان يكتفى بمخاطبة المقطع ، الذى يسير بدوره اليه ومعه جيشه مزودا بالعتاد والمؤن (٢) .

ولما كان صلاح الدين هو المصدر الاصلى لمنح الاقطاع ، فقد كان يستطيع الغاءه فى أى وقت وذلك متى تقاعس المقطع عن أداء واجبه ، أو بدر منه ما يخل بالتزاماته الحربية من ذلك ما حدث سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م من أن

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٠١ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٣٤ .

(٢) أنظر النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٦ ، ورقة ١٣٠ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٩ .

صلاح الدين قطع أخباز جماعة من الاكراد لأجل أنهم كانوا السبب فى هزيمة الجيش الاسلامى فى وقعة الرملة عند تل الصافية أمام الجيش الصليبى الذى كان يقوده أرناط (١) .

والواقع أن نظام الاقطاع الحربى كان ذا أهمية كبيرة بالنسبة لجيش صلاح الدين ، حيث كان ذلك النظام دافعا لهم على التوسع فى الفتوحات من ذلك ما حدث سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م عندما عاد صلاح الدين الى دمشق بعد عقد الهدنة مع الصليبيين واستراح قليلا ، ثم اعتزم الغزو ، فأستشار ابنه الأفضل وأخاه العادل فى ذلك . فأشار العادل عليه بغزو خلاط لأنه كان قد وعده أن يقطعه أياها اذا استولى عليها (٢) .

كما أن نظام الاقطاع الحربى بما اشتمل عليه من واجبات ، يعاقب المقطع بالاعفاء من اقطاعه متى قصر فى شيء منها كان كفيلا باخلاص الجند واستماتتهم فى القتال . فضلا عما كان يقوم به بعض المقطعين من أعمال حربية ضد الاعداء ، فيذكر كل من ابن واصل ، وابن كثير فى حوادث سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م ، أن عزالدين فرخشاه الذى كان اقطاعه ببعلبك آنذاك ، أغار فى هذه السنة على صفد ، وعاد سالما بعد أن فتك بعدد كبير من مقاتليهم ، وغنم منهم غنائم كثيرة (٣) .

---

(١) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤ ــ ٦٥ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ؛
Hassanein Rabie, op. Cit. 56.

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ص ٣٣٠ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨٦ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٠٤ .

ويضاف الى ذلك أن نظام الاقطاع الحربى ، يعد من أولى موارد الدولة الأيوبية لأنه مصدر الايراد الدائم اللازم للصرف على الجيش السلطانى ، وجيوش الامراء الاقطاعيين ، فضلا عن النفقات العسكرية الهامة للجيش بنوعيه زمن الحرب (١) . وبهذا يمكن القول بأن صلاح الدين بتطبيقه لنظام القطاع الحربى فى دولته ، قد وفر على نفسه مهمة تزويد جيشه كله بالسلاح والعتاد والمؤن ، خاصة اذا علمنا أنه كان على صاحب الاقطاع أن يأتى بجيشه الى ساحات القتال بكل مستلزمات القتال ، هذا فضلا عما كان يساهم به المقطع من أموال وعتاد ومؤن لخدمة الجيش السلطانى الملازم لصلاح الدين .

د يوان الجيش الصلاحى :

وكان ديوان الجيش الصلاحى مشرفا ومسئولا عن توزيع الاقطاعات ومتابعتها . فقد كان هذا الديوان مركزا لتوزيع الاقطاعات بين الأمراء المقطعين ، ومن أهم مهامه اثبات أسماء أصحاب الاقطاعات على أختلاف طبقاتهم ومن ثم الاشراف على تلك الاقطاعات التى كانت تخضع للزيادة والنقصان نظير ما يقدمه الامير المقطع من خدمات للسلطان . كما قام ديوان الجيش بتقدير المبالغ المسماة الغيبانات وهى الأموال التى تخصم من الجندى نتيجة غيابه عن الخدمة بدون اذن ، حيث يقوم الديوان بعملية الخصم عن هذه المدة . مثال ذلك ما ذكره ابن مماتى فى تفسيره لمعناها ، حيث ذكر أنه اذا كان قد قرر للجندى ستمائة دينار ، واشتغل

---

(١) حسنين ربيع ، النظم المالية فى مصر ، ص ٤٠ .

بقراره ذلك أول السنة ، ثم غاب في اثنائها بغير اذن مدة شهرين اقتطع منها مائة دينار (١) .

كما يبدو أن ديوان الجيش قد قام أيضا بتسجيل العمليات المعروفة بالتفاوت والتي يمكن تعريفها : بانها عبارة عن أموال الفروق الناتجة عن تغيير مرتبة الجندي بانتقاله من فئة أصحاب الجوامك والرواتب الى فئة ذوي الاقطاعات ، أي أنه اذا انتقل جندي الى اقطاع جديد للمرة الأولى ، فانه يأخذ دخل اقطاعه من تاريخ تعيينه عليه لا من أول السنة (٢) .

ومن الوظائف التي قام بها ديوان الجيش أيضا تسجيله للأموال المعروفة بالفواضل والتي فسرها ابن مماتي بضربه مثلا على ذلك ذكر فيه ، انه اذا كانت عبرة (٣) ناحية من النواحي خمسة آلاف دينار ، وفيها جماعة مقطعون بما مبلغه أربعة آلاف وثمانمائة دينار رسمي ما بقي من عبرتها فاضلا وهو مائتا دينار (٤) .

وما قيل عن الفواضل يمكن أن يقال عن المتوفر ، والذي هو عبارة عن جملة من الاموال تتوفر بسبب وفاة الجندي ، اذ جرى العرف بأن يكون راتبه

---

(١) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٥٥ ، حسنين ربيع ، النظم المالية في مصر ، ص ٦٣ .

(٢) حسنين ربيع ، النظم المالية في مصر ، ص ٦٣ .

(٣) العبرة من الناحية النظرية هي متوسط المتحصل السنوي من الاقطاع بأن يجمع ايراد أحسن سنة وأسوأ سنة ثم يقسم على اثنين . ومن الناحية العملية كانت ، العبرة والمتحصل الفعلي من الاقطاع لا يمكن أن يتطابقا لتفصيل ذلك أنظر : Hassanein Rabie, op. Cit., PP. 47-48.

(٤) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٥٥ .
Hassanein Rabie, op. Cit., PP. 47-48.

من أول السنة الى يوم وفاته لورثته ، وما كان مقررا بقية السنة ، صار من المتوفر ، واذا لم يكن له ورثه ، جعل ذلك الديوان جميع ما قرر له متوفرا (١) .

وكان من اختصاصات ديوان الجيش ، اصدار احصاءات دورية بعدد الجيوش ، والمبالغ المقررة لهم ، حيث يذكر المقريزى نقلا عن متجددات القاضى الفاضل ، أنه فى رجب من سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م ، بلغت عدة الأجناد ، ثمانية آلاف وستمائة واربعين ، والأمراء مائة وأحد عشر ، والطواشية ستة آلاف وتسعمائة وستة وسبعين ، والقراغلاميه ألفا وخمسمائة وثلاثة وخمسين ، وان المستقر لهم من المال ثلاثة آلاف وستمائة وسبعون ألف وخمسمائة دينار (٢) .

ومن خصائص ديوان الجيش أيضا ما ذكره ابن خلكان فى ترجمته للملك الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين من أنه جلس يوما لعرض العسكر ، وديوان الجيش بين يديه ، فكان كلما حضر جندى أمامه ، سأله الديوان عن اسمه ليثبتوه فى القوائم (٣) .

وقام الموظفون بديوان الجيش بتسجيل أسماء أصحاب الاقطاعات

---

(١) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٥٥ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩٠ ، حسنين ربيع ، النظم المالية فى مصر ، ص ٦٣ .

(٢) أنظر المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٥ ؛ والطواشى هو من رزقه من سبعمائة الى ألف دينار تقريبا وله غلام يحمل سلاحه والقراغلاميه طبقة أدنى من الطواشيه ، أنظر ، جب ، دراسات فى حضارة الاسلام ، ص ١١٥ .

(٣) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٦ — ٧ .

على اختلاف طبقاتهم ، وعدد الجند التابعين لكل مقطع داخل اقطاعه ، وأمام اسم كل مقطع عبرة اقطاعه " رمزا لا تصريحا " ولعل ذلك كان من باب الحذر والسرية التى توخاها موظفو الديوان ، لذا تجنب الديوان ذكر عبرة الاقطاع أو متحصله ، الا بناء على مرسوم من السلطان[١] .

ويبدو أن ديوان الجيش قد قام بالصرف على العمائر ، والتحصينات التى كان صلاح الدين يهتم بها خاصة فى مصر خوفا من هجوم الصليبيين عليها أثناء وجوده ببلاد الشام ، ولعل خير شاهد على تلك التحصينات التى أنفق عليها الأموال الطائلة ، بناءه للسور الايوبى بالقاهرة ، وتأسيس قلعة الجبل على طرف جبل المقطم[٢] . وكذلك تحصين مدينة دمياط التى يذكر المقريزى أن تحصينها قد كلف " ألف ألف دينار "[٣] .

أما أهم موظفى ديوان الجيش فى عهد صلاح الدين ، فيشمل الناظر وهو الذى يعد المسئول الاول عن كل ما يجرى فى الديوان ، وليس لأحد من موظفيه أن ينفرد عنه بشىء من الأمور التى ينظر فيها الديوان . ولابد من توقيعه الرسمى على جميع ما يجرى من الديوان من أوراق رسمية ، فضلا عن احاطته بجميع ما يرد على الديوان من معاملات ، بالاضافة الى اشرافه على كل ما يرد الى

---

(١) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٨ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٦٢ .

(٢) أنظر ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٧ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٦٧ .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

الديوان وما ينصرف منه . ولديه جميع البيانات بالمتحصلات والمصروفات والبواقي والفوائض والمتأخرات[١]. كما أنه يعد المسئول الأول عما يحدث في ذلك من خلل[٢].[٣]

ويلي الناظر متولي الديوان ومهمته الاشراف على تنفيذ تعليمات الناظر[٤]. وليس له أن يزيد على ذلك شيئا وأن فعل شيئا منه لزمه ما يترتب عليه من تبعة كما يقوم بالتصديق على التصاريح التي تسمى التذاكر ، فضلا عن الاستدعاءات وكذلك الاشراف على الموظفين عند مباشرتهم وذلك بالكتابة على تواقيعهم وتحريراتهم[٥]. أما الموظف الثالث في الديوان فهو المستوفي ووظيفته مطالبة الموظفين بما يجب عليهم رفعه من الحساب في أوقاته ، كما يقوم بتبليغ متولي الديوان بما يجب تحصيله من الأموال في مواعيده المحددة واقامة السجلات والتأكد من كمال ما يرد على الديوان ، واخراج ما يجب تخريجه منه . ومتى ظهر تقصير في شيء من ذلك كانت عليه مسئوليته الا في حالة عدم وجود توقيعه عليه ويأتي بعد ذلك المعين ، وهو الموظف الرابع في الديوان ، والذي ذكر ابن مماتي أنه عبارة عن كاتب بين يدي المستوفي ، مهمته مساعدته في الأعمال المنوطة به ، وليس عليه مسئولية شيء من ذلك الا فيما يحرره من جرايد الديوان من غير أن يشهد عليه أحد ، ليمر عليه الوقت فتصبح الجريدة شاهدة عليه . أما الناسخ ، فهو كاتب وظيفته نسخ التوقيعات ، والمكاتبات الصادرة من الديوان

---

(١) ابن مماتي ، قوانين ، ص ٢٩٨ .
(٢) النويري ، نهاية الارب ، ج ٨ ، ص ٢٩٩ .
(٣) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٢٩٨ ؛ أنظر حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٨٤ .
(٤) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٢٩٨ ؛ النويري ، نهاية الارب ، ج ٨ ، ص ٣٠٠ ، حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٨٤ .
(٥) النويري ، نهاية الارب ، ج ٨ ، ص ٣٠٠ .

والواردة اليه ومتى ظهر منه تحريف فى شىء من ذلك تحمل مسئوليته . والموظف السادس فى الديوان هو المشارف ، والذى ذكر ابن مماتى بأن " أمره جار على أمر الناظر " اذ يبدو لنا من هذا أن وظيفته هى تكرار عمل الناظر لتأكيده ، ومن ثم مراقبة تنفيذه وتدقيقه ، ويزيد على ذلك أن جميع المتحصلات المالية بعد الختم عليها تكون فى عهدته وتحت حيطته . يلى ذلك العامل ومهمته القيام بعمل الحسابات اللازمة ورفعها ، والكتابة بالموافقة على ما يرفعه غيره من المعاملات ، فضلا عن قيامه ببيان البواقى لمن عليه شىء من أموال الدولة ، بسبب الانصراف عن الخدمة ويجرى مجرى العامل ، موظف آخر عرف بالكاتب ، عليه أن يكون على معرفة كافية بما يتأخر فى البلاد من مال وغلال مما يستعان به عند تقدير ايرادات الدولة .(١)

والجهبذ هو الموظف التاسع فى الديوان وهو موظف فاطمى الأصل .(٢) مهمته كتابة المتحصل من الأموال وقبضه ، وكتابة الوصولات ، فضلا عن عمل المخازيم والختمات ، وما يتبعها ، بالاضافة الى أنه مطالب بما يقبض من الأموال ، وباخراج ما يترتب عليها من خراج . أما الموظف العاشر فهو الشاهد ، وعمله تحقيق وضبط ما يشاهده من أوراق رسمية وغيرها ، ثم اثبات الحساب الموافق لتعليقه . ويلى ذلك عدد من موظفى ديوان الجيش منهم

---

(١) ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠١ ـ ٣٠٣ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية فى مصر ، ص ٨٥ .

(٢) حسنين ربيع ، النظم المالية فى مصر ، ص ٨٥ .

النائب وقد ذكر ابن مماتي في تعريفه أنه " كاتب يستخدم نائبا عن الديوان مع المستخدمين " . وعليه يمكن القول أنه من المحتمل أن تكون مهمته القيام بمراقبة الموظفين وأهل الديوان ، اذ يذكر المصدر نفسه بعد ذلك أن هذا الموظف لا يلزمه شيء من رفع الحسابات ولا الكتابة عليها ، ثم الامين الذى يشبه النائب في عمله ، فضلا عن مشابهته الشاهد في بعض الاعمال ، ثم الموظف المسمى بالخازن ، وعمله قبض الغلات وخزنها ثم أخراجها ، وأخيرا الحاشر الذى يبدو لنا أن مهمته كانت حفظ ارث من توفى وليس له ورثة يرثونه ، وعليه تقع المسئولية فيما قد يقع في ذلك من نقص بخيانة أو بغيرها (١) .

تنظيم الجيش الصلاحي :

وكان الهدف الاساسى من قيام الدولة الايوبية — كما سبق أن رأينا — هو تخليص العالم الاسلامى من الخطر الصليبى الذى حل به في ذلك الوقت ، ولما كان ذلك الأمر يتطلب استعدادا كبيرا ، فان صلاح الدين عمد الى تكوين جيش كبير ذى عناصر متعددة يستطيع به أن يحقق هدفه ذلك . وعناصر هذا الجيش : العسكر السلطانى الذى كانت مهمته مقصورة على ملازمة السلطان والجهاد معه ، وجند الامراء الذين يستدعون وقت الحرب ويسرحون بعدها ، فضلا عن المتطوعة والقوات المساعدة .

أما عن الجيش السلطانى ، فمن المعروف أن نور الدين محمود ، عندما

(١) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٠٤ — ٣٠٦ ، حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٨٥ — ٨٦ .

أرسل أسد الدين شيركوه على رأس الحملة الثالثة الى مصر سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م، أعطاه مائتى ألف دينار سوى الثياب والاسلحة ، وسمح له أن يختار من العسكر من يشاء ، فأختار الفى فارس ، وأخذ المال ، وجمع ستة آلاف فارس من التركمان (١). وأعطى نور الدين كل فارس ممن سار مع أسد الدين عشرين دينارا (٢). كما أنضم الى هؤلاء جيش شيركوه الذى كان قد أنشأه فى حمص ، باعتبارها اقطاعا له وهم المعروفون بالأسدية (٣).

ولما توفى أسد الدين شيركوه ، وخلفه ابن أخيه صلاح الدين فى الوزارة ، انسحب من مصر التركمان وعدد من الامراء الترك بمن معهم من الفرسان الى الشام ، وبقى فى خدمة صلاح الدين الاسدية والكرد . ولم تكد تنتهى تلك السنة ، حتى ألف صلاح الدين عسكره المعروفين بالصلاحية بقيادة الامير أبى الهيجاء السمين (٤).

ويبدو أن صلاح الدين قد جعل من هذه الطوائف الثلاث وهى النورية والاسدية اللتين خرجتا مع أسد الدين شيركوه الى مصر سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٩م والصلاحية التى كونها بعد ذلك أساسا لجيش عرف فيما بعد بالجيش السلطانى ، أو الجيش النظامى ، مهمته ملازمة السلطان ، عند تسريحه لجند الامراء بعد

(١) الباز العرينى ، الشرق الاوسط فى العصور الوسطى ، القسم الاول ، الايوبيون ص ١٥٥ ، هاملتون جب ، دراسات فى حضارة الاسلام ، ص ٩٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٣٨ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٩٢ .

(٣) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ق ٢ ، ص ٤٣٨ ؛ .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤٤ ؛ الباز العرينى ، نفس المرجع ، ص ١٥٦ ، ، هاملتون جب ، نفس المرجع ، ص ٩٨ .

انتهاء المعارك أو حلول فصل الشتاء ، وفيهم تقع الحروب والغزوات والأعمال الحربية الهامة ولا يغادرون العاصمة الا مع السلطان وللاغراض الخطيرة (١) •

فكان صلاح الدين يعتمد على هذا الجيش فى صد غارات الصليبيين ، التى قد تحدث أثناء ابتعاد ، أجناد الامراء عنه ، والحد منها ، حتى يتمكن من استدعائهم للمجئ اليه • من ذلك ما حدث سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م حين بلغه أن الصليبيين قد أغاروا على جبلة ، فخرج اليهم مسرعا بعسكره فى الوقت الذى سير فيه رسله لاستدعاء جند الامراء من جميع الاقطار ، فلما سمع الصليبيون بخروجه كفوا عن ذلك • ويبدو لنا أنهم فعلوا ذلك بسبب علمهم بوصول النجدة الى صلاح الدين حيث وصل كل من عماد الدين صاحب سنجار ومظفر الدين زين صاحب اربل على رأس عسكرهما وكذلك عسكر الموصل ، الى حلب ، قاصدين خدمة صلاح الدين والجهاد معه (٢) • أما بالنسبة لاعتماد صلاح الدين على عسكره النظامى ، عند تسريحه لعساكر الامراء عند حلول الشتاء ، فيدلنا ما ذكره العماد وغيره على أن اعتماده على عسكره هذا دون غيره كان اعتمادا كليا اثناء حصار عكا الذى استمر من سنة ٥٨٥هـ/ الى سنة ٥٨٧هـ/ ١١٨٩ ـ ١١٩١م • حيث كان كثيرا ما يعطى جند الامراء اذنا بالانصراف الى أوطانهم اذا ما حل الشتاء على أن يعودوا اليه فى الربيع (٣) •

---

(١) نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ٢٥ ـ ٢٦ •
(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٨ ـ ٣٩ •
(٣) أنظر ، العماد ، الفتح ص ٣٦٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣١١ ـ ٣١٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ابن سعيد ، الروض المهضوب ج ٢ ، ورقة ٣٦ ب ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ١ ، ص ٢٠٩ •

كما كان صلاح الدين يستغل عسكره السلطاني الذي كان يرابط معه طول السنة في الاغارة على الصليبيين ونصب الكمائن لهم ، من ذلك ما حدث سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م حين أمر صلاح الدين رجال الحلقة المنصورة في جيشه بأن يكمنوا في جهة عينها لهم . فخرج الصليبيون للاحتشاش فانقضوا عليهم وكبدوهم خسائر فادحة . (١)

ويلاحظ أن صلاح الدين كان كثيرا ما يدعم عسكره السلطاني بعناصر ممتازة من أجناد الامراء ، فمتى ما رأى أن عسكره بحاجة الى تقوية طلب من أمير الاقطاع أن ينتخب له من جنده نخبة طيبة ويبعثها اليه ، مثال ما ذكره ابو شامة في حوادث سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م من أن صلاح الدين كتب الى أخيه العادل بمصر يطلب منه أن ينتخب له من عسكر مصر الف وخمسمائة يتقوى بهم على الصليبيين . (٢)

أما جند الامراء . فقد اقتضت ضرورة تطبيق نظام الاقطاع الحربي في الدولة الايوبية ، بقاء معظم الجيش مفرقا بين أجزاء الدولة . وكان صلاح الدين ـ كما رأينا ـ يقطع الاقطاعات لامرائه ، مقابل التزامهم بواجبات عدة منها أن على كل أمير اعداد فرقة حربية تتكون من عدد محدد من الجند ،

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ٥٥٩ . وجند الحلقة فئة من الجند يحيط بالسلطان وتؤلف حرسه الخاص وكانت من خيرة قوات صلاح الدين ، أنظر ، السيد الباز العريني ، الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ .

(٢) ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨ .

وتأمين كل لوازمها ، فاذا ما نشبت الحرب ذهب هذا الامير بجنده الى ميدان القتال . واذا انتهت الحرب أو حل الشتاء ، عاد بهم الى اقطاعه ، على أن يعود بهم عند تجدد حالة الحرب أو انقضاء فصل الشتاء وحلول فصل الربيع . والأدلة على ذلك كثيرة فبالاضافة الى ما ذكرناه سابقاً (١) ، ذكر العماد أنه في سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م وبعد انتهاء صلاح الدين من حصن كوكب ، أعطى عساكر الامراء الوافدة دستورا بالرجوع الى بلادهم . كما ذكر العماد وغيره أيضا أنه في سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م وبعد انحسار الشتاء وحلول الربيع عادت جيوش الامراء اليه وهو على عكا أثناء محنتها (٢) . وذكر ابن الأثير وغيره أنه في سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م وبعد انتهاء حالة الحرب مع الصليبيين بعقد صلح الرملة معهم ، أعطى صلاح الدين لجميع الطوائف التي كانت قد توافدت للجهاد معه دستورا بالعودة الى أوطانها ، وعقد هو العزم على الحج (٣) . أما بالنسبة لعودة عساكر الامراء عند تجدد حالة الحرب فيدلنا على ذلك ما ذكره ابن واصل في التاريخ الصالحي ، من أنه في سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م قدمت عساكر الامراء من جميع الاقطار مددا لصلاح الدين عند اشتداد القتال على عكا تلك السنة (٤) .

والى جانب المعسكر السلطاني ، وجند الامراء كانت هناك فرق الغزاة المتطوعة الذين كانوا يعرفون قبل العهد الصلاحي بالاحداث المتطوعة .

---

(١) أنظر ما سبق ، ص
(٢) العماد ، الفتح ، ص ٢٧٤ ، ٣٦٢ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٤ ، ج ٢ ، ص ٢ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٦ ـ ٨٧ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٤٨ ؛ ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ص ١٧٥ .
(٤) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٠٦ ب .

استخدمهم نور الدين محمود في جيشه يدلنا على ذلك ما جاء في ابن القلانسي من أن نور الدين ، أمر بالنداء " في الغزاة والمجاهدين والاحداث المتطوعة من فتيان البلد والغرباء ، بالتأهب والاستعداد لمجاهدة الفرنج " (١)

والظاهر أنه كان لكل مدينة من المدن الاسلامية عامة ، والداخلة في اطار الدولة الايوبية خاصة فرق من الغزاة المتطوعة ، كانوا كثيرا ما يقصدون السلطان للجهاد معه بمحض اختيارهم • ومن الأدلة على ذلك ما ذكره ابن الاثير من أن نور الدين محمود قد استعان عند استيلائه على دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م باحداثها (٢) • الذين تذكر المراجع بأنهم هم الذين أطلق عليهم بعد ذلك الاحداث المتطوعة (٣) • ثم ما ذكره العماد • من أن صلاح الدين عندما عزم على أن يقصد الفرنج في مرج عيون سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م لكبسهم في مخيمهم ، وتسامع المسلمون بذلك تباشروا ، وتسابقوا الى المسير اليه ، وكان من ضمن الوافدين متطوعة دمشق وحوران (٤) •

والجدير بالذكر أن مدينة دمشق التي اتخذها صلاح الدين عاصمة لدولته كانت تشتهر بفرقة الاحداث هذه منذ أيام نور الدين محمود وقبله • يدلنا على ذلك ما ذكره ابن القلانسي من أن نور الدين محمود ، لم يكن في

---

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٤٠ ؛ نظير حسان سعداوي جيش مصر ، ص ١٥ •
(٢) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٠٧ •
(٣) أنظر نظير حسان سعداوي ، جيش مصر ، ص ١٤ ــ ١٥ •
(٤) العماد ، الفتح ، ص ٢٩١ ، ٢٩٢ •

استطاعته الاستيلاء على مدينة دمشق سنة ٥٤٩هـ/١١٥٤م الا بفضل مراسلته لاحداثها واستمالتهم اليه . فما أن بدأ نور الدين بمحاصرة دمشق حتى ثارت طائفة الاحداث ضد قائد الحامية الذى اضطر نتيجة ذلك الى التسليم (١) .

والظاهر أن كلمة أحداث هذه قد اختفت من المصادر التاريخية اختفاء تاما طوال العهد الصلاحي وبعده ، وحلّ محلها كلمة المتطوعين . والكلمتان على كل حال تدلان على أن أفراد تلك الفرقة لم يكونوا قوة نظامية ، بل كان في استطاعتهم العودة الى أوطانهم أينما كانوا وحيثما شاءوا العودة (٢) . ويبدو لنا أن أغلب هؤلاء المتطوعة الذين أسهموا مع صلاح الدين في جهاده ضد الصليبيين ، لم يكونوا مقصورين على طائفة الاحداث الشهيرة في دمشق ، بل ضمت طائفة المتطوعة في عهده أعدادا كبيرة من الفقهاء والعلماء ورجال الدين ، يدلنا على ذلك ما ذكره ابن كثير ، أن صلاح الدين عندما عزم على فتح بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م " قصده العلماء والصالحون تطوعا " (٣) .

ولاشك أن هؤلاء المتطوعة كانوا يمتازون بحماس زائد وشجاعة وتفان في ميدان القتال كما حدث عندما كان صلاح الدين على عكا سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م اذ ركب في بعض اصحابه لقصد النظر الى معسكر الصليبيين من مكان مرتفع ، واستكشاف خططه ، فظن الغزاة من العجم والعرب المتطوعة ، أنه على قصد المصاف والحرب

---

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣١٥ ؛ نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ١٠٤ .
(٢) نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ١٥ .
(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٢ .

فأوغلوا فى أرض العدو وهم يظنون أن السلطان قد سار أمامهم للجهاد ، فأرسل صلاح الدين عددا من أمرائه يردونهم ويحمونهم حتى يخرجوا ، الا أنهم لم يصغوا اليهم ، واستمروا فى المسير نحو الصليبيين الذين ترددوا بادئ الأمر فى لقائهم لاعتقادهم بأن خلفهم كمينا ، الا أنهم عادوا فحملوا عليهم بعد أن تأكد لهم انقطاعهم عن المسلمين ، وقتلوا منهم جمعا كثيرا . وشق ذلك على صلاح الدين ، وكان ذلك بسبب تفريطهم فى أنفسهم ، وعرفت هذه الوقعة بوقعة الغزاة المتطوعة (١) . ورغم أن البعض قد نسب ذلك الى حماسهم الزائد وسوء التدبير منهم (٢) ، الا أنه يبدو لنا أن عملهم ذلك كان بدافع ايمانهم الشديد بفكرة الجهاد وحبهم للاستشهاد فى سبيل الله خاصة أن أغلبهم كان من العلماء ورجال الدين .

والى جانب ذلك فانه يلاحظ أنه كان لوجود العلماء بين صفوف المتطوعة ، أثره فى ابداع هذه الطائفة بابتكار طرق جديدة فى ميادين القتال ، كان لها دور كبير فى انتصار الجيش الاسلامى ، من ذلك ما ذكره ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م فى معرض حديثه عن معركة حطين من أن جيش المسلمين عندما أحاط بالصليبيين ، قام بعض المتطوعة باشعال النار فى تلك المنطقة مستغلين كثرة الحشائش اليابسة وسير الريح باتجاه الصليبيين ، فحملت حر النار والدخان اليهم (٣) .

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ ، أنظر أيضا ، نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ١٧ .
(٢) نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ١٧ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٥ ، أنظر ما يلى ص

وكثيرا ما تذكر المصادر التى بين أيدينا ، أن صلاح الدين عند عزمه على الجهاد ، كان يبعث رسله الى الاقطار والامصار " للاستنفار والاستنصار " (١) والظاهر أن يقصد بالعبارة الأولى استنفار جند الامراء الذين كانوا يعدون بمثابة الجند الاحتياطى ، أما العبارة الثانية فيبدو أن المقصود بها حث الناس على الجهاد على سبيل التطوع لا الالتزام ، ومثله ما ذكره العماد فى الفتح من رسالة كان قد بعثها صلاح الدين الى أخيه سيف الاسلام باليمن يستحثه فيها على الجهاد قال فيها " وقد كنا استدعينا العساكر والجموع للجهاد من جميع الجهات " (٢) اذ يحتمل أن يكون المقصود بالجموع هنا الغزاة المتطوعة .

وهناك عنصر رابع من المحاربين أسهم مع صلاح الدين فى جهاده لتصفية الوجود الصليبى هم القوات المساعدة من العربان وغيرهم الذين كان صلاح الدين يستدعيهم ، لمشاركته فى الغزو من ذلك ما ذكره العماد من أن صلاح الدين كتب فى سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م الى الاقطار والامصار يستدعى المسلمين للجهاد " وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد ، واستحضر الغزو من الحضر والبدو . (٣)

واشترك كثير من أبناء القبائل العربية فى جيش صلاح الدين وأخلصوا له مثلما حدث من بنى منقذ أصحاب شيذر ، والكنانية الذين ينتسبون الى قبيلة

---

(١) أنظر على سبيل المثال : العماد ، الفتح ، ص ٣٣١ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .
(٢) العماد ، الفتح ، ص ١٩١ .
(٣) المصدر السابق ، ص ٥٨ .

كنانة المهاجرة من عسقلان بعد سقوطها فى أيدى الصليبيين ، والنازلة فى دمياط وضواحيها على عهد الوزير الفاطمى طلائع بن رزيك ، وهى التى أسهمت مع صلاح الدين فى غزوة لغزه وعسقلان سنة ٥٦١هـ/١١٧٥م ، والتى قامت بارشاده الى المسالك والطرق ، وكذلك القبائل الشامية التى قامت بغارات خاطفة على القرى والمزارع الصليبية ، مثل غاراتهم على صيدا وبيروت سنة ٥٧٤هـ/١١٧٩م . وعلى الملك ريتشارد أثناء زحفه لفلسطين سنة ٥٨٨ هـ/ ١١٩٢م .(١)

الأسلحة والمؤن والعتاد :

لما كانت الدولة الايوبية قد قامت فى ظروف عصيبة متمثلة فى ذلك الصراع الذى كان دائرا بين القوى الاسلامية والقوى الصليبية ، كان على صلاح الدين أن يهتم بالحرب وشئونها والسلاح المستخدم فيها ولعل خير ما يوضح لنا مدى عنايته بالسلاح وشوئنه فى تلك الفترة أنه طلب من أحد رجاله وهو مرضى بن على الطرسوسى أن يؤلف له كتابا يشتمل على أنواع السلاح وطرق صناعته .(٢)

واستخدم صلاح الدين فى حروبه من الاسلحة ما هو كفيل بتحقيق غرضه الذى كان ينشده . ويمكننا أن نستنتج من نص أورده العماد الاصفهانى ،

(١) أنظر نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ١٣ .
(٢) قام الطرسوسى بتأليف كتابه المسمى (تبصرة أرباب الالباب فى كيفية النجاة فى الحروب من الاسواء ونشر أعلام الاعلام ، والعدد والالات المعنية على لقاء الاعداء) وأهداه الى صلاح الدين — وقد قام كلود كاهن بنشره فى مجلة معهد الدراسات الشرقية بدمشق سنة ١٩٤٧ — ١٩٤٨م .

عند حديثه عن الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين ، معظم تلك الأسلحة التي استخدمها صلاح الدين في جهاد ضد الصليبيين ، حيث يقول " أنه لما عاد الى مصر ، وقد شاهد الفتح والنصر ، ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها ، ولم ير بعد حصولها به نقلها ، وكانت أحمالا بأموال ، وأثقالا كجبال ، وذخائر وافية وعددا واقية ، ودروعا سوابغ ، ونصولا دوافع ، وخوذا وترائك وقطاعات ، وعدد النقوب ، وجميع أدوات الحروب (١) ". هذا بالاضافة الى ما هو مشهور منها كالمنجنيقات التي كانت تعتبر أعظم آلات الحصار في العصور الوسطى وقد وصف القلقشندي المنجنيق " بأنه آلة من خشب له دفتان قائمتان ، بينهما سهم طويل ، رأسه ثقيل ، وذنبه خفيف ، تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله الأعلى أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفه فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا الا أهلكه (٢) ".

وقد ذكر الطرسوسي في كتابه (تبصرة أرباب الالباب) أن المنجنيقات على عهد صلاح الدين كانت على ثلاثة أنواع منها العربي الذي يمتاز بدقة صناعته وجودة استخدامه ومنها التركي الذي يعد أقل أنواع المنجنيقات كلفة في صناعته وأخصرها مؤونة ، أما النوع الثالث فهو الفرنجي ، وقد وصفها وصفا دقيقا (٣) .

كما أورد الطرسوسي أيضا وصفا تفصيليا لكيفية استخدام المنجنيقات في القتال حيث بيّن أن لذلك أمور يجب أن تراعى ، وأن عدم مراعاتها قد

---

(١) أنظر العماد ، الفتح ، ص ٤٤١ .
(٢) القلقشندي ، ج ، ص ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٦ حاشية .
(٣) أنظر الطرسوسي ، تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٧ .

يسبب أخطارا جسيمة لمن يتولى الرمى به . كما نبه على مراعاة الدقة فى وضع الحجر على الكفة . لأن ذلك له أثره فى تحديد المسافة التى يصل اليها الحجر كما بين أيضا أن الأصل فى بعد المسافة وقربها لين السهم ويبسه ، فمتى كان السهم فى لين ليس بالمفرط ، كان لذلك أثره البالغ فى الوصول الى مسافة أبعد ، وأشد نكاية للهدف المقصود . ، ومتى كان السهم يابسا كان دون ذلك . فضلا عما ذكره من أنه يتعين على الرامى بالمنجنيق أن يباعد بين رجليه ويضبط الكفة بيديه ويقعد مع كل جره بنفسه مع الكفة .(١)

والواقع أن هذه المنجنيقات تعد أعظم الاسلحة التى أستخدمها صلاح الدين ، وخاصة فى المعارك التى تدور رحاها فى أماكن حصينة ، اذ من الضرورى ، استخدام هذا النوع من السلاح لاحداث الثغرات فى الحصون والأسوار كى يستطيع منها الجيش النفاذ الى الداخل ، هذا فضلا عن استخدامها فى انهاك العدو داخل أسواره وذلك بقذف الحجارة التى يبدو أنها كانت تقذف بواسطة المنجنيقات فى الجو حتى تعتلى السور ومن ثم تسقط على العدو فى الداخل .

أما بالنسبة لحجم الحجارة التى كانت تقذف بواسطة المنجنيقات ، فقد كانت كما ذكرت بعض المصادر مثل قلوب الرجال ووجوههم (٢) . كما يبدو لنا أن هذه الحجارة التى ترمى بواسطة المنجنيقات كانت تختار من نوع خاص ، اذ

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٦ .
(٢) العماد ، الفتح ، ص ٢٥٥ .

يذكر القاضي الفاضل عند وصفه للمنجنيقات هذه الحجارة بأنها " كالـــرؤوس المحلقة " (١) لذلك لا يستبعد أن تكون هذه الحجارة تختار من النوع الأملس

ولم يقتصر على المنجنيقات على الرمى بالحجارة ، بل استخدمت فـــى الرمى بسلاح آخر كان للمسلمين دور كبير فى تطوير صناعته واستخداماته فى ذلك الوقت هو سلاح النفط (٢) . وقد ذكر الطرسوسى بعض المعلومات عن كيفية صنع هذه النفوط ، وأن المسلمين برعوا فى صنع أنواع عدة منها وأن هناك عناصـــر عدة تدخل فى تركيبها منها الزيوت ، والنورة المطفأة ، وغير المطفأة ، والنفط والصمغ ، والكبريت ، وخل الخمر الحاذق ، والقطران ، وشحوم الحيوانـات ، ونخالة الحنطة ، وبعض النباتات وغيرها من العناصر التى كانت تخضـــع لعمليات كيميائية دلت على براعة المسلمين فى ذلك الوقت فى هذا العلـــم لانتاج هذا السلاح (٣) .

والجدير بالذكر أن سلاح النفط هذا لم يقتصر الرمى به على المنجنيقات فقد أشار الطرسوسى عند حديثه عن كيفية صناعته الى طرق عدة لاستخدامه فـى القتال ، فمنه ما كان يرمى به من على ظهور الخيل ، أو بواسطة النشـــاب (٤) ،

---

(١) ابن فضل الله العمرى ، مسالك الابصار ، ج ٧ ، ورقة ٢٩٨ .
(٢) أنظر على سبيل المثال ما ذكره ابن شداد ، فى النوادر السلطانية ، ص ١٢٠ من أن صلاح الدين جمع الصناع من النفاطين والزراقين وحثهم على الاجتهاد فى ابتكار سلاح لاحراق الابراج الثلاثة التى نصبها الصليبيون على عكا .
(٣) أنظر الطرسوسى ، تبصرة ارباب الالباب ، ص ٢٠ ــ ٢٣ .
(٤) النشاب : النبل وهو سهم مصنوع من القاب ، (أنظر نبيل عبد العزيـز خزانة السلاح ، ص ٥٥ .

ومنه ما يوضع فى قشر البيض بعد اخراج ما فيه ثم يرمى به على الهدف ، ومنه ما يقذف بواسطة قوس عمل خصيصا لذلك وللنفط المعمول فى القوارير . فضلا عن تمكن المسلمين من صناعة نوع خاص منه يستطيع المشى على الماء دون أن ينطفىء مهمته احراق مراكب العدو . (١)

والظاهر أنه كانت هناك جماعة متخصصة فى جيش صلاح الدين مهمتها عمل هذا السلاح والرمى به . يدلنا على ذلك ما ذكره ابن شداد من أن الخليفة العباسى بعث فى سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م الى صلاح الدين حملا من النفط ، ومعه جماعة من الذين لهم خبرة بهذا السلاح عرفوا بالنفاطين (٢) والى جانب ذلك نجد الزراقين ، والذين فسرهم البعض بأنهم جماعة مهمتهم رمى النفط من الزراقات التى هى عبارة عن أنابيب خاصة يرسل فيها النفط ، فتنبعث منها نار النفط بارعاد ودخان ، فتحرق السفن فى الماء (٣) . ويبدو أن كلمة نفاطين كانت تطلق على الذين يعملون بالنفط فى الحروب البرية ، أما الزراقين فربما قصد بها أولئك الذين اشتغلوا بهذا السلاح فى البحر ، ولعل مما يؤيد ذلك اقتران كلمة الزراقين بالنفاطين عند الحديث عن سلاح النفط (٤) .

ومن الاسلحة التى استخدمها صلاح الدين فى جهاده أيضا ما عرف

---

(١) أنظر الطرسوسى ، تبصرة أرباب الالباب ، ص ٢١ — ٢٢ .
(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١١٨ .
(٣) أنظر ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م٤ ، ص ٢١١ حاشية .
(٤) أنظر ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١١٨ ، ١٢٠ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

باسم الملثات أو ما يمكن أن نطلق عليه الحسك وهى التى وصفها الطرسوسى بقوله " هذه المثلثات من ألطف الآلات ، وأبدع المصنوعات ، وأسرعها تأثيرا فى النكاية وهى مكيدة ترمى فى الأرض التى تعلم أن العدو يسلكها اليه ، ويسرع فيها للهجوم عليهم ، فاذا ساحت الخيل عليها ، ووطئت شوكتها القائمة فيها عقرتها أشد عقر ، وأثرت فيها أعظم تأثير فتسقط الخيول بمن عليها ، وتهلك بما أصابها من تلك النكاية " وسلاح الحسك هذا على نوعين منه المثلث الذى هو عبارة عن شوكة قائمة وشوكتين على الأرض ومنه المسدس ويتكون من ثلاث شوكات قائمة ، وثلاث ثابتة على الأرض (١).

أما الستائر فهى أهم معدات الحرب عند المسلمين فى العصور الوسطى ، كانوا يتخذونها من الجلود واللبود المبلولة بالخل والشب والنطرون لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط ، كما كانت تستعمل الى جانب ذلك لحماية الابراج والدبابات المصنوعة من الخشب ، والسفن من قذائف النفط (٢). عن استخدام نوع منها فى وقاية الجنود الذين يستعان بهم فى جر المنجنيقات وما شابهها (٣).

يلى ذلك الزنبوركات والجروخ ، التى قد تعنى نوعا من القسى التى ترمى عنها السهام ، والدليل على ذلك ما ذكره ابن الأثير عند حديثه عن فتح

---

(١) الطرسوسى ، تبصرة أرباب الالباب ، ص ١٩ ــ ٢٠ .
(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ حاشية .
(٣) أنظر الطرسوسى ، تبصرة أرباب الالباب ، ص ١٨ ــ ١٩ .

حصن صهيون سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م ان يقول " ودام رشق السهام من قسى النيد ، والجرخ والزنبورك والزيار " (١) اذن فقد ورد أن ذكر الزنبورك والجرخ هنا على أنهما نوعان من أنواع القسى . وجاء ما فى العماد أيضا " وتوقير الجروخ والزنبوركات " (٢) فالتوتير لا يكون الا للقوس كما جاء فى الروضتين أيضا " ومراكب وحراريق وفيها رماة الجروخ والزنبوركات " (٣) لهذا كان المقصود بهما القسى لا السهام بدليل ما جاء فى ابن شداد ان يقول "وأطلقوا (أى المسلمين) عليهم سهام الجروخ ، وأحجار المنجنيق " (٤) فالحجر يطلق من المنجنيق ، وكذلك السهم يطلق من القوس .

أما الدبابات ، فقد ورد فى شرحها أنها " آلة سائرة تتخذ من الخشب الثمين وتغلف باللبود والجلود المنقعة فى الخل لدفع النار ، وتركب على عجل مستدير ، وتحرك فتنجر ، وربما جعلت برجا من الخشب ، ودبر فيها هذا التدبير ، وقد يدفعها الرجال فتندفع على البكر " (٥) . أما الطرسوسى فقد اكتفى بمجرد الاشارة اليها عند حديثه عن المنجنيقات بقوله " ومما يضاف الى ذلك (أى المنجنيقات) وأن كانت هى ليست منها ، وانما هى آلة تقرب

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ١١ .
(٢) العماد ، الفتح ، ص ٣٤٥ .
(٣) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٩ ، راجع ما ذكر عن الزنبورك فى ابن شداد ، ص ١٤٨ — ١٤٩ حاشية للدكتور الشيال وابن الفرات م٤ ، ج ١ ، ص ٢٣٩ حاشية ٤ ، الدواداري ، المطلوب ، (حاشية) .
(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١١٨ .
(٥) الحسن بن عبد الله ، أثار الاول ، ص ١٩٢ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م٤ ، ج ٢ ، ص ٧ ، حاشية .

من هيولاها (١)، ويستعان بها فى نقب الاسوار وما شابهها وهى الدبابات (٢) ويبدو أن استخدامها يكون بادخال الرجال داخلها، ومن ثم تدفع حتى تقترب من الاسوار والحصون ليقوم من بداخلها بمهمة النقب فى حين تقيهم ما يرمون به من فوقهم (٣) .

والى جانب ذلك فقد استخدم صلاح الدين أنواعا أخرى من الاسلحة الخفيفة التى يكون القتال بها وجها لوجه مثل . السيوف التى ذكر الطرسوسى أن معادنها وأنواعها تختلف باختلاف البلدان التى توجد فيها . وأن منها ما كان يصنع ببلاد المغرب والاندلس، وبلاد الروم والهند والصين وديار مصر، كما ذكر أن أردأ أنواع السيوف ما كان بالمغرب والأندلس . أما أجودها فهو ما كان يصنع بمصر (٤). والسيف سلاح ذو حد يضرب به باليد وهو أنبل الأسلحة البيضاء التى قدرحقها المسلمون ومن قبلهم العرب فى جاهليتهم (٥). ومنها أيضا الرماح التى تعد من أهم الاسلحة التى تستخدم من فوق ظهور الجياد (٦). وقد ذكر الطرسوسى ان هذه الرماح على أنواع منها الأصم القصير وهو أحسنها طعنا، ومنها نوع آخر يشق نصفين ويجوف جميعه تجويفا تمشى فيه النشاب

---

(١) يبدو أن الطرسوسى قصد بهذا التعبير أن الدبابات كانت تقارب فى تصميمها وشكلها المنجنيقات .

(٢) الطرسوسى، تبصرة أرباب الالباب، ص ١٨ .

(٣) عبد الرحمن زكى، السلاح فى الاسلام، ص ٢٤ ؛ ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٤٢ حاشية الشيال ؛ .

(٤) أنظر الطرسوسى، تبصرة، أرباب الالباب، ص ٤ .

(٥) عبد الرحمن زكى، السلاح فى الاسلام، ص ٣٣ .

(٦) المرجع السابق، ص ٢٨ .

وهذا النوع يستخدم كالقوس لرمى السهام[١] .

أما الدروع فهى عبارة عن أثواب منسوجة من زرد الحديد تلبس فـــــى الحرب وشكلها ضيق تلبس على الجسم لها أكمام قصيرة تصل الى منتصف الذراع ، وجرت العادة بأن يلبس المحارب ثوبا من النسيج المبطن يكون أشبه بوسادة تحت حلقات المعدن أو صفائحه الرقيقة . ويتكون الدرع الكامل من الجوشن وهو الجزء الذى يقى الصدر ، والبيضة أو الخوذة والمغفر وهى الأجزاء التى تقى الرأس ثم أجزاء أخرى تقى الساقين والساعدين والكفين[٢] .

ويشبه الدروع التراس وهى من أهم معدات الحرب فى عصر صلاح الدين ، وكانت تصنع من الحديد ومن الخشب الجيد ، ومن الجلود المكسوة بالدهـــون والاصباغ يتقى بها المحارب الضرب والرمى وقد أشار الطرسوسى عند حديثـــه عنها الى أنها على أنواع عدة منها المدور وهى التراس ومنها الطوارق وهـــى التى وصفها بقوله بأنها " آلة مستطالة ، الى أن تستر الفارس والراجل وتبدأ مدورة ثم تجتمع أولا أولا الى أن ينتهى آخرها الى نقطة محدودة كرؤوس المعــاول[٣] أما النوع الثالث من هذه التراس فهى الجنديات والتى وضعها الطرسوسى أيضـــا بقوله " وهى كالطوارق الا أنها غير محدودة الأواخر ، بل مقطوعة لتقف علـــى الأرض وهى التى تزحف بها الرجالة للقتال ، وتكون للصف كالحصن المانع مـــن

---

(١) أنظر تفصيل ذلك فى الطرسوسى ، تبصرة أرباب الالباب ، ص ١٠ ــ ١١ .
(٢) عبد الرحمن زكى ، السلاح فى الاسلام ، ص ٢٦ ــ ٢٧ .
(٣) الطرسوسى ، تبصرة ارباب الالباب ، ص ١٢ .

النبـــال (١) •

والى جانب ما ذكرناه من الاسلحة التى استخدمها صلاح الدين فـــى جهاده لتصفية الوجود الصليبى استخدم أسلحة أخرى خاصة بنقب الأســـوار وطم الخنادق ، وهى التى عرفت بعدد النقوب ومنها القطاعة التى هى عبـارة عن مطرقة تستعمل لقطع الصخر أو هدم البناء (٢) هذا فضلا عن ما هو مشهور مـــن هذه العدد التى تستعمل أيضا لنقب الاسوار وطم الخنادق كالمساحى ومـــا شابهها (٣) •

ومـن الاسلحة التى استخدمها جيش صلاح الدين الدبوس وهـــو عبارة عن آلة حربية من حديد يعرفها البعض بأنها هراوة فى طرفها كتلة صغـــيرة• وكثيرا ما يحملها الفرسان فى السروج تحت أرجلهم لكى تستخدم فى تهشـــيم الخوذ المعدنية (٤) • ومنها أيضا اللتوت جمع لت وهى كلمة فارسية الأصل ، يقصد بها القدوم أو الفأس الكبير (٥) ، النمجاة وهى ذلك السلاح الذى ضرب به صـــلاح الدين رقبة أرناط بعد معركة حطين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م وهى عبارة عـــن خنجر مقوس يشبه السيف القصير (٦) •

---

(١) الطرسوسى ، تبصرة أرباب الالباب ، ص ١٠٢ •
(٢) عبد الرحمن زكى ، السلاح فى الاسلام ، ص ٤٥ •
(٣) ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م ٤ ، ج ٢ ، ص ٨ •
(٤) عبد الرحمن زكى ، السلاح فى الاسلام ، ص ٢٦ •
(٥) أنظر العماد ، الفتح ، ص ٤١٠ حاشية •
(٦) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٩ حاشـية •

أما عن المؤن والعتاد فمن المعروف أن صلاح الدين كان يعمد قبل خروج جيشه الى ميادين القتال ، الى توزيع الاسلحة والملابس على جنده من الدارخاناه ، كما كان يعطى كل واحد منهم مبلغا معينا من المال لشراء ما يلزمه من ضروريات المعركة ويحمل كل رجل معه ما تقرر له من كميات المؤن والعلوفه ، وقد يشتريها على حسابه الخاص ، اذ يجرى شراء كميات أضافية من التجار الذين يتخذون لهم مكانا فى قاعدة العمليات الحربية ليبيعوا للجند ما يحتاجون اليه (١) .

وكان صلاح الدين يحسب للمعارك حسابا كبيرا فى هذا الشأن ، فكثيرا ما كان يصدر أوامره للعسكر بعد سيرهم بالاستزادة من المؤن والعتاد تحسبا لطول المعركة ، كما حدث حين خرج صلاح الدين سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م لغزو غزة وعسقلان حين أصدر أوامره الى عسكره بأن يحصلوا من المؤن والزاد ما يكفى لعشرة أيام أخرى (٢) .

أما فيما يتعلق بادخال المدد الى المدن التى تتعرض لحصار طويل من جانب العدو ، فان صلاح الدين كان اذا توقع من عدوه مثل ذلك ، أنفذ الى البلد المتوقع حصارة من الرجال والميرة والآلات والسلاح ، ما كان كفيلا بالدفاع عنها ، فضلا عن حرصه على رفع الروح المعنوية للمقيمين بالداخل . من ذلك ما ذكره ابو شامه فى حوادث سنة ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م من أن صلاح الدين لما علم باعتزام الصليبيين حصار دمياط فى تلك السنة ، أنفذ الى البلد

---

(١) ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٦٩٧ ؛ الباز العرينى ، الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، ص ١٦٧ ، نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ٧٩ .

(٢) أنظر ما سبق ، ص .

من الرجال الابطال والفرسان ، والآلات ما أمن معه عليه . هذا بالاضافة الى امداده للمقيمين فيه بامدادهم بالعساكر والآلات ، وقيامه هو من الخارج بازعاج العدو.(١)

أما في حالة تعرض البلد لحصار مفاجئ من جانب العدو فقد عمد صلاح الدين الى أساليب عدة لادخال المؤن والعتاد الى ذلك البلد — الذى قد أحكم حصاره منها استخدام القوة في احداث ثغرة في صفوف العدو يتمكن من خلالها من ادخال المدد الى البلد المحاصر ، مثلما حدث سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م عندما بلغه حصار الصليبيين لعكا ، حيث جمع أصحابه وشاورهم في الأمر ، واتفقوا على مضايقة العدو بالقوة . فاستدعى صلاح الدين عساكره من كافة الجهات ، واستعد لذلك استعدادا كبيرا ، وضرب ضربته فتمكن من فتح طريق سلكه المسلمون الى البلد ، وادخلوا لعكا ما أرادوا من الرجال والأموال والذخائر والسلاح والميرة وغير ذلك.(٢) ومن هذه الأساليب أيضا قيام صلاح الدين بمهاجمة العدو لاشغاله ومناوشته لجذبه الى احدى الجهات ومن ثم انتهاز الفرصة من الجهة الأخرى لادخال المدد الى البلد المحاصر ، من ذلك ما حدث سنة سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م أثناء حصار الصليبيين لعكا ، حيث قام صلاح الدين بهجوم قوى على الجيش الصليبي الذى كان يحاصر عكا ، لكي يشغله عن الاسطول الاسلامي القادم من مصر ، ومعه مراكب

---

(١) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥٨ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤ — ٣٥ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٤٣ — ٤٤ .

فيها المؤن والذخائر ، حتى استطاع ذلك الاسطول أداء مهمته رغم تعرضه لاشتباك مع الاسطول الصليبي في عرض البحر (١). هذا فضلا عما كان يقوم به الاسطول الاسلامي من الحيل لادخال المدد الى البلدان الساحلية التي قد تتعرض لحصار من جانب الاعداء ، من ذلك ما حدث أيضا في عكا سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م حيث أعد صلاح الدين ببيروت سفينة كبيرة أودعها أربعمائة غرارة من القمح ووضع فيها كذلك الجبن والمبرة والبصل والغنم واحمالا من النشاب وغير ذلك . وركب في تلك السفينة جماعة من المسلمين تزيوا بزي الفرنج ، فحلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير على سطح السفينة ، بحيث ترى من بعد ، وعلقوا الصلبان ، وشدوا الزنانير ، وأبحروا بها في البحر وسط مراكب الصليبية ولما حاذوا عكا صوبوها نحوها ، وتمكنوا من أداء مهمتهم بادخال ما حملته تلك السفينة من مؤن وعتاد الى داخل البلد ، ففرح المسلمون بذلك فرحا عظيما (٢). هذا فضلا عما كان يقوم به العوامون المسلمون من دور كبير في ذلك ، ولعلنا نجد في قصة العوام عيسى خير دليل على ذلك . حيث كان ذلك الرجل يدخل الى عكا بالكتب والنفقات على وسطه ليلا ، على غرة من العدو . وكان يغوص ويخرج من جانب من مراكب العدو . وحدث في احدى الليالي أن أبحر وقد شد على وسطه ثلاثة أكياس ، فيها ألف دينار ، وكتب للعسكر ، وعام بها في البحر . وكان من عادته اذا انجح في أداء مهمته أن يطير طيرا لكي يعرف

---

(١) ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٤ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٣٦ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٣٥ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦١ .

المسلمين وصوله • وفى هذه المره أبطأ ذلك الطير ، فاستشعر المسلمون هلاكه ، وبعد أيام بينما الناس على طرف البحر فى البلد ، قذف البحر ميتا غريقـــا ، فتفقد وه [illegible] الكتب (١) (١) •

كما كان صلاح الدين يستغل هدوء الأحوال ، عندما يهيج البحر ويحل الشتاء فى ادخال المؤن والعتاد الى ميادين القتال ، من ذلك ما ذكره ابـن شداد فى حوادث سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م من أن صلاح الدين عندما هاج البحـر فى هذه السنة ، ورفع العدو ما كان فى البحرين الشوانى (٢) الى البر ، استغـل بادخال البدل ـ أى اخراج من بالداخل من العسكر واحلال آخريـــــن محلهم ـ/ وادخال الميرة والذخائر والنفقات والعدد اليها (٣) •

أســـاليب القتـــال :

أما عن أساليب القتال فى جيش صلاح الدين فان تناولها يدفعنا الــى الحديث عن تعبئة الجند على عهد صلاح الدين والحقيقة أنها لم تكن تختلــف عما سبقها أو لحقها من العهود الاسلامية ، اذ كان يتألف من عسكر المقدمــة ثم عسكر القلب ، حيث يكون السلطان بجنوده ، ثم عسكرآخر من ناحية اليمين عن موقف السلطان وعلى سمته يسمى الميمنة ، ثم عسكر آخر من ناحية الشـــمال

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٣٥ ـ ١٣٦ •

(٢) الشوانى مفرد شاشينى وهى السفينة الحربية الكبيرة ، أنظر ابن مماتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤٨ حاشـــية •

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣ ؛ العماد ، الفتح ، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧ •

يدي الميسرة ، ثم فرقة أخرى من وراء العسكر كله أطلق عليها الساقة ، ويقف السلطان وأصحابه فى الوسط بين هذه الفرق الاربع . وهذه هى الاصول التى أجمع عليها فى ترتيب جيوش المسلمين ، وتلك الاصول فى نظرهم كالفـــروض الواجبة ، أما الفروع كالطلائع ، والكمناء ، فهى كالنوافل غير الواجبة لاختلافهم فيها (١).

والتعبئة على هذه الصورة ، معناها أن يقف كل عسكر فى موضعـــه ، ويعرف كل أمير منزلته استعدادا للزحف على العدو ، بحيث يقف الميمنة فى مقابلة ميسرة العدو ، والميسرة فى مقابلة ميمنته . وتنقسم كذلك كل من الميمنة والميسرة الى جناحين أيمن وأيسر ، وبالمثل القلب ، فيقال الذراع الايمـــن للقلب ، والذراع الأيسر للقلب . وتتكون المؤخرة من المطبخ والخزينـــة ، والفائض من الخيول والاسرى والجرحى . وتنطبق هذه الصورة على ما ذكرتـــه الروايات المعاصرة عن التعبئة الصلاحية فى المعركة المعروفة بالمصاف الاعظـــم أو الموقعة الكبرى التى حدثت فى شعبان من سنة ٥٨٥هـ/اكتوبر ١١٨٩م عندما خرج الصليبيون بتعبئة القتال نحو المعسكر الاسلامى بتل العياضية . ذلك أنـــه لما كان يوم الاربعاء الموافق الحادى والعشرين من شعبان سنة ٥٨٥هـ تحركت عساكر الصليبيين فارسهم وراجلهم ، واصطفوا خارج خيامهم : قلبا وميمنة وميسرة وفى القلب الملك بين يديه الانجيل ، وامتدت الميمنة فى مقابلة ميسرة عسكـــر المسلمين ، وامتدت ميسرة العدو فى مقابلة ميمنة المسلمين ، وكان طـــرف

---

(١) أنظر الطرسوسى ، تبصرة ارباب الالباب ، ص ٢٣ ــ ٢٤ ؛ نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ٢٢٥ ؛ سعداوى ، جيش مصر ، ص ٤٠

ميمنتهم الى النهر وطرف ميسرتهم الى البحر . ولما رأى صلاح الدين ذلك نادى في جيشه " يا للاسلام " فركب الناس ، وامتدت الميمنة الى البحر ، والميسرة الى النهر كذلك . وكان صلاح الدين قد رتب الناس فى الخيام ميمنة وميسرة وقلبا ، حتى اذا وقعت صيحة لا يحتاجون الى تجديد ترتيب وكان هو فى القلب.(١)

وكان صلاح الدين يقوم بتعيين قائد مستقل لكل فرقة من هذه الفرق ، أطلق عليه المقدم فيقال مقدم المقدمة ، ومقدم الميمنة ، ومقدم الميسرة ، ومقدم الساقة . أما القلب فقد جرت العادة بأن تكون امرته لصلاح الدين نفسه ، ويحاط بالاطباء والفلكيين والعلماء والاخصاء ورماة المزاريق المهرة ويقف جاهلوا العلم وأصحاب الكوسات .(٢)

والى جانب ذلك كان صلاح الدين يدور بنفسه يوم المعركة على صفوف الجيش ويخاطبهم ويحثهم على الجهاد ، ويعدهم بالثواب من الله فى الآخرة ، ويمنيهم بالخلع السنية والعطايا والهبات .(٣)

وجرت العادة أن يسبق معارك صلاح الدين حركة استكشاف يقوم بها طائفة من جيشه عرفت باسم اليزك يمرن أفرادها على تقصى أخبار العدو ومعرفة

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص١٠٩ــ١١٠ ؛ ابوشامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ ــ ٢٩٦ ، نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ٢٢٦ ، سعداوى جيش مصر ، ص ٤١ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٥ ؛ نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ٤١ ؛ والكوسات عرفها القلقشندى فى صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٩ بانها عبارة عن صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق باحدها على الآخر بايقاع مخصوص ؛ أنظر أيضا تاريخ ابن الفرات ، م٤ ، ج ٢ ، ص ٥ ، حاشية .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٠ .

خططه الحربية ، وقد يعهد اليه بمهمة مناوشة العدو بالنشاب ، واستدراجه الى معسكر المسلمين (١) .

أما اذا أراد صلاح الدين الشروع في القتال فانه كان يأمر بدق الكوسات ايذانا ببدء القتال يدلنا على ذلك قول العماد الاصفهاني « كانت الملاحمة بيننا وبين أصحابنا في عكا عند زحف العدو ، دق الكوس ، حتى اذا سمعناه جددنا في الزحف الى العدو بالنفائس والنفوس » (٢) .

كما كان صلاح الدين اذا أراد اصدار أوامر جديدة لجيشه أثناء سير المعركة أوكل شخص في جيشه عرف باسم الطواشي مهمته نقل هذه الأوامر الى جميع وحدات العسكر يشاركه في هذا العمل موظف آخر عرف باسم الجاويش فضلا عن قيامه بالصياح والمناداه في الجيش لحثهم على الجهاد (٣) .

كما أهتم صلاح الدين بوجه خاص بالناحية القضائية في عسكره ، وكان ذلك على ما يبدوا تحسبا للفصل فيما قد يحدث بين العسكر من اختلاف ومشاكل تشغلهم عن الجهاد ، وقد تولى وظيفة قضاء العسكر هذه على عهد صلاح الدين ، المؤرخ بهاء الدين بن شداد الذى لازمه في حله وترحاله (٤) .

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٥٠ — ١٥٢ ؛ العماد ، الفتح ، ص ٢٩٣ ؛ أنظر أيضا نظير سعداوى ، جيش مصر ، ص ٤٤ — ٤٥ .
(٢) العماد ، الفتح ، ص ٤٨٨ .
(٣) أنظر نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ٤٥ ، والجاويش : كان معناه في مصطلح العصر الايوبى جندى مهمته النداء واستنفار الجند . (أنظر ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٦٢ حاشية ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ حاشية .
(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧ حاشية ؛ نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ٤٤ .

أما وضع الخطط العسكرية ، فقد وضع صلاح الدين لاقرارها والاشـــراف عليها مجلس مشورة ينعقد كلما دعت الضرورة لانعقاده . واستشار صلاح الديـن ذلك المجلس فيى عملياته الحربية وعمل بمشورته . ويتكون هذا المجلس من كـل من صلاح الدين رئيسا ، عضوية أخيه العادل أبى بكر وأولاده وأولاد أعمامـــه ، والرفاق القدامى والأتباع الجدد ، ووزيره القاضى الفاضل ، وسكرتيره الخـاص العماد الاصفهانى ، وقاضى الجيش بهاء الدين بن شداد (١) .

وأعطى صلاح الدين أعضاء هذا المجلس حرية ابداء الرأى فى صراحة تامة ، وان كان من المقطوع به أن وجود صلاح الدين كرئيس لهذا المجلس كان يملك السيطرة عليه . ولم يحدث مطلقا أن علا صوت أحد الأعضاء الآخرين وانفـرد بالمناقشة دونهم ، بغية التأثير على صلاح الدين (٢) . ومع ذلك فانه يبدو لنـا أن المشورة لم تقتصر على أولئك الانصار بل كانت له مشورة خاصة تقتصر على نفر مـن أصحابه ، وعامة تشمل الجيش بكامله . فمن المعروف أن صلاح الدين اهتم كثيرا بمشورة أخيه العادل وسماع رأيه بالذات (٣) ، حتى أن البعض يرجع نقله من مصر الى حلب الى أن صلاح الدين رغب فى أن يكون أخوه العادل على مقربة منه يأخذ رأيه فـــى أمور السياسة والحرب للاستنارة بمشورته . وبلغ به الأمر أن حرص على الكتابة اليه دائما وهو بمصر ، وكان يؤخر الأمور حتى يرد عليه (٤) . وكذلك الحال مع غيره ممن

(١) أنظر نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٧٧ ، جيش مصر ، ص ٣٢ .

(٢) Lane-Poole, Saladin, P. 260.
نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ٣٢ .

(٣) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٥٢ .

(٤) نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى ، ص ١٥١ .

يعرف سداد رأيه في ذلك أمثال القاضي الفاضل ، والفقيه عيسى الهكاري ، والقاضي بهاء الدين بن شداد وغيرهم ممن كان صلاح الدين ينفرد بهم ويخصهم بمشورته (١).

كما كان صلاح الدين يستشير أكثر من واحد من أصحابه في أمر واحد ، يدلنا على ذلك ما ذكره ابن شداد ، من أن صلاح الدين شاوره في أمر خراب عسقلان بعد أن كان قد أخذ مشورة ابنه الملك الافضل عليا في ذلك (٢).

أما بالنسبة للمشورة العامة ، فيدلنا على ذلك ما ذكره ابن شاهنشاه الايوبي في كتابه مضمار الحقائق من أن صلاح الدين بعث كتابا الى نائبه في مصر يصف الاستعداد للجهاد قال فيه « وقد عزمنا — مع خروج شباط — على المسير الى حلب ، لأن هناك العساكر يقرب اجتماعها ، والغنائم يتحقق اتساعها ، والمشاورات الصائبة يتدانى استماعها ... » (٣)

وعلى كل فان الذي يهمنا هو أن صلاح قد سار في وضع الخطط العسكرية لجيشه على أساس نظام المشورة الذي كان يقوم على تبادل الآراء واختيار أفضلها ، سواء أكان ذلك في الفترة التي قضاها في توحيد الجبهة الاسلامية أو بعد أن بدأ مشروع الجهاد الاسلامي لتصفية الوجود الصليبي . بل انه طبق مبدأ المشورة هذا حتى وهو لا يزال تابعا لسيده نور الدين محمود ،

---

(١) أنظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٢٥٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣١٩ ؛ السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٧ ، ص ١٦٧ .
(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٤٦ .
(٣) ابن شاهنشاه الأيوبي ، مضمار الحقائق ، ص ١٦٤ .

يدلنا على ذلك ما فعله في المحرم من سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م ، حين جمع الأمراء وشاورهم في رغبة الخليفة العباسي ونور الدين محمود ، في القبض على آخر الخلفاء الفاطميين والغاء الخطبة له واقامتها للخليفة العباسي المستضيء (١) . وفي السنة نفسها دعا صلاح الدين المجلس الى الانعقاد ، بعد أن بلغه عزم نور الدين محمود على قصده في مصر واخراجه منها بسبب تأزم الموقف بينهما حيث جمع لذلك أهله وأقاربه ، واستشارهم في ذلك ، فقال بعضهم بمقاتلة نور الدين ان أقدم على ذلك وعزموا على اعلان ذلك لولا تدخل نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الذي حسم الموقف بحكمة وروية ، كما سبق أن ذكرنا (٢) .

وحينما استعصت مدينة صور التي اعتصم بها الصليبيون على صلاح الدين ، عقد مجلس مشورة في سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م ـ ناقش المجتمعون فيه مسألة حصار مدينة صور وفي ذلك يذكر العماد أن صلاح الدين وأصحابه قررو فيه أن صور " بلد حصين في البحر ثلاثة أرباعه ، ومن احكام العزم تكميل الآلات وتركيب الابراج والدبابات واستحضار كل ما يراد للحصار " (٣) أما ابن الاثير في كتابه الكامل ، وابو شامه في كتابه الروضتين ، فقد ذكرا أن المجتمعين في ذلك المجلس انقسموا قسمين ، قسم يرى رفع الحصار لكثرة القتلى وقلة الاموال وحلول الشتاء ، على أمل العودة اليها في الربيع ، وقسم رأى الاستمرار في حصارها ومضايقتها حتى تسقط (٤) . وانتهى الامر بتغلب الفريق الاول على ما سنرى في الفصل

---

(١) أنظر ما سبق ، ص
(٢) أنظر ما سبق ، ص
(٣) العماد ، الفتح ، ص ١٥٧ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٥٦ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

الخامس .

وفي حصار الصليبيين لعكا انعقد مجلس الشورة أكثر من مرة لوضع الخطط الحربية ، منها ذلك الاجتماع الذى عقد فى شعبان من سنة ٥٨٥ هـ / سبتمبر ١١٨٩ م ، والذى افتتحه صلاح الدين بقوله " اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد أجلب بخيله ورجله ، واناخ بكلكله ، وقد برز بالكفر كله الى الاسلام كله ، وجمع حشده ، وحشد جمعه ، واستنفد وسعه ، وأن لم يعالج الآن فريقه أعضل داؤه وتعذر غدا لقاؤه ... " (١)

والواقع أن صلاح الدين شاور أصحابه فى هذه المواطن كلها ، ومواطن أخرى كثيرة يطول حصرها هنا . وقبل رأيهم عن رضا حينا ، وعن كره حينا آخر ، ايثارا لرضائهم ، وحرصا منه على احترام رأى الأغلبية . (٢) وكانت عادة صلاح الدين اذا عقد مشورة أو اتخذ قرارا سياسا أو اصلاحيا أن يكلف القاضى بهاء الدين ابن شداد بتبليغه الى الجهات المعنية لتقوم بدورها بتنفيذه ، وفى هذا المعنى يقول ابن شداد " فكتبت الرقاع ، وسيرت الى الامراء " (٣)

والى جانب نظام المشورة اتبع صلاح الدين أساليب أخرى ، كان لها الأثر الكبير فى احكام خططه العسكرية ، منها استغلال المعلومات التى كانت

---

(١) أنظر العماد ، الفتح ، ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .
(٢) نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ٣٩ .
(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢١٢ ؛ نظير حسان سعداوى جيش مصر ، ص ٣٨ .

تصله من معسكرات العدو واما بواسطة الطلائع أو اليزك ـ كما سبق أن ذكرنا ـ وأما بواسطة الجواسيس أو العيون ، التي كان صلاح الدين حريصا على بثها في معسكرات الأعداء لكشف خططهم ، ومعرفة مواطن الضعف في صفوفهم . يدلنا على ذلك ، ما ذكره العماد الاصفهاني على لسان الامير علم الدين سليمان ابن جندر من أنه أنهض جماعة من أصحابه ، ليقتفوا آثار ملك الالمان ، ويكشفوا أخباره ، فساروا الى معسكره ، وخالطوا جيشه ، واستطلعوا أخباره وخططه ، ثم عادوا بعد أن أسر كل منهم ثلاثة أو أربعة أشخاص من جيشه باعوهم في الاسواق (١) . هذا فضلا عما كان يصله من معلومات عن معسكرات الصليبيين عن طريق أولئك المستأمنين الواصلين اليه من صفوف الفرنج (٢) .

كما قام صلاح الدين بعض الاحيان باستطلاع أخبار عدوه بنفسه من ذلك ما ذكر من أن صلاح الدين خرج في سنة ٥٧٢هـ/١١٨٦م الى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية لارهاب العدو ، متظاهرا بالصيد والقنص ، وهو في حقيقة الأمر يريد تطلع أخبار الصليبيين بنفسه ، لمعرفة خططهم وانتهاز الفرص للانقضاض عليهم (٣) .

كما يبدو أن صلاح الدين كان قد سار على طريقة سيده ، نور الدين محمود في استخدام الحمام الهوادي وذلك كوسيلة للاتصال بجيوشه التي تتعرض للحصار والتضييق عليها من جانب الاعداء لمعرفة أحوالهم ، ومن ثم تنسيق

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ٣٩٦ .
(٢) أنظر ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ .
(٣) العيني ، عقد الجمان ، ج ١٢ ، ورقة ٢٠٨ أ .

الخطط العسكرية معهم ، من ذلك أنه فى سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م تمكن بهـذا من استطلاع أخبار أهل عكا وما هم عليه من أمر الحصار (١) .

أما عن التنظيم فى القتال فقد اتبع صلاح الدين فى معاركه أساليب كثيرة ومتنوعة ، ففى المعارك المكشوفة التى كان يشتبك فيها مع عدوه وجها لوجه فقد كان يقسم جيشه ــ كما سبق أن رأينا ــ الى تعبئة قتاليه تتكون من المقدمـة ، والقلب ، والميسرة والساقه ، ويجعل ميمنته مقابل ميسرة العدو وميسرته مقابـل ميمنته ، وعند بدء المعركة يكتفى بمناولة العدو بأحد الجناحين ، على حـين يظل الجناح الآخر على أهبة الاستعداد يتقدم للقتال متى أصاب الأول الوهن أو أعياه الضعف ، أما القلب فوظيفته أن يمد جناحيه بالاطلاب ، اذا ما أصابهما الضعف أيضا (٢) .

ولا يقتصر موقف السلطان فى المعركة على القلب ، بل كان يطوف علـى الاطلاب جميعا يحثهم على الجهاد ، ويحببهم فى الاستشهاد ، واذا مـا اشتد القتال ، طاف بين الصفوف من الميمنة الى الميسرة ، يدعو الاطلاب الى التقدم والتمركز فى مواقع يعينها لهم وعليه كذلك أن يطوف حول العدو مرة أو مرتين اذا كان قريبا منه لاستكشاف أخباره ، ومعرفة نقاط الضعف فى صفوفه ، حـتى أن

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ٣٦٠ ــ ٣٦٢ ، والحمام الهوادى هو الحمـام الزاجل ، أو حمام الرسائل ، وأطلق هذا الاسم على الحمام لحمله صغار الرسائل ، وقيل أن اسم ورقاء بالعربية أطلق فى الاصل على هذا النـوع من الحمام لحمله ورق الرسائل ، وهو مشهور بسرعة الطيران ، أنظر نظير حسان سعداوى ، نظام البريد فى الدولة الاسلامية ، ص ١٣٤ ، ١٤١ ــ ١٤٢ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ ــ ٢٩٧ ، نظير حسـان سعداوى ، جيش مصر ، ص ٤٢ .

ابن شداد يذكر أن صلاح الدين كان لكثرة تجوله بين صفوف الجيش ، يضع على رأسه منديلا بغية اتقاء حرارة الشمس ، وكان لا يحب أن تنصب له خيمة حتى لا يرى العدو منه ضعفا (١) .

ومن أساليب القتال التي اتبعها صلاح الدين كذلك الحرب الخاطفة ومباغتة العدو ، وتبدو هذه الخطة واضحة بعد معركة حطين حين اتجه صلاح الدين مباشرة الى المدن الساحلية ، فهاجم معظمها مثل عكا وصفوريه وقيساريه وغزه ونابلس وغيرها ، حتى اذا اذا استعصت عليه صور فضل تركها والعودة الى الاستيلاء على بيت المقدس . وما أن استولى عليه حتى عاد مرة أخرى الى الساحل فاستولى على حصن كوكب والكرك ، والشوبك واللاذقية وغيرها (٢) .

ولم تقتصر أساليب صلاح الدين القتالية على ذلك ، بل استخدم أساليب أخرى متعددة منها أسلوب الكر والفر ، ففي سنة ٥٧٤هـ/١١٨٧م أغار على حصن بيت الأحزان ، ثم انتقل الى بانياس وخيم بتل القاضي ، وبلغت خيامه حدود العدو ، وأخذ يجرد العساكر وقبائل العرب الى صيدا وبيروت حتى يحصدوا غلات الصليبيين ، ومن ثم يعودوا اليه بالاجمال حتى خف زرع العدو (٣) .

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٩ ؛ نظير حسان سعداوي ، جيش مصر ، ص ٤٢ .

(٢) أنظر ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٥ ، ٩ ، ١٤ ، ٢٠ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧٣ ــ ٧٤ .

كما كان للتمويه والخداع ، دور كبير في تحقيق الانتصار في معـــارك صلاح الدين ، من ذلك ما ذكره ابن الاثير في حوادث سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢ م من أن صلاح الدين سار من بيروت في تلك السنة قاصدا مدن اقليم الجزيرة ، بعد أن وصلته رسل مظفر الدين ، تحثه على المجيء ، فجدّ في الســـير مظهرا أنه يريد حصار حلب ، وهو في حقيقة الأمر يقصد اقليم الجزيرة (١) . وكذلك ما ذكره العماد في كيفية فتح صفد سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م ، حيث ذكـــر أن صلاح الدين قد اصطنع لذلك حيلا كثيرة (٢) .

كما عمل صلاح الدين على بعث سراياه للاغارة على معسكرات الصليبيين وممتلكاتهم واضعافها بالنهب والسلب والتخريب . من ذلك ما حدث ســـنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م عندما علم المسلمون بنزول الصليبيين في عين جالـــوت، حيث بثوا سراياهم في تلك المنطقة للاغارة على العدو ونهب معسكره (٣) . ومـــا حدث سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م حينما أغار صلاح الدين على جينين ، حيث بـــث وهو في طريق عودته منها السرايا يمينا وشمالا للاغارة على ممتلكات الصليبيـــين وتخريبها (٤) .

ويبدو أن نشاطات جواسيس صلاح الدين وعيونه في استطلاع أخبـــار الصليبيين وتحركاتهم ساعدته على قيامه بنصب الكمائن لهم وتكبيدهم الخسائر

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٨٣ .
(٢) العماد ، الفتح ، ص ٢٦٨ .
(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٧٣ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٧ .

من ذلك ما ذكر من أن صلاح الدين بلغه خروج جمع من الصليبيين ، للاحتشاش والاحتطاب ، فأكمن لهم جماعة من العرب ، واختص العرب لخفتهم على خليلهم ، وأمنه عليهم ، فهجموا عليهم وكبدوهم خسائر جسيمة فى الارواح ، وأسروا جمعا كثيرا وذلك فى شعبان سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م (١) . ومن ذلك ما حدث فى تلك المعركة التى عرفت فى المصادر بمعركة الكمين سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م (٢) .

وكان لحرب العصابات دور كبير فى انزال الرعب فى معسكرات الصليبيين وانهاك قواهم ففى سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م كبس جماعة من المسلمين أثناء حصار عكا سوق الخمارات ، وسبوا منه عددا من النساء الفواجر . كما كان رجال المسلمين يتسللون الى معسكرات الصليبيين لخطف الرجال ، فمنهم من كان يهجم على الرجل فى خيمته ويرهبه بسكين أو بغيرها ، فيأخذه أسيرا بالقهر ، وان أبى قتله (٣) .

كما نلحظ أن صلاح الدين قد استعمل أسلوب الترهيب فى كثير من معاركه ، من ذلك ما ذكره ابو شامه فى حوادث سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م من أن صلاح الدين عندما حاصر حلب فى هذه السنة « أنفذ رسل الترهيب اليهم » (٤) الامر الذى جعل عماد الدين زنكى الثانى ينزل على الصلح .

كما استعان صلاح الدين فى جهاده ضد الصليبيين بأولئك المستأمنين

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠٨ .
(٢) انظر ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٥٠ – ١٥١ ؛ العماد ، الفتح ، ص ٤٤٨ – ٤٤٩ .
(٣) العماد ، الفتح ، ص ٣٤٥ – ٣٤٦ .
(٤) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٤٣ .

الوافدين على معسكره من صفوف عدوه ، ففي سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م اتفق مع جماعة منهم على ركوب البحر ونهب مراكب الصليبيين ، على أن يكون المكسب مناصفة بينه وبينهم ، فظفروا بعدد منها ، وأسروا بحارتها ، واحضروهم بين يديه فأعطاهم جميع ما غنموا ثم أسلم شطرهم نتيجة لهذه المكرمة منه (١) .

ويمكن القول بأن صلاح الدين ، قد اتبع نظاما خاصا في جهاده ضد الصليبيين ، دل على خبرته ودرايته بفنون القتال ، ويقوم هذا النظام على اختيار الوقت والمكان المناسب للاشتباك مع عدوه . فقد كان صلاح الدين يراعي عند عزمه على الجهاد درجة حرارة الجو ، فضلا عن المكان الذي ستدور فيه المعركة ، واستدراج العدو الى المكان المناسب الذي يريده هو ، ومن ثم توفر المواد اللازمة لجيشه وخيله كالماء والعشب بالاضافة الى مراعاة اتجاه اشعة الشمس ، حيث كان يحرص على أن لا تكون اشعتها في وجه جيشه تعيقه عن الهجوم . ولعل خير دليل على ذلك ما حدث في كل من معركة صفورية وحطين ، وفتح بيت المقدس (٢) .

أما فيما يتعلق بحصار المدن والقلاع فان صلاح الدين قد استخدم لذلك أسلحته الثقيلة كالمنجنيقات والدبابات وغيرها ، فاذا ما وقف على الحصن المراد حصاره ، تقدم بادئ الأمر الى أصحابه يطلب تسليمه له بالطرق السلمية ، فان أبو ذلك شرع في حصاره بتكتيك بارع ، يبدأ باختيار ذلك السور أو الحصن لتقدير استعداداته ، ومعرفة نقاط الضعف فيه ، كما حدث عند حصاره لحصن

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ٤٦٠ ـ ٤٦١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٤٧ ـ ٣٤٨ ؛ ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م٤ ، ج ١ ، ص ٢٤٤ .

(٢) أنظر ما يلي : ص

بيت الأحزان سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م (١) وحصن طبرية سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م (٢) وكذلك ما فعله عند شروعه في فتح بيت المقدس في السنة نفسها (٣) .

واذا فرغ صلاح الدين من تحديد ذلك ، بدأ في نصب آلات الحصار ، ثم أصدر أوامره الى المنجنيقات بالشروع في الرمي ، في حين يقوم مشاة الجيش بالتقدم على شكل زحوف مستمرة لقتال الحامية وفي نفس الوقت كان العمال يقومون بمواضع النقب في الاسوار ، يقومون بنقب المواقع الحساسه التي تؤدي أما الى تعليق السور ثم انهدامه (٤) ، وأما الى عمل ثقوب على شكل سلالم يصعد عليها الجيش (٥) ، وأما على شكل ثقوب داخل الاسوار تشعل فيها النيران بعد حشوها (٦) . فاذا تمكنوا باحدى هذه الطرق من فتح ثغرة في السور ، تدافع الجيش الى الداخل .

كما اتبع صلاح الدين في حصار المدن والقلاع ، أسلوب الاشتباك مع حامية الحصن مباشرة ، اذ تبدأ المنجنيقات بضرب الاسوار ضربا شديدا ومتتابعا وما أن تحدث بعض الفتحات حتى يقوم عدد من جنده بهجوم سريع على تلك الثغرات والاشتباك مع حامية العدو ، فاذا قضوا على المدافعين ، فتحوا الطريق أمام الجيش لاقتحام الحصن والاستيلاء عليه ، من ذلك ما حدث عند

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج٥ ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ .
(٢) العماد ، الفتح ، ص ٧٦ .
(٣) أنظر ما يلي : ص
(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ .
(٥) العماد ، الفتح ، ص ٢٥٦ .
(٦) العماد ، الفتح ، ص ٥٩١ ، البنداري ، سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ .

حصار صلاح الدين لحصن دربساك سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م (١) ٠

والملاحظ أيضا أن صلاح الدين قد طبق فى حصاره للمدن والقلاع نظاما عسكريا متقدما ، ففى الوقت الذى كان مشاته من النقابين وغيرهم يتقدمون فى اتجاه الاسوار ومن ثم نقبها ، كان الرماة يطلقون على العدو سهامهم ، حتى لا يستطيع الظهور من أعلى السور وتعريضهم للأذى ، من ذلك ما حدث أثناء حصار المسلمين حصن كوكب سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م (٢) ٠

وكان صلاح الدين يؤكد فى حصار المدن والقلاع على منع وصول المؤن اليها عليها ، فيفرض حصارا اقتصاديا/فضلا عن الحصار العسكرى ، كما حدث لقلعة حمص سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م (٣) وحصنى الكرك والشوبك سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م حيث تذكر المصادر أن صلاح الدين جعل على الكرك والشوبك عسكرا لحصاره بقيادة أخيه الملك العادل ٠ واستمر ذلك الحصار مدة طويلة حتى فنيت أزواد الصليبيين وذخائرهم ، وأكلوا دوابهم ٠ ولما ضاق بهم الحال راسلوا الملك العادل فى التسليم وطلبوا منه الآمان فأجابهم الى ذلك (٤) ٠

كما استخدم صلاح الدين الى جانب ذلك أسلوبا آخر جديدا ، يقوم على التناوب عند طول مدة الحصار فكان يقسم عسكره الى أقسام ويجعل لكل

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ ــ ٢٦٨ ٠
(٢) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ ٠
(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٢٠ ٠
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢١ ــ ٢٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٧١ ــ ٢٧٢ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٤٣ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٩ ٠

قسم وقتا معلوما من النهار يقاتل فيه ، حتى يتصل القتال على عدوه ، دون أن يستريح على حين كان جيشه ينعم براحة كافية ، من ذلك ما حدث عند حصاره لصور سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، حيث قسم القتال على المسكر وجعل لكل جمع منهم وقتا معلوما يقاتلون فيه بحيث يظل القتال مستمرا على أهل البلد (١) .

وعندما حاصر صلاح الدين حصن برزيه سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م قسم العسكر ثلاثة أقسام ، بحيث يزحف كل قسم على حده فاذا تعب من به من العسكر عادوا ليزحف القسم الثاني ، وكذلك الحال بالنسبة للقسم الثالث (٢) .

وفي الوقت الذي كان صلاح الدين ، يعمل جاهدا لتوحيد الجبهة الاسلامية ، ليستطيع الشروع في الجهاد الاسلامي لتصفية الوجود الصليبي ، لم يغب عن باله القيام بتحصين بعض المناطق الهامة التي كان يخشى تعرضها لهجوم صليبي مفاجئ . فلم ينس صلاح الدين مطلقا مطامع الصليبيين في مصر ، بل ظل متخوفا طوال الفترة التي قضاها في توحيد الجبهة الاسلامية من أن يقوم الصليبيون بحملة كبرى لغزو مصر ، من طراز حملات عموري الأول ملك بيت المقدس (٣) .

والواقع أن تفكير صلاح الدين في تحصين مصر يرجع الى أيام وزارته أي

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٥٣ ؛ العماد ، الفتح ، ص ١٧٣ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٥ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٣٠ – ١٣١ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٠٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٣٠ .
(٣) سعيد عاشور ، الايوبيون والمماليك ، ص ٤٨ .

قبل سقوط الخلافة الفاطمية يدلنا على ذلك ، ما ذكر من أنه توجه فى سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧١م الى الاسكندرية لتفقد أحوالها ترتيب قواعدها ، ومن ثم أصدر أوامره بعمارة أسوارها وأبراجها (١) . كما قام أيضا فى نفس السنة بالشروع فى عمارة سور القاهرة الذى كان قد تهدم حتى أصبح لا يرد داخلا ولا خارجا على حد قول ابن أبى طى (٢) .

وأهم تلك التحصينات التى قام بها صلاح الدين فى مصر تشييده للسور الايوبى بالقاهرة وتأسيس قلعة الجبل التى وصفت بأنها أفخم القلاع التى شيدت فى العصور الوسطى على طرف جبل المقطم (٣) . وذكر أن السبب فى تشييدها أن صلاح الدين عندما تملك مصر رأى أن الفسطاط والقاهرة لكل منهما سور خاص لا يمنعها ، فرأى أنه أن أفرد لكل واحدة سورا خاصا احتاجت الى جند خاص يحميها ، لذلك عزم على أن يقيم عليها سورا واحدا كما أمر ببناء قلعة فى الوسط على طرف جبل المقطم عرفت بقلعة الجبل (٤) .

على أن جهود صلاح الدين فى تحصين مصر ، لم تقف عند حد الاسكندرية والفسطاط والقاهرة بل امتدت الى ثغور وموانى مصرية أخرى من ذلك ما حدث

---

(١) ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٤٨٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٩٩ ، ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ١٩٥ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٩ ؛ ابن الفرات ، جم٤ ، ج ١ ، ص ١٢٧ .

(٢) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٤٨٨ .

(٣) أنظر عبد الرحمن زكى ، قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار ، ص ٣١-٣٣

(٤) ابوشامه ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٦٨٧ .

سنة ٥٧٧هـ/١١٨٢م عندما انتدب صلاح الدين من قبله من قام بعمارة قلعة تنيس[١] التي كثيرا ما تعرضت لاعتداءات صليبية ، حيث قدر لاعادة عمارة سورها القديم على أساساته الباقية مبلغ ثلاثة آلاف دينار ، فضلا عن تجديد آلات الدفاع بها[٢] . كما قام في السنة نفسها أيضا بترميم سور مدينة دمياط ، وسد ثلمة حدثت فيه ، ومن ثم اتقان السلسلة التي كانت قد أقيمت فيها بين البرجين ، حتى ذكر أن ما أنفقه على ذلك بلغ ألف ألف دينار بالاضافة الى ما قام به بعد ذلك من تحصينات لهذه المدينة في سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م حيث قام بحفر خندق لها ، وعمل جسر عند سلسلة البرج[٣] .

ويبدو أن صلاح الدين أدرك وهو في طريقه الى عربان الكرك والشوبك عن طريق ايلة أن الضرورة الحربية تقضي عليه تطهير شبه جزيرة سيناء كلها من العربان الضاربين في الوديان ومعابر الطرق بين مصر والشام ، فرأى أن يشيد قلعة في قلب شبه الجزيرة عرفت باسم قلعة الجندي[٤] . بالاضافة الى قيامه بعد ذلك ببناء برج بالسويس يتسع لعشرين فارسا ، رتب فيه الفرسان[٥] .

وعليه يمكن القول بأن صلاح الدين قد عني عناية فائقة بتحصين مصر ، حتى يأمن عليها من اعتداءات الصليبيين ، حتى بلغ به الأمر ، أثناء وجوده

---

(١) تنيس : مدينة في وسط بحيرة تعرف ببحيرة تنيس ، كانت عامرة الى أن خربها السلطان الكامل الايوبي سنة ٦٢٤هـ ، أنظر ياقوت ، معجم البلدان .

(٢) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٨١ .

(٣) المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢١٥ .

(٤) اختار صلاح الدين لهذه القلعة اكمة مرتفعة مخروطية الشكل ، تقع على نحو ميل الى الشمال الشرقي من عين سدر الخزيرة الى الجنوب الشرقي من السويس الحالية (أنظر نظير حسان سعداوي ، التاريخ الحربي المصري ، ص ٣٤ .

(٥) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٢ .

ببلاد الشام فى الفترة التى قضاها فى توحيد الجبهة الاسلامية أن تردد عليها أكثر من مرة للاطمئنان على تحصيناتها بنفسه من ذلك ما حدث سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م (١) ثم سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م (٢).

واذا كان صلاح الدين قد اهتم ذلك الاهتمام العظيم ببناء القلاع والابراج وتحصين المدن والثغور فى مصر، فمن الواضح أن يكون اهتمامه بذلك فى بلاد الشام عظيما أيضا، فقد أكثر من بناء الحصون فى المواقع الحربية الهامة، وحرص على تحصين القلاع لتكون مراكز لعملياته ضد الصليبيين (٣)، ويمكننا أن ندلل على ذلك بما قام به صلاح الدين عقب استيلائه على مدينة عكا سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م حيث أمر بتجديد أسوارها وتعلية أبراجها وعمارة قصورها ودورها واستدعى بهاء الدين قراقوش من مصر ليقوم بتنفيذ تلك المهمة (٤). وكذلك ما قام به فى سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م من تحصينات لبيت المقدس، حيث قسم العمل فى أسوارها بين أولاده وأمرائه، فضلا عما قام به الفقهاء والفقراء فى تلك السنة من جهود، اقتداء به، حيث قام بالعمل فيه بنفسه، فى وقت كان يزكه يقوم بجهود جبارة لمنع الصليبيين من الوصول اليهم (٥).

---

(١) أنظر ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧؛ العينى، عقد الجمان، ج ١٢، ورقة ٢٠٧ ب؛ السبكى، طبقات الشافعية، ج ٧، ص ٣٦٤ - ٣٦٥؛ ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب، ج ٤، ص ٢٤١؛ اليافعى، مرآة الجنان، ج ٣، ص ٣٩٧.

(٢) أنظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٩٥؛ العينى، عقد الجمان، ج ١٢، ورقة ٢٢٢ أ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٠٨.

(٣) سعيد عاشور، الايوبيون والمماليك، ص ٥٢.

(٤) ابن أيبك الدوادارى، الدر المطلوب، ص ٩٨ - ٩٩؛ ابو شامه، الروضتين، ج ٢، ص ١٢٥.

(٥) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٤٧ وعن اليزك أنظر ما سبق ص

دور الأسطول فى جهاد صلاح الدين :

اعتنى الخلفاء الفاطميون عناية كبيرة بالاسطول ، وخاصة منذ عهد الخليفة المعز لدين الله الذى أنشأ المراكب البحرية ، وسار على نهجه من جاء بعده من الخلفاء ، الذين واصلوا انشاء المراكب فى كل من الفسطاط والاسكندرية ودمياط ، ومن ثم تسييرها الى الموانى الشامية مثل صور وعكا وعسقلان وغيرها ، فضلا عن اهتمامهم بالعاملين على الاسطول ، حيث حرصوا على صرف رواتب مجزية لهم اضافة الى ما نالوه من الاقطاعات . كما جرت العادة فى عهدهم على أن ما غنمه الاسطول يكون لغزاته لا يشاركهم فيه أحد ، باستثناء الأسرى والسلاح فانها تكون من نصيب الخلافة (١) . لذلك فلا غرابة اذا قيل أن مصر الفاطمية والدولة البيزنطية اشتهرتا قبل الحروب الصليبية بانهما أقوى دولتين فى البحر المتوسط (٢) .

ولم تلبث الخلافة الفاطمية أن دب الضعف فى جسمها بسبب ضعف سياستها الداخلية ، وامتد ذلك الضعف الى قواتها البحرية ، ومن ثم عجز أسطولها عن حماية المدن الساحلية الشامية من الاعتداءات الصليبية . ولم

---

(١) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

(٢) الباز العرينى ، الشرق الادنى فى العصور الوسطى ، ص ١٧٠ ،
Ehrenkreutz, The Place of Saladin in the Naval History of the Mediterranean Sea, Journal of the American Oriental Society, (1955), P. 101.

يكد ينيته القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى الا وقد فقد الأسطــول الفاطمى أهميته (١) •

ولما قامت الدولة الايوبية على أنقاض الدولة الفاطمية كانت البحريـــة الاســلامية قد ضعفت تماما بعد أن أستولى الصليبيون على عسقلان وعكا وصـــور وغيرها من القواعد البحرية فى الشام ، وهذا هو الذى جرأهم على الاغـــارة على المدن الساحلية المصرية كالاسكندرية ودمياط وتنيس ورشيد وغيرها (٢) ، فضلا عما ذكره المقريزى من أن شاورا عندما نزل عمورى الأول على مصر أمر باحـــراق مدينة الفسطاط (٣) ، وشمل ذلك الحريق مراكب الاسطول التى دمرت عن آخرها •

لذلك كان على صلاح الدين – الذى أدرك من خلال مشاركته فى حملات عمه أسد الدين شيركوه على مصر أهمية الدفاع البحرى وما تقوم به الأساطيـل من دور فى الأعمال الحربية فى المناطق الساحلية – أن يهتم منذ بدايــة حكمه باعادة بناء تلك الأساطيل وتطويرها للوقوف فى وجه العدوان الصليـــبى (٤) •

وشرع صلاح الدين منذ توليه مقاليد الامور فى مصر فى النظر فى شئون البحريـــة

---

(١) Ehrenkreutz. The Place of Saladin P. 101.

(٢) أرشيبالد لويس ، القوى التجارية والبحرية فى حوض البحر المتوســط ، ص ٣٨٢ ؛ مختار العبادى ، عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، ص ٢٧٦ ، عصر الدولة الفاطمية ، ص ٢٧٢ •

(٣) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٩٤ •

(٤) المقريزى ، الخطط ، ... ، الباز العرينى ، الشرق الادنى فى العصـــور الوسطـــى ، ص ١٧٢ •

(٤) الباز العرينى ، الشرق الادنى فى العصور الوسطى ، ص ١٧٢

والأسطول • والذى يجدر ذكره هنا أنه كان للخليفة العباسى دور كبير فى تشجيع صلاح الدين على الاهتمام بالاسطول فى مصر • فقد تضمن التقليد الذى بعثه الخليفة العباسي الى صلاح الدين بمصر ، بعد قطع خطبة الفاطميين واقامتها للعباسيين ، الحث على الاهتمام بالاسطول فقد قال فى التقليد ، وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى ، والذى يبلغك وتبلغه عينا وأذنا ، ولا عذر لك فى ترك جهاده بنفسك ومالك ، اذا قامت لغيرك الاعذار ، فلابد له من أسطول يكثر عدده ويقوى مدده ، فانه العمده الذى تستعين بها على كشف الظلماء ، والاستكثار من سبايا العبيد والاماء ، وجيشه أخو الجيش السليمانى ، فذاك يسرى على متن الريح ، وهذا يجرى على متن الماء "(١) •

هذا بالاضافة الى أن صلاح الدين ربما كان يخشى مجئ حملة غربية من ناحية الصليبيين وأحلافهم البيزنطيين والصقليين بحجة اعادة الدولة الفاطمية (٢) •

ويمكن تقسيم ما حدث من تطور فى البحرية زمن صلاح الدين الى مراحل ثلاث ، الأولى تبدأ بمجئ صلاح الدين الى السلطة فى مصر سنة ٥٦٥هـ / الى سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٦٩ ـ ١١٧٣ • وقد تميزت البحرية المصرية فى هذه الفترة بالضعف الشديد نتيجة التدهور الذى حل بالدولة الفاطمية فى أواخر أيامها ، ذلك التدهور الذى أدى الى سيطرة الصليبيين على السواحل الشامية واعتداءاتهم المتكررة على السواحل المصرية • والمرحلة الثانية وتمتد من سنة

---

(١) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٤ •

(٢) نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ٢٤ •

٥٧٥هـ الى ٥٨٣هـ/ ١١٧٩م – ١١٨٧م ، وقد بلغت فيها البحرية الأيوبية أوج عظمتها ومجدها ، واستطاع الاسطول المصرى خلال هذه المرحلة ، تحقيق انتصارات عظيمة ضد السفن الصليبية . أما المرحلة الثالثة ، فتشمل السنوات الواقعة بين سنة ٥٨٣هـ وسنة ٥٨٧هـ/١١٨٧ – ١١٩١م . ويلاحظ أن هذه هى الفترة التى استطاع فيها الصليبيون ببلاد الشام استثارة الغرب الذى أمدهم بالحملة الصليبية الثالثة ، والتى تجلى أثرها فى اضعاف البحرية الاسلامية مرة أخرى (١) .

وعلى وجه الاجمال فانه من المعروف أن صلاح الدين عندما تولى حكم مصر ، لم يكن بها الا قوة بحرية صغيرة . اذ لم يقتصر الصليبيون على الاستيلاء على السواحل الشامية ، بل استولوا أيضا على القواعد الامامية فى قبرص وكريت التى كانت تلعب دورا كبيرا فى حماية السواحل الاسلامية ، وكذلك بالنسبة لجزيرة صقلية التى أصبحت نتيجة لذلك الضعف الذى حل بالدولة الفاطمية ، فريسة للغزاة النورمان . أما بالنسبة للبحر الأحمر ، فقد ضعفت السيطرة الاسلامية عليه عندما أنشأ الصليبيون ميناء ايلة على ساحله حيث أصبح الصليبيون ينازعون مصر السيطرة على الطرق التجارية فيه (٢) .

وازاء هذا الوضع ، اهتم صلاح الدين بأمر الأسطول وتبين له أن دواعى الحرب ضد الصليبيين تتطلب قوات بحرية ، فأنشأ دورا لصناعة الأسطول

---

(١) أنظر أيضا : الباز العرينى ، الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ص ١٧٠ .

(٢) الباز العرينى ، الشرق الادنى فى العصور الوسطى ، ص ١٧٠ – ١٧١ .

في كل من الفسطاط والاسكندرية ودمياط (١) . وقد استعان صلاح الدين في بناء اسطوله بالخشب المحلي في مصر الذي هو من نوع السنط وكان من احتكار الدولة ، بالاضافة الى أخشاب الصنوبر والأرز التي تنبت في جبال لبنان فضلا عن معدن الحديد الذي كان يستخرج من جبل بالقرب من بيروت (٢) . كما قام صلاح الدين الى جانب ذلك بعقد معاهدات تجارية لهذا الغرض مع الجمهوريات الايطالية ، حصل بمقتضاها على حاجته من الخشب والحديد والشمع وكان يوجد بالاسكندرية ديوان اسمه المتجر السلطاني (٣) ، مهمته شراء مختلف البضائع المستوردة من الخارج اللازمة للجيش والاسطول ، كالاخشاب والحديد والأقمشة الصوفية ، وكان هذا المتجر السلطاني يقوم بشراء هذه المواد بأموال الخمس المفروضة على التجار (٤) .

ورأى صلاح الدين أن يحث الناس على الخدمة في مجال البحرية والاسطول فقام برفع أجور رجال الاسطول ، وقرر أن يكون دينار الاسطول $\frac{٣}{٤}$ الدينار العام بعد أن كان $\frac{٥}{٨}$ ذلك الدينار ، أي بزيادة عشرين في المائة تقريبا (٥) .

---

(١) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .
(٢) أنظر ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ص ١٠١ ؛ مختار العبادي ، تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ، ص ٢٧٣ .
(٣) السيد الباز العريني ، الشرق الأدنى في العصور الوسطى ، ص ١٧٥ .
(٤) أنظر ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٢٧ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية في مصر ، ص ٥١ ؛ مختار العبادي ، تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ، ص ٢٧٣ .
(٥) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٥ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية في مصر ، ص ٧٢ ؛ مختار العبادي تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ، ص ٢٧٦ ؛ أنظر أيضا نظير حسان سعداوي ، التاريخ الحربي المصري ، ص ٢٦ — ٢٧

كما يبدو أنه كان قد استعان بأساطيل مغربية في تطوير قواته البحرية يدلنا على ذلك ما ذكره ابو شامه في حوادث سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م من خطاب بعث به صلاح الدين الى أمير المغرب يطلب منه المدد قال فيه « فان كانت الأساطيل بالجانب الغربي ميسرة ، والعدة فيها متوفرة ، والرجال في اللقاء فراعة وللمسير غير كارهة ، فالبدار البدار » (١) .

والى جانب ذلك اهتم صلاح الدين ، بتقوية أجهزة الدفاع والحراسة الساحلية كالرباطات والمحارس ، والمناور والمناظر الممتدة على طول سواحل مصر والشام ، وحشد فيها الاجناد للمرابطة فيها وحراستها (٢) . كما كان صلاح الدين أيضا يعمد الى وضع المراقيل في السواحل ليوعز على العدو مسلكه اذا قدم (٣) وذكر أن صلاح الدين استعمل في ميناء دمياط سلسلة جديدة لاعاقة الداخل اليها في حالة الطوارئ (٤) .

وكما اهتم صلاح الدين بتحصين المدن — كما سبق أن ذكرنا — حرص على التردد على مصر لتفقد ثغورها وموانيها ، والاشراف على تعمير الاسطول بنفسه . فقد حدث سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م أن قام صلاح الدين ، ومعه ولداه الافضل علي والعزيز عثمان بزيارة لمصر ، وجعل طريقه على دمياط ، فتفقد

---

(١) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧١ .

(٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ٧ ، ص ٢٠٤ ؛ مختار العبادي وعبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ، ص ٢٧٤ .

(٣) أنظر المقريزي ، الخطط ، ص ج ١ ، ص ١٥٩ .

(٤) Ehrenkreutz, The Place of Saladin, P.108

العمل فى أسوارها ، ثم اتجه الى الاسكندرية ، وأمر باتمام تحصيناتها وتعمير الاسطول فيها (١) . ويضيف المؤرخ ابن أبى طى أن صلاح الدين رأى أن لا يخلى نفسه من ثواب يقوم له مقام القصد الى بلاد الكفار والجهاد فى المشركين ، فرأى الاسطول وقد أخلقت سفنه ، وتغيرت آلاته ، فأمر بتعميره ، بعد أن جمع له الصناع والاخشاب . ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات ، فنقل من السلاح والعدد ما يحتاج الاسطول اليه وشحنه بالرجال وولى فيه أحد اصحابه ، وأفرد له اقطاعا مخصصا وديوانا مفردا عرف بديوان الاسطول ، وكتب الى سائر البلاد المصرية بقبول صاحب الاسطول ، وألا يمنع من أخذ الرجال ، وما يحتاج اليه وأمر صاحب الاسطول بأن لا يبارح البحر ، وان يغزو جزائره (٢) .

ويبدو أن صلاح الدين كان قد قسم العمل فى أسطوله الى قسمين قسم أوكل اليه مهمة الدفاع عن السواحل المصرية ، كانت سفنه تتألف من خمسين سفينة (٣) أما القسم الثانى وعدد سفنه ثلاثون سفينة ، فقد كانت مهمته مهاجمة الصليبيين ، ومساندة جيوشه المجاهدة (٤) وتطلب الأمر أن تقوم دور الصناعة باعداد سفن خاصة بالبحر المتوسط واعداد سفن خاصة بالبحر الاحمر لأن المهام

---

(١) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٨٩ ؛ العينى ، عقد الجمان ، ج ١٢ ، ورقة ٢٠٧ ب .

(٢) العينى ، عقد الجمان ، ج ١٢ ، ورقة ٢٠٧ ب ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٣ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٢ ؛
Ehrenkreutz, The Place of Saladin, P. 106.

(٤) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٢ ؛ الباز العرينى ، الشرق الادنى فى العصور الوسطى ، ص ١٧٧ ؛

التي أوكلت الى الاسطول الايوبى تتطلب منه العمل فى البحرين المتوسط والاحمر ، الذين اختلفا فى الظروف الطبيعية ، فطبيعة البحر الأحمر تختلف عن طبيعة البحر المتوسط بما يحتويه البحر الاحمر من صخور وشعب مرجانية ، وما به من نباتات بحرية ، وما يهب عليه من رياح وأعاصير . ويمكن الاستدلال على ذلك بما شاهده الرحالة ابن جبير من صعوبة الابحار فى البحر الأحمر لما يطرأ على السفن أثناء سيرها من خلل (١) .

وكما اختص ديوان الجيش بالصرف على شئون القوات الحربية والبرية وما يتبعها من الحصون والقلاع والمدن العسكرية ، فقد أفرد صلاح الدين للبحرية ديوانا خاصا عرف باسم ديوان الاسطول ، مهمته الانفاق على شئون القوات البحرية من سفن حربية وبحاره وأسلحة ومؤن ، بالاضافة الى دور الصناعة التي قامت بانشاء الاساطيل ، ومن ثم القيام بأعمال الصيانة اللازمة لذلك . ويبدو أن شئون الاسطول كان يقوم بالاشراف عليها فى العهد الفاطمى ديوان اسمه " ديوان جيش المصريين " ولما قامت الدولة الايوبية ، غير صلاح الدين اسمه الى ديوان الاسطول وذلك فى سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م وولى عليه قائدا من قبله عرف بصاحب الاسطول ، وكتب الى سائر البلاد يؤكد طاعته ، وتلبية طلباته ، حيث قال " القول قول صاحب الاسطول ..... وأن لا يمنع من أخذ رجاله وما يحتاج اليه " (٢) .

---

(١) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٤٩ .
(٢) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٦٩٠ ؛ حسنين ربيع النظم المالية فى مصر ، ص ٧١ ؛ .

وفي سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م سلم صلاح الدين أمر الاسطول بمصر لأخيه الملك العادل الذي عين بدوره صفي الدين بن شكر نائبا له في ديوان الاسطول.(١) كما خصص صلاح الدين لذلك الديوان أموالا ضخمة : هي — متحصلات اقليم الفيوم ، والحبس الجيوشي ، وخراج السنط ، وحصيلة النطرون ، التي بلغت وقتذاك ثمانية آلاف دينار ، الى جانب متحصل ديوان الزكاة ، وقدره أكثر من خمسين ألف دينار ، وأجرة المراكب الديوانية ، وحصيلة قريتي اشنين وطنبده من كورة البهسنا في محافظة المنيا الحالية.(٢)

وهكذا استطاع صلاح الدين توحيد الجبهة الاسلامية ، تمهيدا لبدء مشروع الجهاد الاسلامي لتصفية الوجود الصليبي من بلاد الشام. وقد تمكن صلاح الدين أيضا من تكوين جيش بري وأسطول بحري مزود بكل متطلبات القتال من سلاح وعتاد ومؤن ، بفضل تلك السياسة الحكيمة التي اتبعها لتنظيم جيشه ، والتي قامت على بث روح الجهاد الاسلامي في نفوسهم، وتطبيق نظام الاقطاع الحربي في دولته ذلك النظام الذي تمكن بواسطته من ضمان الحصول على جيش منظم مزود بكل مستلزمات القتال. ولم يعد أمام صلاح الدين أية مشكلات تعيقه عن التفرغ لجهاد الصليبيين واسترداد بيت المقدس.

---

(١) المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ص ١٠٧ — ١٠٨. حسنين ربيع، النظم المالية ، ص ٧١.
(٢) المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ص ٧٣ ؛ حسنين ربيع ، النظم المالية ، ص ٧١.

الفصل الثالث

معركة حطين مقدمة لإسترداد بيت المقدس

- مقدمات معركة حطين .
- استعدادات صلاح الدين العسكرية قبيل معركة حطين .
- وقعة صفورية .
- معركة حطين ونتائجها .

الفصـــل الثالـــــث

معركة حطين مقدمة لاسترداد بيت المقــــــدس

- مقدمات معركة حطين :

تمكن صلاح الدين من تكوين جبهة اسلامية موحدة اتسمت باتساع رقعتها ، لكن سيطرة الصليبيين على بعض مدن الساحل الشامى ، فضلا عن حصنى الكرك والشوبك ، كان يمثل عقبة كأداء فى امكانية الاتصال بين محورى دولته التى ضمت مصر ومعظم بلاد الشام ، وجزءا من أرض العراق . يضاف الى ذلك ، أن هذه المدن والموانئ الساحلية تمتعت بمكانة استراتيجية هامة لأن سيطرة الصليبيين عليها جعلتهم على اتصال دائم بوطنهم الأم الغرب الأوربى .

لذلك اهتم صلاح الدين منذ بداية حكمه ، بالاغارة على هذه المناطق، بل أن اهتمامه بذلك يرجع أيضا الى أيام وزارته فى الدولة الفاطمية ، بدليل أنه قام فى سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م/بالاغارة على غزة وعسقلان والرملة ، ثم مضى الى ايلـــه وحاصرها برا وبحرا حتى فتحها ، وشحنها بالرجال والعدد لحماية الحجاج الذين كانوا يتعرضون لاعتداءات الصليبية بها (١) . هذا بالاضافة الى أنه كان يهدف

---

(١) ابن الاثير، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٥ ؛ البندارى ، سنا البرق الشامى ، ج ١ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ ؛ ابن قاضى شهبه ، الكواكب الدرية ، ص ١٩٤ - ١٩٥ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٥٩ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨٦ ؛ السبكى ، طبقات الشافعية ، ج ٧ ، ص ٣٥٦ ، وأيله مدينة على ساحل البحر الأحمر مما يلى الشام (أنظر ياقوت معجم البلدان) .

من غزو هذه المدن الساحلية الى فتح الطريق الساحلى بين مصر وفلسطين لتأمين مدخل مصر الشمالى فضلا عن اجتذاب جزء من قوات الصليبيين نحو تلك الجبهة ، لتخفيف الضغط عن الحاميات الاسلامية المرابطة بشمال الشام (١) .

وذكر ابن شداد وغيره أنه حدث فى سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م أن عاد صلاح الدين من الشام الى مصر ، لتفقد أحوالها ، وتمكين قواعدها بعد أن استخلف بدمشق أخاه شمس الدولة تورانشاه الذى كان قد وصل اليه من اليمن . واستغل صلاح الدين وجوده بمصر ، وأخذ يتأهب لغزو بعض مدن الساحل الشامى ، فخرج من مصر فى سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م وغزا عسقلان فسبى وغنم ، ثم اتجه لغزو الرملة . وعلى مقربة من الرملة لقيه الصليبيون يتقدمهم البرنس أرناط ، ذلك الأمير الصليبى اللص الذى عرف بخداعه ونقضه للعهود ، والذى كان قد وقع فى أسر المسلمين زمن نور الدين محمود ، ثم أطلق سراحه بيعا بحلب . ودارت الدائرة على جيش صلاح الدين ، وعاد صلاح الدين الى القاهرة . وحلف ألا تضرب له نوبة حتى يكسر الصليبيين ، كما قام بقطع أخباز (اقطاعات) جماعة من الاكراد ، أرجع اليهم سبب الهزيمة (٢) .

ومن المحتمل أن يكون صلاح الدين قد وصلته أخبار بحدوث ضعف فى صفوف الصليبيين فى تلك المنطقة ، ورأى الفرصة سانحة لضربهم . يدلنا

---

(١) نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٠٩ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥٢ ـ ٥٣ ؛ المقريزى ، السلوك ج ١ ، ص ٦٤ ـ ٦٥ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ٢ ، ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ ؛ ابوشامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٩٩ ـ ٧٠٣ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٥٩ ؛ ابن خلدون ، العبر ج ٥ ، ص ٢٩٢ .

على ذلك ما ذكرته بعض المصادر من أن صلاح الدين عندما أغار على عسقلان في تلك السنة لم يحدث من الفرنج رد فعل بل ظلوا على حد تعبير أبي شامه وابن واصل خامدين الأمر الذي شجع جيشه على الانبساط ومهاجمة معسكرات الصليبيين ، ومن ثم اقدامه على مهاجمة الرملة (١) ٠

ويبدو أن الاكراد لم يكونوا وحدهم سبب الهزيمة ، بل أن هناك أسبابا أخرى كان لها الأثر في ذلك ، منها اضطراب صفوف العسكر الصلاحي ، وذلك نتيجة لمحاولة تغيير مراكزه ، حيث يذكر ابن شداد ، أن البعض رأى " أن تعبر الميمنة الى جهة الميسرة والميسرة الى جهة القلب ، ليكونوا في حالة اللقاء ، وراء ظهورهم تل معروف بأرض الرملة " ٠ واستغل الصليبيون اشتغال المسلمين بتغيير مواقعهم ، فباغتوهم بهجوم شديد (٢) ٠ كما لا يستبعد أن يكون جهل عسكر صلاح الدين بطبيعة أرض المعركة من أسباب ما حدث والدليل على ذلك ماذكره المقريزي من أن اعتراض نهر الصافية ، وازدحام المسلمين عليه كان سببا من أسباب تلك الهزيمة (٣) ٠ وأضاف ابن شداد ، أن جيش صلاح الدين قد ضل الطريق عقب الهزيمة وتبدد في الصحراء ووقع جماعة من العسكر في أسر الصليبيين (٤) ٠

---

(١) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق٢ ، ص ٦٩٩ ـ ٧٠٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٥٩ ٠

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥٣ ٠

(٣) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٤ ٠

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥٣ ٠

وبالغ بعض الباحثين الاوربيين الحاقدين فى أهمية تلك الوقعة واعتبروا ما حدث انتصارا باهرا أنقذ مملكة بيت المقدس فى ذلك الوقت • وأنه لو تهيأ للملك الصليبى أن يطارد صلاح الدين داخل مصر ، أو أن يتقدم بهجوم خاطف على دمشق لاستطاع — حسب زعمهم — أن يحطم قوة صلاح الدين • ولكن جيش الصليبيين فى ذلك الوقت كان يعانى من نقص شديد فى الرجال ، وكان ذلك سببا حال بينهم وبين مطاردة صلاح الدين الى داخل مصر •(١)

والحقيقة أن صلاح الدين تعلم من تلك المعركة ألا يكون متهورا للحوادث ، كما تعلم أن جهاد الصليبيين واتمام مشروع الوحدة الاسلامية فى وقت واحد ليس بالأمر الهين ، وأن مهاجمة الصليبيين قبل أن تكتمل سيادته على بلاد نور الدين محمود(٢) فيها خطر كبير •

وفى الوقت الذى كان صلاح الدين يعمل فيه جاهدا لتكوين جبهة اسلامية متحدة ، لم يغب عنه ما يقوم به الصليبيون من استعداد لمجابهة أخطار صلاح الدين ، اذ يبدو أنهم أصبحوا متيقنين من أن صلاح الدين بمجرد انتهائه من تحقيق مشروع الوحدة الاسلامية ، سوف ينقلب عليهم فى الجانب الآخر ، يدلنا على ذلك ما أقاموه من انشاءات وتحصينات حربية استعدادا لمواجهة اخطاره • ففى سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م استغل الصليبيون انشغال صلاح الدين بحصار بعلبك التى أراد أخذها من ابن المقدم وتسليمها

---

(١) ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦٧٣ — ٦٧٤ •
(٢) نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ١١٣ •

لأخيه الملك تورانشاه ، وشيدوا حصنا منيعا بالقرب من بانياس ، عند مخاضة بيت يعقوب عليه السلام ، بمكان عرف بمخاضة الأحزان . وتمتع هذا الحصن بأهمية كبرى نظرا لوقوعه على الطريق بين طبرية وصفد من ناحية ، ودمشق من ناحية أخرى (١) . وتخوف أمراء صلاح الدين من بنائه لما يؤدى اليه من تحكم في ثغور الاسلام ، وقطع طرق قوافلهم . ولكن صلاح الدين لم يستجب بادئ الأمر الى طلبهم بمنع الصليبيين من اتمام بناء ذلك الحصن ، بل رد عليهم قائلا « اذا أتموه نزلنا عليه وهدمناه الى الاساس » (٢) .

ويبدو أن صلاح الدين قد أرجأ الاقدام على هدمه قبل اكتمال بنائه ، بسبب انشغاله في ذلك الوقت بحصار بعلبك (٣) ، واكتفى في بادئ الأمر بعرض المال على الصليبيين مقابل هدمه حيث تذكر المصادر أن صلاح الدين عرض على الصليبيين مقابل هدمه ستين ألف دينار ، ثم رفع ذلك المبلغ الى مائة ألف دينار ، الا أنهم ألحوا على طلب كامل النفقات التي بذلوها في تشييده (٤) .

---

(١) ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧٢ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٦ ؛ سعيد عاشور ، عاشور الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٥٩ ، ومخاضة الاحزان موضع عند بيت يعقوب عرف بهذا الاسم أو باسم بيت الاحزان ، لاعتقاد الناس أن يعقوب ، اعتاد الانفراد فيه والبكاء على ابنه يوسف عليهما السلام . (أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٥٩ ؛ نظير سعداوى ، التاريخ الحربى ، ص ١١٥) .

(٢) ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٧٢ .

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٥٩ .

(٤) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٠٠ ؛ ابن شاهنشاه الايوبى ، مضمار الحقائق ، ص ٢٤ ــ ٢٥ .

وقد كان لتمكن الصليبيين من تشييد حصن بيت الاحزان ، ومن ثم اتخاذه مرصدا لحرب المسلمين ، وقطع طريقهم آثار سيئة ، يضاف الى ذلك تنظيم الاغارات على البلاد الاسلامية ، حيث يذكر ابوشامه فى حوادث سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م أنه اقتضى رأى الصليبيين أن يرعبوا المسلمين فى كل ناحية ، خوفا من اجتماعهم على جبهة واحدة ، فغدر ابرنس انطاكية بوهيمند الثالث وأغار على شيزر ، كما غدر أيضا القمص ريموند بطرابلس بجماعة من التركمان بعد بعد تأمينهم ، الأمر الذى جعل صلاح الدين يعمد الى ترتيب ابن أخيه تقى الدين عمر فى ثغر حماه ومعه شمس الدين بن المقدم ، وسيف الدين على بن المشطوب ، كما رتب ابن عمه ناصر الدين فى ثغر حمص فى مقابلة ريموند الثالث الصنجيلى (١) . كما حدث أيضا فى أواخر السنة نفسها (٥٧٤هـ) أن أجمع الصليبيون ، يتقدمهم ملكهم بلدوين الرابع على المسير الى دمشق ، فأغاروا على أعمالها ، ونهبوا وأسروا وقتلوا وسبوا فلما علم صلاح الدين بمسيرهم ذلك بعث ابن أخيه عزالدين فرخشاه فى جمع من العسكر للقائهم . والتحمت قواته بقوات الصليبيين ، ودارت بين الطرفين معركة انتهت بانتصار المسلمين (٢) . كل ذلك كان له أثره البالغ على نفس صلاح الدين الأمر الذى جعله يدرك أنه لابد من وضع حد لذلك النشاط الصليبى الموجه ضده .

فلم يلبث صلاح الدين عقب ذلك النصر أن شرع فى حصار حصن بيت الاحزان ، ولكنه اكتفى بمهاجمة حامية الحصن ، ثم انصرف عنه بعد قليل .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٣ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٢ — ٤٥٣ .

ويبدو أن هدفه من تلك الاغارة هو اختبار الحصن ، وكشف مواطن الضعف فيه .(١)

ذلك أن صلاح الدين عاد بعد اجتماع العسكر لديه قاصدا مهاجمة الحصن ، وعسكر عند تل القاضي غربي بانياس . وهناك أخذ يعد عدته للهجوم على الصليبيين ، فبعث الى أخيه العادل في مصر يطلب منه المدد (٢) ، في حين كانت سراياه تقوم بغارات متقطعة على معسكرات العدو .(٣)

وبينما كان صلاح الدين معسكرا بتل القاضي علمت سراياه ، التي كانت تواصل نشاطها للاغارة على معسكرات الصليبيين — والتي يبدو أن صلاح الدين كان يقصد من ارسالها استثارة العدو والاشتباك معه في معركة فاصلة — أن بلدوين الرابع ، قد جمع قواته وخرج لمنازلة صلاح الدين . فبعث زعماء تلك السرايا الى صلاح الدين يخبرونه بذلك التحرك الصليبي ، فسار صلاح الدين على رأس جيشه قاصدا ملاقاة الصليبيين . ودارت بين المسلمين بقيادة صلاح الدين ، والصليبيين بقيادة بلدوين الرابع ، معركة بالقرب من تل القاضي في سهل مرج العيون ، انتهت بانتصار المسلمين وانكسار الصليبيين ، وأسر عدد كبير من أعيانهم . كما أن الملك بلدوين نفسه لم ينج من ذلك الا بصعوبة .(٤)

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٥ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٦

(٢) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٦ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠ .

(٤) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٠٠ ؛ الاصفهاني ، البستان الجامع ، ورقة ١٢١ ؛ الذهبي ، دول الاسلام ، ورقة ١٠٨ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٥ — ٤٥٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧٥ — ٧٧ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠ ؛ ابن الراهب ، تاريخ ابن الراهب ، ص ٩١ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٦١ .

والواقع أن انتصار المسلمين فى هذه المعركة يعد انتصارا حاسما وذلك لما حققوه فيها من مكاسب مادية ومعنوية ، متمثلة فى أضعاف قوة الصليبيين ومعنوياتهم ، بأسر ذلك العدد الكبير من قادتهم أمثال باليان دى ابلين (Bali de Iblin) صاحب الرملة ونابلس ، ومقدم الاسبتارية والداويه وأوك (Hugh) صاحب جبيل وغيرهم (١) • حتى انه يمكن القول بأن صلاح الدين كان فى وسعه أن يتبع انتصاره فى معركة مرج العيون بمهاجمة طبرية وبيت المقدس ، كما فعل فيما بعد عقب انتصاره فى حطين ، لولا نجاة ملك بيت المقدس من الأسر فى هذه المعركة ، اذ أن بقاءه طليقا فى المملكة الصليبية أدى الى اجتماع عناصر المقاومة الصليبية حوله • يضاف الى ذلك وصول مجموعة قوية من الفرسان الفرنسيين وعلى رأسهم هنرى الثانى دى شامبنى الى المشرق الاسلامى ، الامر الذى بعث فى الصليبيين عزيمة جديدة وبث فيهم روح المقاومة (٢) •

ولم يغب عن بال صلاح الدين عقب انتصاره فى معركة مرج العيون حصن

---

(١) أنظر ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧٥ ـ ٧٦ • والاسبتاريه من فرق الفرسان الرهبان والكلمة تحريف ظاهر للفظ الانجليزى (Hospitallers) وأسس هذه الطائفة جيرارد (Gerard) فى سنة ١٠٩٩ م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس وتشبه هذه الطائفة طائفة فرسان المعبد (Templars) التى عرفها العرب باسم (الداويه) والتى تأسست سنة ١١٣٩ م لحماية طريق الحاج المسيحى بين يافا والقدس ، ثم تحولت هذه الجماعة أيضا الى هيئة حربية دينية • وقد لعب فرسان هاتين الطائفتين دورا خطيرا فى الحروب الصليبية (أنظر ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٧ ، حاشية رقم ٥) •

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٦١ ـ ٧٦٢ •

مخاضة الاحزان الذى كان يمثل خطرا جسيما على المسلمين • لهذا عاد الى بانياس ، وأخذ يتجهز للمسير الى ذلك الحصن وتخريبه • فسار اليه فى ربيع الأول من سنة ٥٧٥هـ/ أغسطس ١١٧٩م ، وأحاط به من كل الجوانب ، ونصب عليه المنجنيقات ، ثم بدأ الهجوم على الحصن بطريقتين فى آن واحد ، وهما القتال زحفا وكان ذلك بمشورة الامير جاولى الاسدى مقدم الاسدية ، ونقب الاسوار • (١) وهى طريقة جيدة لاقتحام الاسوار والحصون استعملها الجيش الصلاحى فى جهاده ضد الصليبيين للمرة الأولى – على ما يبدو – عند حصاره لهذا الحصن • (٢) ووزع صلاح الدين جوانب البرج على الامراء ، وشرع النقابون فى نقبه ، ثم أشعلوا فيها النيران فسقط الحصن • وأسر المسلمون كل من كان بداخله ، ثم خربوا الحصن حتى سووا به الارض ، بعد أن غنموا كل مابداخله من الاسلحة والمؤن ، وأطلقوا من كان به من أسرى المسلمين • (٣)

شجع انتصار صلاح الدين عند مرج العيون ، وتدميره حصن بيت الأحزان على قيامه بسلسلة من الهجمات على مدن الساحل الشامى ، وانزال الخسائر الجسيمة بالصليبيين ، حيث سار عقب تدميره حصن بيت الاحزان الى أعمال طبريه وصور وبيروت فأغار عليها وأرجف قلوب الصليبيين بها ثم عاد الى دمشق • (٤)

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨٠ – ٨١ •

(٢) نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ١١٩ •

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٦ – ٤٥٧ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ق١ ، ص ٣٥٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨٠ – ٨١ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٦٩ •

(٤) ابوشامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨٣ •

وخرج الاسطول الصلاحي فى السنة نفسها من الموانىء المصرية ليهاجم عكا ذاتها (١) • وفى السنوات التالية قام صلاح الدين بسلسلة من الاغارات على مدن وموانـــى الساحل الشامى ، ففى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م على سبيل المثال قام عقب توقيعه الصلح مع قليج ارسلان ملك الروم بغزو بيروت •قصدا للاستيلاء عليها ، فصل أمارتى طرابلس وانطاكية الصليبيتين عن مملكة بيت المقدس (٢) كما قام فى الســـنة نفسها بالاغارة على طبرية وبيسان وعكا (٣) • وفى سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م أغار على بيسان وصفورية وعين جالوت وغيرها (٤) • كما قام فى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م بالاغارة على نابلس فأنزل بها خسائر فادحة (٥) •

والواقع أن صلاح الدين قد ألحق بالصليبيين خسائر جسيمة فى الأرواح والعتاد ، من جراء تلك الاغارات التى نظمها على مدن الساحل الشامى • الأمر الذى دفع الصليبيين — على ما يبدو — الى التفكير فى تخفيف الضغط علـــى تلك المناطق بتحويل نظر صلاح الدين عنها • وذلك بالاغارة على منطقة الساحل البحر الأحمر ، هذا فضلا عن استغلال وجوده فى تلك المنطقة وتهديـــــد المقدسات الاسلامية لطعن الاسلام فى أقدس بقاعـــه •

---

(١) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤ •

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥٦ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١١٥ ؛ العيــنى ، عقد الجمان ، ج ١٢ ، ورقة ٢٢٣ ، سعاد ماهر ، البحرية فى مصـــــر الاسلامية ، ص ١١٤ •

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٦٩ ، العينى ، عقـــد الجمان ، ج ١٢ ، ورقة ٢٢٣ ، النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٦ ، ورقة ١٢١ •

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٦١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ١٤٨ — ١٥١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٧٢ — ٧٣ ، سبط ابن الجوزى ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٧٧ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٨١ •

(٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ، ابن الاثير ، الكامل ، ١١ ، ص ٥٠٦ ، ابن العديم زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٧٩ •

وكان صلاح الدين حريصا على تأمين الاتصال بين شطرى دولته فى مصر والشام ، الا أن تحقيق ذلك كان معضلا بسبب سيطرة الصليبيين على مدن وموانى الساحل الشامى ، ومنطقة وادى عربه بما فيها من حصون أشهرها حصنى الكرك والشوبك .

ويبدو أن صلاح الدين كان يدرك صعوبة فتح الطريق بين مصر والشام عن طريق المنطقة الساحلية ، بسبب تمكن الصليبيين من السيطرة عليها . يضاف الى ذلك ضعف الاسطول الاسلامى عقب حريق الفسطاط ــ كما سبق أن رأينا ــ لذلك فانه لا يستبعد أن يكون صلاح الدين قد رأى أن من الأحسن فتح الطريق بين شطرى دولته عبر وادى عربه لاطمئنانه الى جيوشه البرية ، فضلا عما كان يشكله الصليبيون بسيطرتهم على حصنى الكرك والشوبك من مخاطر على المسلمين بقطع طرق قوافلهم التجارية واعتراض سبيل المؤدين لفريضة الحج ، الى حد أن القاضى الفاضل ، قد اعتبر وجودهم فى حصن الكرك كان يعد " عذرا لتارك فريضة الحج " (١). لذلك لا يبدو غريبا أن يقوم كل من نور الدين محمود وصلاح الدين ، منذ بداية دخول صلاح الدين مصر ، بمحاولات عدة للاستيلاء على حصنى الكرك والشوبك ، للقضاء على تلك المخاطر وفتح الطريق بين مصر والشام (٢).

ومما زاد الطين بلة فى هذه المنطقة أن البرنس ارناط ، الذى انتهز

---

(١) أنظر ابن نباته ، مختارات من كلام القاضى الفاضل ، ورقة ٥ ــ ٦ ،
وعرف ياقوت وادى عربه بأنه موضع فى أرض فلسطين [أنظر ياقوت معجم البلدان) .

(عقب اطلاق سراحه من الاسر بعد وفاة نور الدين محمود) فرصة وفاة صاحب حصن الكرك فعقد على زوجته وتزوجها ، وملك الحصن بعده (١) . وذلك لما اشتهر به هذا الأمير الصليبي من الغدر والخيانة ، وعدم احترام العهود والمواثيق ، ولم يكن من نوع الفرسان الذين يحرصون على شرفهم ، ويتمسكون بمبادئ الفروسية ، وانما كان لا يصلح الا للسلب والنهب ، وشن الاغارات على الابرياء والسالمين (٢) . ومما يؤيد ذلك ما وصفه به المؤرخ ابو شامه حيث وصف ارناط هذا بأنه « أغدر الفرنجة ، وأخبثها وأفحصها عن الردى والرداءة وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمة والايمان المبرمة ، وانكثها وأحنثها » (٣) .

وبتمكين ارناط تملك حصن الكرك ، الذى كان يتمتع باستراتيجية هامة ، أخذ يقترف أعمالا جائرة ضد المسلمين ، قصد بها طعن الاسلام والمسلمين ، وعرقلة الوحدة الاسلامية . ويبدو أن الاسر الذى تعرض له أرناط الصليبي زمن السلطان نور الدين محمد ، ثم بيعه فى حلب كان من أسباب حقده على الاسلام والمسلمين . ففى سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م انتهك ارناط تلك الهدنة التى كانت معقودة بين المسلمين والصليبيين ، وحاول مهاجمة مكة والمدينة ، ، حيث جمع جيشه وعزم على المسير الى تيماء (٤) . ثم حدثته نفسه بالمسير الى مدينة الرسول

---

(١) ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ص ٧٠ .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٨٥ .

(٣) ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٥ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج ٢ ، ص ٧٨٥ .

(٤) تيماء بليدة فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى (أنظر ياقوت معجم البلدان) .

صلى الله عليه وسلم ، ليستولى على تلك النواحى الشريفة ، ولكن عز الدين قرخشاه الذى كان صلاح الدين ، قد استنابه بدمشق ، عند انتقاله الى مصر لتفقد أحوالها ، كما سبق أن رأينا — ما ان بلغه ذلك حتى جهز العساكر دمشق ، وسار على رأسها ، وأغار على حصن الكرك وكبده خسائر جسيمه . الأ الذى أضطر إرناط معه الى الامتناع عن مقصده ذلك ، والعودة للدفاع عن ممتلكاته فوجد عز الدين تراجع الى أطراف بلاد الاسلام وعسكر هناك لمواجهته . فلما طال مقام كل منهما فى مقابل الآخر ، أدرك البرنس ارناط ، اصرار المسلمين على البقاء حتى يتفرق عسكره ، ففرقهم فلما رأى عز الدين ذلك عاد بعسكره الى دمشق .(١)

والواقع أن نوايا ارناط واحقاده على الاسلام والمسلمين لم تكن السبب الوحيد الذى دفع الصليبيين الى الاغارة على ساحل الحجاز وتهديد مقدسات الاسلام . بل كانت للصليبيين أهداف أخرى شرحها القاضى الفاضل فى احدى رسائله ، ذكر فيها أن الصليبيين أرادوا من حملتهم على البحر الاحمر تحقيق هدفين خطيرين أحدهما الاستيلاء على قلعة أيلة التى هى على فوهة بحر الحجاز ومداخله ، والثانى الخوض فى هذا البحر الاحمر الذى تحيط بلادهم بسواحله قاصدين بذلك منع طريق الحاج وقطع طريق تجار اليمن وأكارم عدن ،

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٧٠ ، ابن واصل ج ٢، ص ١٠١ — ١٠٢ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٢ ، ابن الشحنه ، روضة المناظر ، ورقة ٧٢ ب ، السبكى ، طبقات الشافعية ، ج ٧ ، ص ٣٦٨ ، ابن شاهنشاه الأيوبى ، مضمار الحقائق ، ص ٦٣ .

فضلا عن أن سيطرتهم على تلك السواحل تمكنهم والعياذ بالله من استباحة المحارم بالانتقام من المسلمين بالاستيلاء على مقدساتهم الدينية (١). فشرع ارناط فى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٣م فشرع فى سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٣م فى بناء عدد من السفـــن ، تم نقلها مفككة على ظهور الجمال الى ساحل البحر الأحمر ، حيث جرى هنـــاك تركيبها وشحنها بالرجال ، ومعدات الحرب . ثم سارت هذه القوات ، بعـــد أن قسمها ارناط الى فرقتين ، فرقة ابقاها على جزيرة القلعة (أيلة) وفرقة ســارت فى البحر باتجاه عيذاب على الساحل المصرى للبحر الأحمر وقطعت أثناء سيرها طرق القوافل التجارية ، وباغتت الناس فى بلادهم على حين غفلة ، حيث شـــرع رجالها فى ارتكاب أبشع جرائم القتل والنهب والاسر . الامر الذى أثار الرعب فـــى قلوب الناس هناك ، حيث لم يعهدوا قبل ذلك الوقت سفنا صليبية تجارية كانت أو حربية تسير فى ذلك البحر (٢). ثم توجه الصليبيون بعد ذلك الى أرض الحجاز ، وساروا فى اتجاه المدينة المنورة ، وأشرف أهـــلها منهم على خطر عظيم ، اذ يذكر المقريزى أنه لم يبق بينهم وبينها سوى مسيرة يوم واحد (٣). والواقع أن الصليبيـــــــن استهدفوا بعملهم ذلك ، قطع طريق الحاج ، وضرب العالم الاسلامى فى قلبـــه وطعن المسلمين فى قبلتهم ، ثم الاستيلاء على عدن فى جنوب البحر الاحمر لأخذ

---

(١) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكـــروب ، ج ٢ ، ص ١٣٠ . حسنين ربيع ، البحر الاحمر فى العصر الايوبى فى كتاب البحر الاحمر فى التاريخ والسياسة الدولية ، ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٩٠ ، النويرى ، ج ٢٦ ، ورقة ١٢١ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ .

(٣) المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٩ .

تجارة اليمن – كما سبق أن رأينا – وبذلك يتمكنون بفضل السيطرة على أيلة في الشمال وعدن في الجنوب ، من أغلاق البحر الاحمر في وجه أعدائهم . واحتكار تجارة الشرق والمحيط الهندي (١) .

ولكن المسلمين لم يسكتوا عن تهديد ارناط لمقدساتهم ، بل أسرع الملك العادل الذي كان واليا على مصر ، الى اعداد اسطول قوي في البحر الاحمر بأمر صلاح الدين ، أسند أمرته الى الحاجب حسام الدين لؤلؤ ، الذي رأى أن يبدأ أولا بقطع اتصال الجيش الصليبي بقاعدة تموينه في أيلة ، فحاصرها ودمر ما بها من المراكب الصليبية ، وأسر من فيها . ثم أسرع بعد ذلك بتعقب السفن الصليبية عند عيذاب ونكل بها ، ثم عبر البحر الى شاطئ الحجاز " فبلغ رابغ وساحل الحوراء (٢) " . فأدرك الصليبيين بساحل الحوراء ، وأوقع بهم هناك ، فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك ، تفرقوا في البر ، واعتصموا ببعض الشعاب ، فنزل لؤلؤ من مراكبه اليهم . وهنا يبدو أنه أدرك حاجة جيشه الى خيل لمطاردة الصليبيين في الجبال ، فاستعان بخيول القبائل العربية القاطنة هناك . وطارد الصليبيين بين الجبال ، حتى حصرهم في شعب لا ماء فيه (٣) ،

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٨٧ ؛ نظير حسان سعداوي التاريخ الحربي ، ص ١٤٤ ، حسنين ربيع ، البحر الاحمر في العصر الايوبي ، ص ١٠٩ – ١١٠ .

(٢) رابغ : واد على عشرة أميال من الجحفة فيما بين الابواء والجحفة وساحل الحوراء ، موضع على الساحل الشرقي للبحر الاحمر (أنظر ياقوت معجم البلدان) .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٩١ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٣٧ .

وهنا تذكر بعض المصادر أن لؤلؤ قتل معظمهم وأخذ الباقين أسرى (١).

وكان موسم الحج قد قرب ، فأرسل حسام الدين لؤلؤ أسيرين من الصليبيين الى منى ، حيث نحرهما هناك كما تنحر البدن التي تساق الى الكعبة ، في حين عاد هو ومعه بقية الاسرى الى مصر (٢). وشاهد الرحالة ابن جبير اعدادا كبيرة من هؤلاء الاسرى بمصر . وقد أمر صلاح الدين بقتلهم جميعا جزاء لهم وردعا لمن تسول له نفسه الاعتداء على الحرمين الشريفين . وقد تم قتلهم فعلا بعد استعراضهم في شوارع القاهرة والاسكندرية (٣).

وهكذا باءت محاولة الصليبيين في البحر الاحمر للاعتداء على الحرمين الشريفين واحتكار تجارة المحيط الهندى بالفشل الذريع . واذا كانت هناك نتيجة لتلك المحاولة ، فانها كانت لفت نظر صلاح الدين الى الخطر الذى كان يهدد دولته من ناحية الكرك ووادى عربة ، وهى المنطقة التي تقع بين شقي دولته في الشام ومصر ، فضلا عن الحجاز (٤).

أما أرناط نفسه ، فقد استطاع — على ما يبدو — الافلات من الأسر ، وعاد الى حصن الكرك الذى كان وجوده به يمثل خطرا جسيما على دولة صلاح

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٩١ ، النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٦ ، ورقة ١٢١ .
(٢) أبو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٣٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ؛ المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٩ ؛ حسنين ربيع ، البحر الاحمر في العصر الايوبى ، ص ١١٠ — ١١١ .
(٣) ابن جبير ، الرحلة ، ص ٣٤ — ٣٥ .
(٤) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٨٩ .

الدين ، بتعمده قطع طرق القوافل الذاهبة والآيبة بين مصر والشام ، والتي ذكر ابن شداد ، أن صلاح الدين كان يخرج بنفسه لحمايتها حتى تجتاز تلك المنطقة (١) • الأمر الذي أدى الى أستمرار اهتمام صلاح الدين بحصن الكرك • ففي سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م خرج صلاح الدين من دمشق قاصدا حصار حصن الكرك ، بعد أن أرسل رسله الى أخيه الملك العادل بمصر ، يطلب منه الاجتماع به على الكرك لمساعدته في أحكام حصاره • وسار حتى أتى الكرك ، ووافاه الملك العادل عليه ، ففرض صلاح الدين عليه حصارا شديدا ، وضرب أسواره بالمنجنيقات • فلما سمع الصليبيون بذلك أصابهم هلع شديد ، فساروا راجلهم وفارسهم نحو الكرك يتقدمهم ملك بيت المقدس عموري الرابع للدفاع عن الكرك • الأمر الذي دعا صلاح الدين الى التفكير في العودة الى دمشق بعد أن كبد الصليبيين خسائر كبيرة ، ورأى أن حصار حصن الكرك سيكلفه وقتا طويلا وجهدا كبيرا (٢) •

وعهد صلاح الدين بعد ذلك الى تنظيم اغارات متقطعة على ذلك الحصن لاضعافه ، فخرج من دمشق في سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م لمحاصرة حصن الكرك ، وأرسل الى ملوك الاطراف يطلب العساكر ، فجاءه من مصر ابن أخيه

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٥ •

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٦٣ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٣٧٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥١ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ١٧٠ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٧٤ ؛ ابن الشحنه ، روضة المناظر ، ورقة ٧٢ ؛ ابن شاهنشاه الايوبي ، مضمار الحقائق ، ص ١٥٣ ـ ١٥٤ ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٩ ـ ٣٠ •

الملك المظفر تقي الدين عمر ، الذي حل محل الملك العادل بها ، وبصحبته القاضي الفاضل ، على رأس جيش مصر للمشاركة في ذلك الحصار ، كما جاءه من المشرق أخوه الملك العادل بعساكر حلب ، ونور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وآمد (١) . فلما تكاملت استعدادات صلاح الدين سار حتى أتى حصن الكرك ، وفرض عليه حصارا شديدا ، ونصب عليه " تسعة منجنيقات صفا " حتى تمكن بواسطتها من هدم السور المقابل لها ، حتى لم يعد يمنعه من الوصول الى الحصن الا الخندق الذي أخذ يعمل على طمه لتحقيق غرضه . فلما رأى الصليبيون هناك ما دهمهم ، خافوا أن يملكه صلاح الدين وبعثوا يطلبون النجدة من ملوكهم وفرسانهم ، بعد أن أدركوا عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن . فلما سمع صلاح الدين بمجيء الصليبيين ورأى أنه لا يتمكن منهم في ذلك الوقت " ولا يبلغ غرضه " (٢) فعزم على العودة الى دمشق . وفي طريق عودته ، استغل تجمع الصليبيين على الكرك وأغار على نابلس وجينين وسبسطيه (٣) .

وعلى وجه الاجمال فان هذه الهجمات المتتالية التي شنها صلاح الدين على حصن الكرك ، لم تلبث أن آتت ثمارها عندما أدرك ارناط نفسه أنه لم يعد قادرا على تحمل تلك الضربات التي كان يتلقاها من صلاح الدين ، حيث بادر

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٧ ؛ المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٨٤ .
(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٧ — ١٥٨ .
(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٦٦ — ٦٧ ؛ سبط ابن الجوزي مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٨٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٥٧ — ١٥٨ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٧٨ — ٧٩ .

الى طلب الصلح فهادنه صلاح الدين ، وأخذت القوافل الاسلامية تتردد بين مصر والشام فى أمان تام (١) .

والواقع أن هذه الهدنة التى كانت معقودة بين المسلمين والصليبيين ، والتى اضطر ارناط الى الدخول فيها مجددا قد حققت فائدة كبيرة لارناط نفسه وذلك بما كان يفرضه على تلك القوافل التى تمر بتلك المنطقة من ضرائب ومكوس (٢) .
الا أن هذا الامير الصليبى الذى عرف بغدره وخيانته لم يلبث أن نقض تلك الهدنة مرة أخرى ، وأنقض فجأة على قافلة اسلامية متجهة من مصر الى الشام فى سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م فغدر بها . وذكر له من بها من المسلمين الهدنة التى بين المسلمين والصليبيين ، فلم يعر ذلك انتباها بل تمادى فى غيه وقال لهم " قولوا لمحمدكم يخلصكم " (٣) وأسر من بها من المسلمين ، واستولى على أموالهم ودوابهم وسلاحهم ، وأودعهم سجون الكرك (٤) .

أما صلاح الدين فانه لما بلغه ما فعله ارناط ، أراد أن يعالج الوضع بروية وحكمة ، فبعث الى ارناط يوبخه على ما فعل ، ويقول له " اين العهود والمواثيق " . ويبدو أنه قصد بذلك التصرف الحكيم ، التوصل الى اطلاق سراح

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢٧ ــ ٥٢٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٥ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٠٥
(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٩٧ .
(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٣ ــ ٣٤ .
Lane-Poole, op. cit., p. 99
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ص ٥٢٨ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٨٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

تلك القافلة الاسلامية التي غدر بها ارناط ، والتي وصفها ابن الأثير بانها " قافلة عظيمة غزيرة الاموال وكثيرة الرجال ، ومعها جماعة صالحة من الاجناد "(١) .

الا أن ارناط لم يصغ لذلك وتمادى في غيه ، وأبى أن يطلق سراح الاسرى والأموال وأصر على خرق الهدنة ، وشن الغارات على المسلمين . الامر الذي أكثر من غيرة صلاح الدين فنذر دمه ، وأعطى الله عهدا أن ظفر به أن يستبيح دمه(٢) . وهنا يذكر أن ارناط ندم على رفضه ذلك ، عندما سمع أن صلاح الدين ، أقسم على انه سوف يقتل من نقض الهدنة بيده(٣) .

استعدادات صلاح الدين العسكرية قبيل معركة حطين :

وبهذا التصرف الشائن من ارناط الصليبي ، انقضت تلك الهدنة المعقودة بين صلاح الدين وملك مملكة بيت المقدس ، وكان هذا الأمر يمثل خطرا جسيما على مملكة بيت المقدس ، التي كانت تمر بظروف سيئة . ولعل محاولة جاي لوزجنان (Guy de Lusignan) الذي ولي مملكة بيت المقدس في سنة (١١٨٦م) الزام ارناط ـ الذي لم يستجب لرجائه ـ بالكف

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢٨ ، ويبدو من هذا النص الذي أورده ابن الأثير والذي ذكر فيه أنه كان مع القافلة " جماعة صالحة من الاجناد " أن صلاح الدين لم يكن يثق فيما تم بينه وبين ارناط من مهادنة بل كان يبعث مع كل قافلة تعبر منطقة الكرك جماعة مختارة من الاجناد تحسبا لذلك (أنظر سعيد عاشور) ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٩٨ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢٨ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ص ٧٥ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٨٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٥ ؛ ابن ايبك الدواداري ، الدر المطلوب ، ص ٥١ ، ابو الفدا ، المختصر ، ص ٧١ .

(٣) Lane, poole, on. cit., p. 199.

عن انتهاك الهدنة واصلاح ما أفسده خير دليل على ذلك (١) .

أما صلاح الدين ، فقد أدرك نتيجة اصرار ارناط على ممارسة سياسة الغدر والخيانة ، وعجز ملك مملكة بيت المقدس عن ايقافه عند حده ، حتمية اعلان الجهاد الاسلامى ضد الوجود الصليبى فى بلاد الشام بأكملها فأرسل الى سائر الاطراف يطلب العساكر ويستنفر الناس للجهاد ، فكتب الى الموصل ودي ار الجزيرة وأربل وغيرها من بلاد المشرق ، والى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم الى الجهاد ويحثهم عليه . وخرج هو بنفسه من دمشق على رأس عسكره الخاص ، فسار حتى نزل رأس الماء بمرج عكا ، وهناك لحقت به العساكر الشامية ، ثم أمر ولده الافضل عليا بالبقاء هناك ومعه بعض العسكر لتجتمع عنده الامدادات والمؤن والنجدات . وسار هو الى بصرى ، حيث أقام يرتقب وصول الحاج خوفا عليهم من غدر البرنس ارناط (٢) . فلما أطمأن على وصول الحاج سليما ، سار الى الكرك ، وهاجمها وقطع ما حولها من الشجر وأفسد زرعها وكرومها ، ثم سار الى الشوبك وفعل به مثل ذلك (٣) .

ويبدو أن صلاح الدين قصد بهذه الغارة السريعة على حصنى الكرك والشوبك اشغال الصليبيين هناك عن اعتراض طريق الجيش المصرى الذى كان

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٥ ؛ الباز العرينى ، الشرق الأدنى ، فى العصور الوسطى ، القسم الأول ، الايوبيون ص ٨٠ ، ارنست باركر ، الحروب الصليبية ، ص ١٨٠ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢٩ – ٥٣٠ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٩٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ؛ النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٦ ، ورقة ١٢١ – ١٢٢ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٠ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .

فى ذلك الوقت يأخذ طريقه الى بلاد الشام ، والذى استطاع بالفعل اجتياز تلك المنطقة (١) ليقف جنبا الى جنب مع الجيوش الاسلامية التى قدمت من المشرق الاسلامى ، ومختلف بلاد الشام تلبية لدعوة الجهاد الاسلامى التى وجهها صلاح الدين فى ذلك الوقت . هذا فضلا عن أن هجوم صلاح الدين على حصنى الكرك والشوبك يؤدى الى تأمين وصول الامدادات والمؤن اللازمة من مصر لقتال الصليبيين ، خاصة اذا علمنا أن مدن وموانىء الساحل الشامى كانت لا تزال حتى ذلك الوقت تخضع بكاملها للسيطرة الصليبية ـ الأمر الذى يحد من نشاط الاسطول الاسلامى ، ولا يدع له مجالا للقيام بنقل تلك الممدات والمؤن من الموانىء المصرية عبر البحر المتوسط الى بلاد الشام .

وفى الوقت الذى كان فيه صلاح الدين يعمل جاهدا لتكوين قوة عسكرية مزودة بالمؤن والعتاد ، استعدادا لخوض معركة فاصلة ضد الصليبيين ، كان يتجنب الاشتباك مع الصليبيين فى أكثر من جهة واحدة ، ولا يمكن عدوه من تعبئة قواه وتوحيد صفوفه ردا على تعبئة القوات الاسلامية . فأرسل فى سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م الى أهل حلب يأمرهم بمصالحة بوهيمند الثالث أمير انطاكية ليتفرغ لجهاد الصليبيين من جانب واحد (٢) .

كما عمد صلاح الدين الذى عرف بمهارته العسكرية أيضا الى استغلال

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٠ ، العماد ، الفتح ، ص ٦٠ .
(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٥ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٨٠ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٠١ .

تلك الظروف العصيبة التى كانت تمر بها مملكة بيت المقدس عقب تتويج جاى لوزجنان الذى تنازلت له زوجه عن الحكم وأصبح ملكا لبيت المقدس ، بعد أن خلعت التاج عن رأسها ووضعته على رأسه قائلة " زوجى أقدر وهو أحق بالملك وأجدر " (١) . وفشل القومص ريموند الصنجيلى أمير طرابلس فى الفوز بذلك المنصب، عندما رفض فرسان الداوية استقلاله بالحكم ، وطالبوه بالعمل بالوصية التى كانت تقضى له بحق الوصاية فقط . الأمر الذى جعله يلقى بنفسه بين أحضان صلاح الدين طالبا منه مساعدته ضد ملك بيت المقدس والداويه . وأجاب صلاح الدين نداءه وأمده بالمعونة اللازمة وبذلك استطاع أن يضم اليه حليفا جديدا من الصليبيين ، مكونا بذلك ثغرة كبيرة فى صفوف الصليبيين (٢) .

وبالفعل فقد أوشك الصدام المسلح أن يحتدم بين الملك جاى وبين ريموند ، حيث عسكر ريموند فى طبرية ، وأقام هناك فى زى المتطاول المتفاخر بعد أن ضم حوله عددا كبيرا من الصليبيين " وحث العزم السلطانى على قصدهم ليرد اليها لملك " . كما قام ملك بيت المقدس أيضا بحشد جيش عظيم لمهاجمة طبرية ، لولا تدخل بعض الامراء لتهدئة الموقف، ومطالبة الطرفين بالاتحاد لمواجهة ذلك الاستعداد الهائل الذى أعده صلاح الدين لهم . الأمر الذى أضطر الملك لوزجنان الى السير بنفسه الى القومص ريموند الصنجيلى

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ٦٧ ــ ٦٨ .

(٢) العماد ، الفتح ، ص ٦٧ ــ ٦٨ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢٦ ــ ٥٢٧ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٤ ــ ٧٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٤ ــ ١٨٥ ؛

لاسترضائه ومصالحته (١) . وعلى الرغم من ذلك فانه يمكن القول بأن صلاح الدين قد جنى من جراء تدخله فى شئون الصليبيين بمساعدة أحدهما على الآخر ، ثمارا كثيرة أهمها ذلك الاختلاف الكبير فى وجهات النظر بين ريموند الصنجيلى وبعض الامراء الصليبيين وفى مقدمتهم ارناط صاحب حصن الكرك . ولعل هذا الأمر هو السبب الذى جعل المؤرخ ابن الاثير يصف هذا التحالف بين صلاح وريموند الصنجيلى رغم قصر مدته بأنه « من أعظم الاسباب الموجبة لفتح بلادهم ، واستنقاذ البيت المقدس منهم » (٢)

كما يمكن القول بأنه لا يستبعد أن يكون صلاح الدين ، باتباعه سياسة اللين والحكمة قبل ذلك مع ارناط صاحب حصن الكرك ، ومطالبته اياه باطلاق سراح الأسرى ، ورد أموالهم دون اللجوء الى استخدام القوة — كان له الأثر الأكبر فى ادخال الخلاف وعدم الثقة بين ملك بيت المقدس وارناط الذى لم يستجب لرجائه باحترام الهدنة المعقودة مع صلاح الدين (٣) . ولابد أن يكون الملك الصليبي قد أصبح يتشكك فى نوايا ارناط وطمعه فى الانفراد بحكم تلك المناطق ، وان كلا منهما بات حذرا من الآخر .

وفى ربيع الأول سنة ٥٨١هـ/يونيه ١١٨٥م أرسل الامبراطور البيزنطى

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ٦٨ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦ ؛ أنظر أيضا . Lane-Poole, op. Cit., p. 200

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢٧ .

(٣) أنظر ما سبق . ١٨٧ — ١٨٨ .

أندرونيكوس (Andronicus) سفارة الى صلاح الدين يستعيد ما كان بينهما من صداقة قديمة ، ويقترح عقد تحالف معه . واقترح على صلاح الدين أن يتم فتح فلسطين ، وأن تقسم بينهما على أن ينال البيزنطيون بيت المقدس ، والمدن الساحلية ما عدا عسقلان ، واذا تم الاستيلاء على آسيا الصغرى والقضاء على دولة سلاجقة الروم ، فلابد أن تعود الى الدولة البيزنطية حتى انطاكية وأرمينية . وفى مقابل ذلك ، وعد الامبراطور البيزنطى صلاح الدين المساعدة فى نزاعه ضد الصليبيين فى الشام . ورد صلاح الدين على هذه السفارة غير معروف ، ومن المحتمل أن هذه الاقتراحات حازت القبول الى حد ما . وقبل وصول رد صلاح الدين الى القسطنطينية ، عزل اندرونيكوس فى ١٢ سبتمبر ١١٨٥م لفشله فى سياسته الخارجية ، فضلا عن مشكلات أخرى واجهت الدولة البيزنطية . وأستقبل الامبراطور البيزنطى الجديد اسحق الثانى رد صلاح الدين وذلك الرد يحتمل أنه أحتوى على رفض صلاح الدين لدعوى بيزنطة فى السيادة ويحتمل أيضا أن صلاح الدين وضع اقتراحات أخرى (١) .

ولا شك أن التحالف مع صلاح الدين كان هو ركن الزاوية فى سياسة بيزنطه الخارجية فيما بين سنتى ١١٨٥م - ١١٩٢م غير أن الآثار السيئة لمشروع تحالف الدولة البيزنطية مع المسلمين ، أساء الى سمعه بيزنطه ، فقد أنزعج الصليبيون فى بلاد الشام من هذا التحالف ، وأخذ أمبراطور المانيا فردريك بروسا يحث البابا على الدعوة الى حملة صليبية ضد البيزنطيين (٢) . ويحتمل

---

1) Brand: The Byzantines. And Saladin., speculum, Vol., 37(1962), p.p. 168-169.

2) Brand. op. cit, p.p. 178-180.

أن أشاعة ذلك التحالف بين المسلمين والبيزنطيين كان هو السبب الذى دفع الصليبيين فى بلاد الشام الى اعتقال الكسيوس انجيلوس أخى الامبراطور البيزنطى اسحق انجيلوس الذى مر بعكا فى طريقه الى القسطنطنية عائدا من بلاط صلاح الدين ، حيث قبض عليه كونت طرابلس وسجنه ، الأمر الذى أثار غضب الامبراطور البيزنطى ، وجعله يبعث الى صلاح الدين يحرضه على مهاجمة الصليبيين (١) . وكان تفضيل ريتشارد قلب الاسد ، وفيليب أغسطس ، والحملات الصليبية التالية اتخاذ البحر الى بلاد الشام ، يرجع بالدرجة الأولى الى صلات الامبراطور البيزنطى بالمسلمين ، وهى صداقة بين صلاح الدين والبيزنطيين لم يهتم بها صلاح الدين الاهتمام الكافى (٢) .

وقعة صفورية :

وفى الوقت الذى كان صلاح الدين فيه معسكرا بالقرب من حصنى الكرك والشوبك لحماية الحاج من اعتداءات الصليبيين ، عمد الى ارسال قوة استطلاعية انتخب أفرادها انتخابا ، وأسند قيادتها الى مظفر الدين كوكبورى صاحب حران ، وبدر الدين ولدرم بن ياروق أمير عسكر حلب ، وصارم الدين قايماز النجمى أمير عسكر دمشق ، لتقوم بالاغارة على ممتلكات العدو ، لاضعاف معسكراته وكشف مخططاته ، فسارت هذه السرية المدججة بالسلاح

---

1) Ehrenkreutz, Saladin, P.P. 198-200.

2) Brand, op. Cit. P.P. 180 .

والعماد ، باتجاه صفوريه . وقد حرص قواد ها على أن يكون سيرها على قـدر كبير من السرية والخفاء ، فكان سيرهم اليها فى الجزء الأخير من الليل ، على أن يكون هجومهم عليها فى الصباح الباكر . وبالفعل فقد نفذت تلك الخطـة بدقة تامة « وصبحوا صفورية وساء صباح المنذرين » (١) .

أما الصليبيون الذين كانوا ينعمون بنوم هادئ فى ذلك الوقت ، فانهم قد استيقظوا على أصوات السيوف والرماح ، وأسرعوا الى لم شعثهم وتجميع قواهم لمواجهة ذلك الهجوم الاسلامى المفاجئ . والتقى الجمعان ، ودارت بينهما معركة رهيبة ، انتهت بانتصار اسلامى مظفر ، وسقط معظم الصليبيين بين قتلى وأسرى ، وكان من جملة القتلى ، مقدم الاسبتاريه ، وعدد كبير من من أبرز فرسانهم ونجا مقدم الداوية بصعوبة بالغة (٢) . ومما زاد الطين بلة أنـه عندما تجرأت قوة صليبية أخرى على الاسراع الى صفوريه لنجدة أخوانهم كانـت المعركة قد انتهت ، فأسر المسلمون تلك النجدة عن آخرها . وعاد المسلمون من هذه المعركة سالمين غانمين (٣) . وكان انتصارهم فى هذه المعركة « باكـورة البركات ومقدمة ما بعدها من ميامين الحركات » (٤) .

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ٦٢ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٥ .

(٢) العماد ، الفتح ، ص ٦١ ــ ٦٢ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٥ ــ ٧٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٧ ؛ التاريخ الصالحى ، ورقة ٢٠٣ أ ــ ب ، ابن الراهب تاريخ ابن الراهب ، ص ٦١ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٧ .

(٤) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦ ؛ حسنين ربيع ، جهاد صلاح الدين الايوبى ضد الصليبيين ، رسالة المجد ، العدد الرابع (ربيع الأول ١٤٠١ هـ / يناير ١٩٨١ م) ، ص ١٨٧ .

وهكذا كبد المسلمون الصليبيين خسائر فادحة فى الأرواح والعتـــاد • وألقت هذه المعركة الرعب فى قلوب الصليبيين ، وجعلتهم يدركون خطـــورة ذلك التجمع الاسلامى الرهيب الذى أعده صلاح الدين لجهادهم •

ونستنتج من هذا الانتصار الذى حققته هذه السرية الاسلامية على تلـك القوات الصليبية فى صفوريه ، أن المسلمين عندما آمنوا بالجهاد وأحيـــوا سيرته الاسلامية الأولى ، وآمنوا بضرورة القضاء على الصليبيين ، لم تهمهم قـوة صليبية كبيرة ، لأن الايمان بالله وحب الاستشهاد فى سبيله الذى ملأ قـلوب الرجال المسلمين هو الذى دفعهم الى تحقيق هذا النصر •

معركة حطين ونتائجها :

استبشر صلاح الدين الذى كان آنذاك يعسكر بالقرب من حصن الكـرك يترقب وصول الحاج ــ بذلك النصر الذى حققته تلك السرية الاسلامية فى معركة صفوريه • فترك الكرك والشوبك ، وسار مسرعا على رأس جيشه فى اتجاه العدو ، وعسكر فى عشترا (١) • واجتمعت حوله العساكر الاسلامية باعداد هائلة حـــتى « غص بها القضاء » على حد قول ابن واصل (٢) • وفى عشترا قام بعرض عسكره ، فكان فى أثنى عشر ألف مقاتل (٣) • ثم رتب جيشه طبقا لنظام المعركة المعتــاد ،

(١) عشترا :ــ موضع بحوران من أعمال دمشق (أنظر ، ياقوت معجم البلدان) •
(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٧ •
(٣) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكـروب ، ج ٢ ، ص ١٨٧ •

فجعل ابن أخيه تقى الدين عمر فى الميمنة ، ومظفر الدين كوكبورى فى الميسرة وكان هو فى القلب ، وبقية الجيش فرقة على الجناحين ، استعدادا للحرب (١) .

وردا على ذلك التجمع الاسلامى العظيم ، فان الصليبيين لما سمعوا باجتماع كلمة الاسلام عليهم ومسير ذلك الجيش الاسلامى اليهم ، علموا أنه قد جاءهم ما لا عهد لهم بمثله ، وان كيانهم زائل لا محالة ، فاجتمعوا واصطلحوا ، وحشدوا وجمعوا ، وانتحوا " فصالح القومص الملك جاى ، بعد أن دخل عليه ورمى بنفسه عليه (٢) . ومن ثم أصدر الملك جاى الأمر بالتعبئة العامة ، ومعنى ذلك أنه لابد أن يتقدم لحمل السلاح كل الرجال القادرين ، ولا يلجأ الملك الى ذلك الا عند الضرورة القصوى (٣) . وحشد الصليبيون حشودا كبيرة ، ورفعوا صليب الصلبوت ، لتجتمع الناس حوله ، وقد اكتملت عدة ذلك الجيش بعد أن تم توزيع الأموال التى بعثها ملك انجلترا هنرى الى الملك جاى ، والتى أمر بانفاقها على الرجال . أما بالنسبة لتقدير عدد الجيش الصليبى الذى ظل معسكرا فى صفوريه بعد هزيمته من تلك السرية الاسلامية ، فان المؤرخين المعاصرين ذكروا أن عدده بلغ " زهاء خمسين ألفا أو يزيدون " (٤) . ولكن يبدو أن فى ذلك مبالغة كبيرة ، ويرجح ما ذهب اليه أحد الباحثين من أنه ليس من

---

(١) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٢ ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ١٧٤ .

(٢) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦ .

(٣) الباز العرينى ، الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ص ٨٤ .

(٤) العماد ، الفتح ، ص ٧٤ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦ ؛ أنظر أيضا ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٠ .

السهل تقدير عدد الجيش اللاتيني ، وأن من المرجح أنه يبلغ عشرين ألفا (١) .

ومهما يكن من أمر فان صلاح الدين لما علم باجتماع الصليبيين في صفورية عقب هزيمتهم من السرية الاسلامية في هذا المكان ، استشار قواده فيما يفعل ، فأشار أكثرهم بترك اللقاء ، واتباع الطريقة السابقة من اغارات متكررة ، وتكبيد العدو خسائر حتى تضعف مقاومته ، ومن ثم انزال الضربة القاضية بالصليبيين . وأشار الفريق الآخر بالتوغل في بلاد الصليبيين ، والاشتباك معهم في معركة فاصلة (٢) . وهنا تبدو لنا حنكة صلاح الدين العسكرية ، اذ اختار الخطة الثانية القائمة على الاشتباك مع العدو في معركة فاصلة ، اذ يظهر أن صلاح الدين أدرك أن معظم القوات التي تجمعت عنده في ذلك الوقت جاءت من أماكن بعيدة من مصر ودمشق وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر وغيرها ، وأن هذه العساكر القائمة على نظام الاقطاع الحربي -كما سبق أن رأينا - لها التزامات في اقطاعاتها ، الأمر الذي قد يدفعها بعض الاحيان الى طلب الاستئذان منه والعودة لقضاء حوائجها (٣) . هذا بالاضافة الى أن صلاح الدين ربما قصد باتباع تلك الخطة ، استغلال ذلك الانشقاق الذي حدث في صفوف الصليبيين ، نتيجة وفاة الملك بلدوين الخامس ، وتتويج الملك جاي لوزجنان ، والذي عده أحد الباحثين ، سببا حرمت من أجله مملكة بيت المقدس من معونة أقوى امارتين صليبيتين بالشام

---

(١) الباز العريني ، الشرق الادنى في العصور الوسطى ، ص ٨٤ .
(٢) ابن الاثير ، ج ١١ ، ص ٣٢ ، ٥٣٣ هـ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٠٦ .
(٣) أنظر ما يلي الفصل الخامس ص

هنا امارة طرابلس ، وامارة انطاكية (١) •

وهكذا أصبح الموقف بين صلاح الدين والصليبيين على أشده ، وبات الطرفان كل منهما ينتظر هجوما سابقا من الآخر • وهنا يبدو أن صلاح الدين الذى كان يتوق الى الاشتباك مع الصليبيين فى معركة فاصلة ، كان يدرك أن تمركزهم فى صفورية ، يعطيهم مكانة عظيمة فى القتال ، وذلك أن صفورية تعتبر من أحسن المواقع الملائمة لاقامة المعسكرات ، وذلك لما يتوافر بها من المراعى والمياه ، وغيرها من الموارد الطبيعية اللازمة لذلك (٢) • لهذا عمد الى استدراج الصليبيين الى المكان المناسب الذى يستطيع فيه انزال الهزيمة بهم • هذا بالاضافة الى أنه على الرغم من ذلك كان يريد أن يجبرهم على المسير اليه حتى يصلوا متعبين ، ويكون هو مدخرا جهده وجهد رجاله (٣) • لذلك أخذ صلاح الدين يعد عدته للقيام بعمل يستطيع اجتذاب الصليبيين من معسكرهم فى صفورية والنزول الى المكان الذى يختاره • فأخذ كل يوم يرسل جماعة من رجاله ، لمباغتة الصليبيين والنكاية بهم ، محاولا بذلك استدراجهم اليه ، غير أن تلك الغارات المتكررة ، لم تؤثر على الصليبيين ، فلم يتركوا عن مركزهم فى صفورية فرأى صلاح الدين الهجوم على طبرية ذاتها ، لأن الصليبيين متى

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٩٩ •

(٢) Lane-Poole, op. Cit. p. 206 ؛ ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٣٦ •

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٠٤ •

رأوا هجومه ذلك بادروا بالوصول اليه ، وبذلك يكون قد تحقق له ما قصده (١) .

وهنا يمكننا أن نتساءل لماذا خص صلاح الدين طبرية دون غيرها بهذا الهجوم ؟ ويبدو أن صلاح الدين أدرك أن وجود زوجة ريموند وأولاده في منطقة طبرية كفيل باثارة ريموند أمير طرابلس المشهور بشدة الغيرة (٢) . هذا بالاضافة الى أن صلاح الدين ، كان يعلم أن نزوله في ذلك الموضع يستطيع أن يوصد الطريق المؤدى الى طبرية ، ويسيطر في الوقت ذاته على الدروب التي تجتاز الحافة الشرقية الى طبرية وتنتهي الى الماء (٣) . في حين يبقى الصليبيون عند خروجهم من صفورية ، وتقدمهم اليه في منطقة وعرة لا تتوفر فيها المياه (٤) .

وفي يوم الخميس ٢٣ ربيع الآخرة سنة ٥٨٣هـ/ ٢ يوليه ١١٨٧م ، أصدر صلاح الدين أوامره الى الجانب الرئيسي من جيشه بالتقدم الى طبرية ومهاجمتها فنزل عليها ونقب بعض أسوارها وأخذها عنوة ، ولجأ من بها من الصليبيين الى القلعة وامتنعوا بها (٥) . وما كادت أخبار ذلك الهجوم تصل الى أسماع

---

(١) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦ .

(٢) الباز العريني ، الشرق الادنى في العصور الوسطى ، ص ٨٧ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، ص ١٨٢ .

(٣) الباز العريني ، الشرق الادنى في العصور الوسطى ، ص ٨٧ .

(٤)

(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٣ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٦ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦ ؛ العماد ، الفتح ، ص ١٩٣ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة ... ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٩٣ ؛ ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٩٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣١ ـ ٣٢ .

الصليبيين ، حتى جن جنونهم ، ودعا الملك جاى الى مجلس حرب ، فأشار بعضهم بالتقدم الى المسلمين وقتالهم ومنعهم من التوغل فى طبرية ، فى حين أشار ريموند صاحب طرابلس على الملك بالبقاء فى موضعه بصفوريه ، قائلا له :

" ان طبرية لى ولزوجتى ، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل ، وبقى القلعة ، وفيها زوجتى ، وقد رضيت بأن يأخذ القلعة وزوجتى ، ومالنا بها فيعود ، فوالله لقد رأيت عسكر الاسلام قديما وحديثا ، ما رأيت مثل ذلك العسكر الذى مع صلاح الدين كثرة وقوة ، واذا أخذ طبرية ، لا يمكنه المقام بها ، فمتى فارقها ، وعاد عنها أخذناها . وان أقام بها لا يقعد على المقام بها الا بجميع عساكره ، ولا يقدرون على الصبر طول الزمان . عن أوطانهم وأهليهم فيضطر الى تركها وتفتك من أسرنا "(١) . وهنا يبدو أن سياسة صلاح الدين فى ايقاع الخلاف فى صفوف الصليبيين قد آتت أكلها ، حيث لقى رأى ريموند هذا معارضة شديدة من كل من ارناط صاحب الكرك(٢) ، وجيرار مقدم الداويه(٣) ، الذين اتهماه بالخيانة والانحياز الى المسلمين . حيث رد عليه ارناط قائلا

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٣ ، ويلاحظ أن العماد وابن واصل ، قد ذكرا رأيا مخالفا لذلك ، حيث ذكرا أن ريموند عندما علم باستيلاء صلاح الدين على طبرية جن جنونه ، وطالب الصليبيين بالمسير الى طبرية ، وانقاذها من المسلمين ، وأنه بسقوطها تسقط البلاد كلها (أنظر العماد ، الفتح ، ص ٧٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ، أنظر أيضا سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٠٥ ، حاشية

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٣ .

(٣) Lane-Poole, on. Cit. p 208.

" قد أطلت في التخويف من المسلمين ، ولا شك أنك تريد هم وتميل اليهم " (١)

واستطاع أرناط وجيرار التأثير على الملك جاى الذى أصدر أوامر الى الجند بالمسير الى طبرية . وبدأ الجيش الصليبى زحفه من صفوريه يتقدمه ريموند في ظروف سيئة للغاية ، فروح الصليبيين المعنوية منحطة ، وجزء كبير منهم لم يكن من أنصار التقدم نحو طبرية ، فساروا مكرهين . (٢) هذا بالاضافة الى ما تعرض له ذلك الجيش الصليبى في طريقه من متاعب وخسائر بسبب الكمائن التى نصبها صلاح الدين لهم أثناء سيرهم ، فضلا عن حرارة الجو ، ووعورة الطريق وانعدام الماء . وازاء هذه الظروف القاسية حل بالجيش الصليبى أثناء سيره من صفورية الى طبرية ، انفصال كبير ، حيث لم تستطع مؤخرته مجاراة سير بقية الجيش والاتصال بالملك في الوسط . الأمر الذى اضطر الملك جاى الى اقامة معسكره قبل الوصول الى طبرية . على الرغم من تلك المحاولة التى قام بها ريموند أمير طرابلس الذى كان في المقدمة ، لحث الصليبيين على التقدم للوصول الى المياه . مما أدى الى تذمر ريموند من ذلك التصرف ، وادراكه بأن الهزيمة حاصلة لامحالة . (٣)

وفي الوقت الذى بلغ فيه الجيش الصليبى حالة كبيرة من الانهاك والتعب والانهيار ، كان جيش صلاح الدين يعسكر بالقرب من طبرية مملوءا بالثقة . وأخذ صلاح الدين الذى غمرته الفرحة بسبب نجاحه في استدراج الصليبيين اليه من معسكرهم الآمن في صفوريه يقول " جاءنا ما نريد ، ونحن أولوا بأس

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٣ .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٠٦ .

(٣)

شديد . فرتب رجاله في تلك الليلة ، وفرق عليهم الاسلحة ، وترك على طبرية (١) فرقة من جيشه ، وسار هو على رأس جيشه لملاقاة الصليبيين على سطح جبل طبرية المشرف على سهل حطين ، وهى منطقة على هيئة هضبة ترتفع عن سطح البحر أكثر من ثلثمائة متر ، ولها قمتان مما جعل العرب يطلقون عليه اسم قرون حطين . وبوصول الصليبيين الى تلك الهضبة كانوا قد بلغوا حالة سيئة من الانهاك والتعب ، وأشتد بهم العطش بعد أن حال جيش صلاح الدين بينهم وبين الوصول الى الماء . (٢)

التقى الجمعان على سهل جبل طبرية الغربى منها ، وحال الليل دون تصادمهما ذلك اليوم . (٣) وفى صباح الجمعة ٢٤ ربيع الآخرة ٥٨٣هـ/١١٨٧م تحرك الجيشان وتصادما بأرض تسمى اللوبيا ، وأستمر القتال الى أن حجز الظلام بينهما " وبات كل فريق فى سلاحه " . (٤) والواقع أن جيش صلاح الدين قضى تلك الليلتين ينعم بكافة الوسائل التى تعينه على القتال ، فقد كان يعسكر فى منطقة سهلة غنية بالمراعي والمياه . أما الجيش الصليبى ، فقد ازداد بلا شك خلال تلك المدة شقاء وانهاكا ، بسبب اقامة معسكره على منطقة وعرة جدا

---

(١) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٦ .
(٢) العماد ، الفتح ، ص ٧٨ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٤ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ج ٢ ، ص ٧٦ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٠٦ــ ٨٠٧ .
(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٦ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ٧٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٩ .
(٤) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨١ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ، واللوبيا :ــ أرض بالقرب من طبرية ، (أنظر العماد ، الفتح ، ص ٨٨ حاشية) .

عديمة المياه وفي جو شديد الحرارة . ويبدو أن صلاح الدين ، قد استغل توقف القتال تلك الليلة ، ليكمل استعداداته لمهاجمة العدو الذي لجأ الى سفح جبل حطين ، ليعصمهم من المهالك ، ومن ثم المبيت في جو معتدل يخفف عنهم شدة الحرارة والعطش . وعلى الرغم من أوامر الملك جاي التي كانت تقضي بأن يندفعوا الى أسفل التل ليؤدوا واجبهم نحو الصليب والعرش ، الا أنهم اعتذروا بشدة العطش ، وانهم لا يستطيعون الحرب (١) . فاستغل صلاح الدين ذلك ، ورتب جيشه ورسم له الخطط ، وأحاط بهم " احاطة الدائرة بقطرها " كما يقول ابن الاثير (٢) .

وفي الصباح الباكر من يوم السبت ٢٥ ربيع الآخر ٥٨٣هـ/ يوليه ١١٨٧م تقدم الجيش الاسلامي الذي أكمل استعداداته للمعركة الفاصلة ، وفي المقابل تحرك الجيش الصليبي واضعا في ذهنه الوصول الى طبرية لعله يرد الماء ، الا أن صلاح الدين ببراعته الحربية أدرك مقصدهم ، ووقف بعسكره في وجوههم . وأخذ صلاح الدين يداوف بين الصفوف يحرض الرجال على الجهاد ، ويأمرهم بما ينفعهم وينهاهم عما يضرهم ، وهم له طائعون (٣) . وبدأ الهجوم الاسلامي على الصليبيين ، فاستطاب المسلمون في القتال وشددوا هجماتهم على الاعداء مدركين " أن من ورائهم الأردن ، ومن بين أيديهم بلاد القوم ، وانهم لا ينجيهم الا الله تعالى (٤) " .

---

(١) Lane-Poole, on. Cit. p. 211.

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٥ .

(٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٦ .

وأمام ذلك الهجوم الاسلامى الرهيب ، أدرك الصليبيون أن نهايتهم قد حانت ، وأنه لا ينجيهم من صلاح الدين سوى الفرار أو الاستسلام . ولم يستطع النجاة سوى ريموند أمير طرابلس الذى ، رأى عجز الصليبيين عن مقاومة الجيش الاسلامى ، فاتفق مع جماعة من أصحابه وحملوا على من يليهم من المسلمين ، ففتح المسلمون لهم طريقا يخرجون منه ، وبعد خروجهم التأم الصف مرة أخرى .(١) ويبدو أن خروج ريموند تم بموافقة صلاح الدين ، الذى أصدر أوامره الى ابن أخيه تقى الدين عمر ، مقدم تلك الناحية التى حمل عليها ريموند ، وقصد صلاح الدين بذلك ادخال الضعف واليأس فى نفوس الصليبيين عندما يعلمون بهروب ريموند وجموعه . كما لا يستبعد أن يكون ذلك الأمر ، قد تم باتفاق بين ريموند وصلاح الدين ، بدليل أن بعض الصليبيين عندما تعرضوا لذلك الهجوم الشامل من المسلمين ، القوا أسلحتهم ، وجاءوا الى معسكر المسلمين مستسلمين .(٢)

ومما زاد الطين بلة ، أنه فى الوقت الذى تخلى فيه ريموند عن أبناء ملته ، كان بعض المتطوعة المسلمين قد اشعلوا النيران فى الاعشاب والاشواك اليابسة التى تكسو تلك المنطقة ، وكانت الريح تهب باتجاه الصليبيين " فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان ، وحر النار ، والدخان ، وحر القتال " . الأمر الذى اضطر معه الصليبيون الى التراجع الى أعلى الجبل ، وأرادوا أن ينصبوا

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٥ ؛ العماد ، الفتح ، ص ٧٩ .
(٢) أنظر ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٥ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٧ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨ . وابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩١ .

خيامهم ، ويحموا نفوسهم به ، فاشتد عليهم القتال من سائر الجهـــات ، ومنعوا عما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب خيمة واحدة سوى خيمة الملك (١) .

ويبدو أن صلاح الدين كان فى تلك المعركة الحاسمة يعمد الى القضاء على الصليبيين وادخال الوهن فى نفوسهم بكل الوسائل ، ولم يكن همه مقصـورا على القتال المباشر فقط بل كان يعمد الى أشياء يكون تأثيرها على العدو أكبر . والدليل على ذلك أنه بعد أن حصر الصليبيين فى أعلى جبل حطين ، ركـــز اهتمامه على الاستيلاء على صليبهم الاعظم الذى يسمونه صليب الصلبوت ، والذى يذكرون " أن فيه قطعة من الخشبة التى صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم " (٢) لأنه كان يعلم أن الاستيلاء عليه يعد أعظم سلاح لتحطيمهم نفسيا ومعنويا . وبالفعل فما أن تمكن من أخذه حتى حل بالصليبيين البوار وأيقنوا بالهـــلاك وتقدم المسلمون نحو قمة الجبل ، والصليبيون يتراجعون أمامهم ، ويتساقطـــون أسرى وقتلى ، حتى لم يبق مع الملك الصليبى الذى وصل الى أعلى التل ســوى فئة قليلة لا يتجاوز عددها مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين الشجعان (٣).

وذكر ابن الاثير على لسان الملك الافضل ابن صلاح الدين أن الصليبيين لما تراجعوا على رأس ملكهم الى أعلى التل حملوا حملة قوية على من بازائهم مـــن

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٥ ــ ٥٣٦ .
(٢) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة ، أنظر أيضا ابو شامه ، كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٨ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٦ ، ابوشامه ، كتاب الروضتـــين ، ج ٢ ، ص ٧٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩١ .

المسلمين ، وكادوا يزيلونهم عن أماكنهم ، الا أن المسلمين عادوا فردوا علــــى تلك الحملة ، واستطاعوا اعادة الصليبيين مرة أخرى الى أعلى الجبل • ممـــا جعل الملك الافضل يعبر عن فرحته بذلك النصر بقوله " هزمناهم " • وعـــاد الصليبيون مرة أخرى وحاولوا دحر المسلمين الذين ردوا عليهم بحملة أقــــوى أرجعتهم مرة ثالثة الى أعلى التل ، فعاد الملك الافضل وعبر عن فرحته بذلــك النصر مرة أخرى بقوله " هزمناهم " • وهنا تبدو لنا مهارة صلاح الدين الحربية وخبرته في ميادين القتال ، اذ كان يرى أن الهزيمة لن تتم على الصليبيين الا بسقوط قياداتهم قتلا وأسرا ، فأجاب ابنه قائلا " اسكت ما نهزمهم حتى تسـقط تلك الخيمة " يقصد خيمة الملك • ثم أخذ فى تشديد هجماته ، وما هـــى الا لحظات حتى سقطت تلك الخيمة فنزل الملك الافضل وسجد على الارض شكرا للـــه تعالى وبكى من فرحه (١) •

والواقع أن ما فقده الصليبيون فى هذه المعركة من قتلى وأسرى يعتبر من أفدح الكوارث التى حلت بهم • وما ورد من اشارات الى عدد القتلى يشوبــــه الخلط والاضطراب • والواقع أنه لم ينج الا عدد قليل من المحاربين ، بالاضافـة الى من نجا من جند المؤخرة بقيادة باليان ابلين ، وريجنالد صاحب صـــيدا ، أو جند المقدمة بقيادة ريموند صاحب طرابلس (٢) • أما معظم أفراد الجيش الرئيسى

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٦ •
(٢) أنظر Lane-Poole. on Cit.P214 ؛ الباز العرينى ، الشــرق الادنى فى العصور الوسطى ، ص ٩٨ •

بقيادة الملك جاى لوزجنان فقد تساقطوا فى أيدى المسلمين قتلى ، وأسرى ، وكان على رأس الأسرى الملك جاى ، وارناط صاحب الكرك وأوك صاحب جبيل ، وهنفرى بن الهنفرى صاحب تبنين ، وابن صاحبة طبرية ، وجيرار مقدم الداوية ، ومعظم من نجا من الاسبتاريه ، وغيرهم من أكابر الصليبيين .(١)

ثم أمر صلاح الدين ضربت له خيمة ، نزل فيها وصلى لله تعالى شكرا على هذه النعمة التى درج الملوك من قبله على تمنى مثلها ، وماتوا بحسرتها .(٢) ثم أحضر ملوك الصليبيين ، وقد ميهم واستقبلهم استقبالا حسنا . وأجلس الملك جاى الى جانبه ، وأجلس البرنس ارناط صاحب الكرك الى جانب الملك . وبادر صلاح الدين بتقديم أناء به ماء مثلج للملك جاى ، فشرب منه ، وأعطى ما تبقى لارناط فشرب . وعندئذ غضب صلاح الدين من ذلك ، وخاطب الملك مؤكدا له بأن ارناط لم يشرب الماء بأذنه فينال أمانه . ثم التفت اليه وذكره بجرائمه وخيانته وقال له " كم تخلف وتهكث ؟ " فقال الترجمان عنه أنه يقول " قد جرت عادة الملوك بذلك "(٣) فأوقفه السلطان صلاح الدين وقال له " هانذا استنصر لمحمد " ثم عرض عليه الاسلام فأبى ، فاستل صلاح الدين سلاحه وضربه فحل كتفه ، وتمم عليه من حضر . وقال(٤) " كنت نذرت دفعتين أن أقتله ان ظفرت به ،

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٧ ؛ العماد ، الفتح ، ص ١٩٦ ــ ١٩٧ ؛ ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

(٣) ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ؛ أنظر سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٣٩٣ ــ ٣٩٤ .

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٨ ــ ٧٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .

احداهما لما أراد المسير الى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القفل غدرا » (١)

ولما رأى ملك بيت المقدس تجاى لوزجنان ذلك المنظر ، خاف ، وظن أن صلاح الدين سوف يثنى به ، ولكن السلطان استحضره ، وطيب قلبه ، وقال لــه « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ، أما هذا فانه تجاوز حده ، فجرى ما جرى » (٢).

ثم أحضر صلاح الدين الداويه والاسبتاريه ، وعرض عليهم الاسلام فمن أسـلم استبقاه ومن أبى أمر بقتله (٣). والجدير بالذكر أنه ليس من المعروف تماما لمـاذا أفرد صلاح الدين فرسان الداوية والاسبتاريه بالقتل دون غيرهم من الأسرى .

وربما كان سبب ذلك ما ذكره ابو شامة من أن صلاح الدين ، قال « أنا أطهـر الارض من هذين الجنسين النجسين ، فما جرت عادتهما بالمفاداة ، ولا يقلعان عن المعاداة ، ولا يخدمان فى الاسر ، وهما أخبث أهل الكفر » (٤) ومن المعروف أن فرسان هاتين الهيئتين ، قد تنكروا للمبادئ التى كرسوا حياتهـم لخدمتها ، فخلعوا زيهم الدينى الاسود ، واتشحوا بالوشاح العسكرى الابيض والشارة الصليبية الحمراء ، وأصبحوا فى زمرة المحاربين ، وأمتلك كل منهـم ثلاثة من الخيل ، وغلاما يتبعه ، وصار منهم قادة عظام يحملون الألقاب والرتب

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٧ ؛
(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٩ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ؛ أنظر أيضا ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٩ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٣٩٤ ؛ ابن خلكان وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ١٧٧ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٣٩٤ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩٦ .
(٤) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٩ ؛ ويذكر ابن الاثير فى كتابه الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٨ أن ذلك لانهم « أشد شوكة من جميع الفرنج » .

العسكرية ، ويجيدون حبك سياسة الغدر بالمسلمين ، ونقض العهود والمواثيق. وكان هدف فرسان هاتين الطائفتين الأول والأسمى طعن الاسلام ، وانتهاك حرماته بشتى الوسائل مهما كلفهم ذلك من ثمن (١) .

أما بقية الاسرى ، فقد أمر صلاح الدين ، بأن يساقوا الى دمشق حيث أحتيط على الامراء ، وبيع عامة الفرسان والجند الصليبيين فى الاسواق بأثمان زهيدة (٢) . ودخل القاضى ابن عصرون دمشق وصليب الصلبوت منكس بين يديه ، وعاد السلطان الى طبرية (٣) .

أما ريموند الثالث أمير طرابلس ، فانه لما نجا من المعركة – كما سبق أن ذكرنا – وصل الى صور ، ثم قصد طرابلس ، ولم يلبث الا أياما قليلة ، حيث مات بها غيظا وحنقا مما جرى على الصليبيين خاصة وعلى دين النصرانية عامة (٤) .

والواقع أن هذا الانتصار الحاسم الذى حققه صلاح الدين فى حطين ، راجع الى ما بذله من جهود فى الاعداد لها . حيث خاض تلك المعركة فى جيش قوى ، ومهارة حربية منقطعة النظير ، فضلا عن اختياره لمكان المعركة وزمن وقوعها ، حيث عسكر بجيشه على طبرية حائلا بين العدو وبين الماء ،

---

(١) نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٨٦ ؛ جيش مصر ، ص ٦٢ .

(٢) ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٢ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ١٩٤ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٩٤ ، والقاضى عصرون هو القاضى ابو سعد عبد الله بن أبى السرى محمد بن هبة الله بن على بن أبى عصرون الفقيه الشافعى الملقب شرف الدين ، تولى القضاء بسنجار ونصيبين وطرق وغيرهما من ديار بكر ثم وفد الى دمشق فى سنة ٥٧٠ هـ . فتولى القضاء بها ، توفى سنة ٥٨٥ هـ (أنظر ابن خلكان وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٥٣ – ٥٥) .

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٧ – ٥٣٨ .

كما أعلن جهاده في شهر يوليه الذي يعد أشد شهور السنة حرارة ، وأقلهـــا ماء في الصهاريج والغدران ، حتى أصبح العطش من أقوى الاسلحة بين يديه.(١)

وهكذا غدت ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام غداة موقعة حطين تحت رحمة صلاح الدين ، فشرع يفتح البلاد والمدن الواحدة تلو الأخرى. ولكي يصفـــى الوجود الصليبي من طبرية عاد اليها من حطين مباشرة ، وراسل زوجة ريمونـــد الثالث ، فأجابت الى التسليم "فأمنها هي ومن معها ، وندب اليها من تسلـــم منها الحصن بما فيه ، وخرجت بمالها ورجالها ونسائها الى طرابلس بلد زوجهـا ، وولى صلاح الدين على طبرية قايماز النجمى .(٢)

ويبدو أن الصليبيين عقب تلك المعركة ظنوا أن صلاح الدين سيتجـــه لا محالة الى الاستيلاء على بيت المقدس ، فلجأ من نجا من المعركة الى هناك . الا أن صلاح الدين خيب ظنهم فبدلا من أن يتجه الى بيت المقدس ليستولى عليه استيـلاء آمنا سهلا اذ به يتجه صوب عكا أولا . وهذا التصرف وبلا شك يعد مظهرا مـــن مظاهر عبقرية صلاح الدين الحربية وبعد نظره ، اذ اختار أن يبدأ أولا بالاستيلاء على المدن الصليبية الساحلية ليحرم الصليبيين من قواعدهم البحرية التي تربطهم بالعالم الخارجي ، وبخاصة الغرب الأوربي فيمسون محصورين داخل بلاد الشام ،

---

(١) نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربي المصرى ، ص ١٨٥ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٩ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٨ ؛ العماد ، الفتح ، ص ٨٥ ؛ أبو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٩ ؛ سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٩٤ ؛ ابـــن خلكان وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ١٧٧ ؛ Lane-Poole, on. Cit P. 218.

وبعد ذلك تتساقط فى يده المعاقل والمدن الصليبية فى الداخل . هذا فضلا عن أن استيلاء صلاح الدين على ذلك الشريط الساحلى سيمكنه من تحقيق الاتصال البحرى السريع بين شطرى دولته فى مصر والشام (١) . بالاضافة الى ما اشتهرت به مدن الساحل الشامى من خيرات بسبب نشاط التجارة بها . ولعل مما يؤيد ذلك ماذكره ابن شداد وابو شامه من أن صلاح الدين بدأ بمدينة عكا لأنها " كانت مظنة التجار " (٢) ، فضلا عن أن ذلك سوف يؤثر على ما يبدو على نفسيات الصليبيين داخل بيت المقدس ، بانقطاع أملهم فى وصول الامدادات اليهم ، فيجعل مقاومتهم بسيطة .

اتجه صلاح الدين بعد ثلاثة أيام من اقامته فى طبرية صوب المدن الساحلية ، وبدأ بمدينة عكا فوصلها يوم الاربعاء نهاية شهر ربيع الآخر ٥٨٣هـ/ يوليه ١١٨٧م ، بالقرب منها وراء التل ، ونصب عليها المنجنيقات ، وضيق عليها (٣) . ولما طلع فجر يوم الخميس مستهل جمادى الاولى ركب فى عسكره ووقف بازاء التل ، مصمما على الزحف والقتال . وبينما هو يرتاد موضعا للهجوم ، اذ خرج اليه كثير من أهلها يتضرعون ويطلبون الأمان ، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وخيرهم بين الاقامة والرحيل ، فأختاروا الرحيل . ودخل صلاح الدين

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٣١ ؛ الايوبيون والمماليك ، ص ٦٥ — ٦٦ ؛ نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٨٧ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٩ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٩ — ٨٠ .

بجيشه المدينة ، واستولى على ما فيها من الاموال والذخائر ، واطلق سراح من كان بها من أسرى المسلمين ، الذين يقال أن عددهم بلغ أربعة آلاف نفس.(١) ورتب في كنيستها العظمى منبرا ، وأقيمت فيه صلاة الجمعة ، وأقطع عكا لأبنه الافضل علي ، وأعطى ما للداويه من أقطاع وضياع للفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري.(٢)

وأثناء مقام صلاح الدين بعكا فرق عساكره لفتح المعاقل والمدن الساحلية القريبة من عكا ، فأستولوا على الناصرة وقيساريه وحيفا وصفوريه والشقيف وغيرها من البلاد المجاورة لعكا كما سير أيضا ابن أخيه الملك المظفر تقي الدين عمر ، فنزل على تبنين ليقطع الميرة عنها وعن صور ، وابن أخته حسام الدين بن لاجين الى نابلس ، فأتى حسام سبسطيه — وفيها قبر زكريا عليه السلام ، فأخذها من أيدي الصليبيين ، ثم واصل سيره الى نابلس فدخلها وحاصر قلعتها واستدرج

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ٨٩ ؛ ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٦ ؛ سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٣٩٤ — ٣٩٥ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ؛ ابن تغريبردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٥ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ؛ Lane-Poole, op cit. P. 219.

(٢) المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٩٤ ، وضياء الله عيسى الهكاري هو الفقيه ابو محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن احمد بن يوسف ابن القاسم . ينتهي نسبه الى علي بن أبي طالب رضي الله عنه . كان أحد الامراء الصلاحية أتصل الدين شيركوه ثم بابن أخيه صلاح الدين وخدمهما خدمة جليلة ، توفي سنة ٥٨٥هـ/ (أنظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٣ ، ص ٤٩٧) .

من بها بالأمان ، وتسلم القلعة (١) . كما قام الملك العادل فى الوقت نفسه بمهاجمة المدن الساحلية فى الجنوب ، فاستولى على حصن مجدل يابا ، ثم اتجه الى يافا وفتحها بعد حصار شديد (٢) .

وجه صلاح الدين همه بعد ذلك الى الاستيلاء على المعاقل والمدن الساحلية فى الشمال ، فبدأ بتبنين التى كانت على حصانة كبيرة ، بدليل أن تقى الدين ابن أخى صلاح الدين الذى كان قد سبقه اليها ، رأى أن حصرها لا يتم الا بوصول عمه صلاح الدين اليه ، فأرسل يعلمه الحال ، ويحثه على الوصول اليه . فسار صلاح الدين اليها فى ثامن جمادى الأولى ونزل عليها فى جمادى عشر سنة ٥٨٣هـ/يوليه ١١٨٧م ، وضايقتها بالزحف والخناق . فلما ضاق الأمر على من بداخلها من الصليبيين ، راسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان ، واستمهلوه خمسة أيام لينزلوا بأموالهم ، فأمهلهم بعد أن أخذ رهائن من مقدميهم ، كما تقربوا اليه باطلاق الاسارى من المسلمين . فلما أخلى الصليبيون البلد تسلمها صلاح الدين ، ووفى لهم وسيّرهم الى مأمنهم (٣) .

ولما فرغ صلاح الدين من تبنين سار الى صيدا ، واجتاز فى طريقه بصرفند (٤) ، فاستسلمت بدون قتال وواصل سيره الى صيدا ، التى ما أن علم صاحبها

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٩ ؛ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٩٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٠ ــ ٥٤١ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٧٨ ، سبط ابن الجوزى ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٥٩٣ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٩٤ ــ ٩٥ ، ومجدل يابا ويعدل ليابه قرية قرب الرملة فيها حصن محكم (أنظر ياقوت معجم البلدان) .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ج ١١ ، ص ٥٤٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٠٥ ــ ١٠٦ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٩٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٩٧ .

(٤) صرفند قرية من قرى صور على ساحل البحر المتوسط (أنظر ياقوت معجم البلدان) .

بمسيره اليها حتى هرب منها ، وتركها بدون مدافع ، وجاءت رسله بمفاتيحها الى صلاح الدين ، فتسلمها فى الحادى والعشرين من جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ أواخر يوليه ١١٨٧م (١). ثم سار صلاح الدين حتى أتى بيروت ، التى وصفها ابن الاثير بأنها من أحصن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها ، ووجد أهلها قد صعدوا على أسوارها (٢). فبدأ هجومه عليها يوم الخميس الثانى والعشرين من جمادى الاولى ، وضايقها بالزحف والقتال ، فقاومه من بها من الصليبيين مدة ، ثم طلبوا منه الآمان ، فأمنهم ، وتسلمها منهم يوم الخميس التاسع والعشرين من الشهر نفسه ٥٨٣هـ/ أوائل أغسطس ١١٨٧م (٣).

ولا شك أن المسلك المعتدل الذى سلكه صلاح الدين تجاه الصليبيين ، والقائم على اعطائهم الآمان متى طلبوه ، ساعده على الاستيلاء على كثير من المدن والموانىء الصليبية الساحلية والداخلية . كما أدى ذلك الى احتفاظ تلك الموانىء الساحلية بعناصرها النشيطة فى الميدان التجارى ، مثل البنادقة والجنويه والبيازنة وغيرهم ، مما أدى الى استمرار رواج الحياة الاقتصادية فى بلاد الشام (٤). يضاف الى ذلك أنه لا يستبعد أيضا أن يكون صلاح الدين

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ١٠٢ ــ ١٠٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٩٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة . ، ج ٦ ، ص ٣٥ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٢ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٢ ــ ٥٤٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٠٦ ، العماد الفتح ، ص ١٠٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٩٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٥ ،
Lane-Poole, on. Cit , P. 219

(٤) أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨١٤ ــ ٨١٥ .

بما عرف عنه من مهارة في ميادين القتال . الا أنه في الوقت الذي يعمل فيـــه جاهدا للسيطرة على هذه المدن والموانئ الساحلية ، قد وضع في اعتبـــاره ، تجنب انهاك جيشه وادخار قواه لاسترجاع بيت المقدس من أيدي الصليبيـــين . ولعل مما يؤيد ذلك ما فعله صلاح الدين ، عندما اتجه بعد ذلك نحـــو جبيل ، وتقدم اليه صاحبها الذي كان من جملة الأسرى في معركة حطـــين ، يعرض عليه استعداده لتسليم جبيل مقابل اطلاق سراحه . فرأى صلاح الدين أن ذلك سيريحه من عناء القتال ، فاستحضره من دمشق مقيدا ، فأمر حامية جبيل بالتسليم ، فوافق من بداخلها من الصليبيين على ذلك ، واستولى صلاح الدين عليها بدون قتال (١) .

ولما فرغ صلاح الدين الاستيلاء على بيروت وجبيل وغيرهما ، اتجه نحـــو مدينة صور ، ففرض عليها حصارا شديدا ، الا انه رأى أن أمرها غدا صعبا لما تتمتع به من حصانة ، ففضل الاتجاه نحو مدن الجنوب ، واختار أن يبدأ بمدينة عسقلان ، ذلك المركز الهام الذي طالما اتخذه الصليبيون قاعدة لتهديد مصر من ناحية ، وقطع طرق المواصلات بينها وبين الشام من ناحية أخرى (٢) . فسار بعسكـــره نحو عسقلان ، واجتمع بأخيه العادل ، الذي خرج من مصر على رأس عسكرهـــا .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٣ ، العماد ، الفتح ، ص ١٠٨ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٥ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٨٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ، ابن أيبـــك الدواداري ، الدر المطلوب ، ص ٥٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

ونازلها يوم الاحد الموافق السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٨٣هـ/أواخر أغسطس ١١٨٧م (١) • وتسلم فى طريقه اليها مواضع كثيرة كالرملة ويبنا (٢) وغيرها •

وهنا يبدو أن صلاح الدين أراد أن يدخر قوته لاسترداد بيت المقدس ، فضلا عما ذكر من أنه أدرك أن عسقلان ربما اتعبته بسبب قوة حصانتها واصرار حاميتها الصليبية على المقاومة (٣) • فأحضر الملك جاى لوزجنان وجيرار مقدم الداوية من دمشق ، وقال لهما « ان سلمتما البلاد الىّ فلكما الأمان » فأرسلا الى من بعسقلان من الصليبيين بأمرائهم بتسليم البلد ، الا أنهم لم يستجيبوا لأمرهما وردوا عليهما ردا قبيحا (٤) • فلما رأى صلاح الدين ذلك شرع فى نصب المنجنيقات عليها ، وبدأ قتالها والتضييق عليها ، والملك جاى يكرر عليهم المراسلات يطلب منهم التسليم ، ويعدهم أنه اذا أطلق أضرم البلاد نارا على المسلمين ، الا أنهم استمروا فى مقاومة صلاح الدين ، حتى نفدت مقاومتهم ، فراسلوا صلاح الدين ، وطلبوا منه الأمان ، فأمنهم وسلموا المدينة فى نهاية جمادى الآخرة ٥٨٣هـ/أوائل سبتمبر ١١٨٧م (٥) •

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩١ •

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٠ ، ويبنا بلدة قرب الرملة [أنظر ياقوت معجم البلدان] •

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨١٧ ـ ٨١٨ •

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ •

(٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٥ ـ ٥٤٦ ، العماد ، الفتح ، ص ١١٢ ـ ١١٣ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩١ ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٠ ، ابن خلكان وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ١٧٨ •

أما بالنسبة للملك جاى لوزجنان ، الذى خذله من بعسقلان من الصليبيين ، بعدم تسليمها للمسلمين مقابل اطلاق سراحه ، فيذكر أنه قد أرسل الى نابلس • وفى الوقت نفسه ، وافق صلاح الدين على ارسال رسالة الى زوجته سيبل التى كانت تقيم فى بيت المقدس ، لدعوتها للحضور الى نابلس للاقامة مع زوجها • وقد رحبت بتلك الدعوة ، وأسرعت الى نابلس لتقيم الى جانب زوجها الاسير جاى لوزجنان (١) • أما جيرار مقدم الداوية ، فيبدو أن صلاح الدين قد أطلق سراحه نظير ما أداه له من معونة لا سيما حثه حامية غزه على التسليم (٢) •

وخلاصة القول أن صلاح الدين بانتصاره الحاسم على الصليبيين فى معركة حطين وسيطرته التامة على مدن وموانئ الساحل الشامى ، ذلك الانتصار الذى ذهب ضحيته معظم قادة الصليبيين وزهرة فرسانهم ، فضلا عما تكبدوه خلال ذلك من خسائر مادية جسيمة ، لم يبق أمامه داخل مملكة بيت المقدس ، سوى بيت المقدس نفسه ، الذى بات من بداخله من الصليبيين فى عزلة تامة عن الغرب الأوربى والامارات الصليبية الاخرى ببلاد الشام • وأصبح الطريق ممهدا وسهلا أمام صلاح الدين لاسترداد بيت المقدس من الصليبيين •

---

(١) أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨١٩ ،
Lane-Poole, op. Cit P. 223.

(٢) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٧ – ٨٨ ، سعيد عاشور الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨١٨ •

الفصل الرابع

حصار واسترداد بيت المقدس .

- أحوال مملكة بيت المقدس بعد معركة حطين .
- استعدادات الصليبيين داخل بيت المقدس .
- خطة صلاح الدين العسكرية واستلام بيت المقدس .
- تسامح صلاح الدين فى معاملته لأسرى الصليبيين .
- إرسال البشائر والوفود الى أنحاء العالم الاسلامى .
- اصلاحات صلاح الدين فى بيت المقدس .

الفصل الرابع

حصار واسترداد بيت المقدس

أحوال مملكة بيت المقدس بعد حطين :

اتجه صلاح الدين فورانتصاره فى معركة حطين الى مدن الساحل الشامى ، فبدأ بالاستيلاء على عكا وما حولها من المعاقل والقلاع التى كانت تمثل حلقة الاتصال بين الشرق والغرب بالنسبة للصليبيين فى ذلك الحين • ثم اتجه بعد ذلك شمالا وجنوبا فأستولى على أهم المدن والمعاقل الصليبية هناك ، مثل بيروت وصيدا وجبيل وعسقلان وغيرها (١) • وبذلك يمكن القول بأن صلاح الدين باستيلائه على الشريط الساحلى الممتد من بيروت شمالا الى غزة جنوبا قد حكم على مملكة بيت المقدس بالعزلة التامة ، فلم يعد بامكان من بداخلها من الصليبيين الحصول على أية معونة من وطنهم الأم أى الغرب الأوربى • أما بالنسبة لامارتى طرابلس وانطاكية فلم يعد فى مقدورهما — عقب استيلاء صلاح الدين على بيروت وصيدا وجبيل وغيرها — مد يد المساعدة الى مملكة بيت المقدس ، التى أحاطت بها القوات الاسلامية من كل جانب ، وبات أسترداها مسألة وقت يختاره السلطان المنتصر صلاح الدين (٢) •

---

(١) أنظر ما سبق ، ص

(٢) Ehrenkreutz, Saladin, P. 204.

وكان من نتائج معركة حطين ، قتل وأسر معظم القادة الصليبيين في بلاد الشام ، وزهرة فرسانهم . ولا شك أن تلك الهزيمة المعنوية التي حلت بالصليبيين في معركة حطين بفقد قادتهم ، فضلا عن ذلك النقص الملموس في فرسانهم ، كان لها الأثر البالغ على مستقبل مملكة بيت المقدس . فقد أمست المملكة الصليبية في أشد الحاجة الى زعماء أقوياء يعملون على اعادة تنظيم شتات جموعهم التي تجمعت داخل تلك المملكة . هذا بالاضافة الى حاجة مملكة بيت المقدس في الدفاع عنها الى الفرسان الذين كانوا يمثلون عماد المعارك في ذلك العصر .

يضاف الى ذلك أن انتصار صلاح الدين في معركة حطين ، ثم استيلاؤه على مدن الساحل الشامي بعد ذلك ، قد كبد الصليبيين في بلاد الشام خسائر مادية جسيمة في العتاد والسلاح والتموين ، خاصة اذا علمنا أن معظم عسكرهم عندما حلت بهم الهزيمة في حطين ، ونتيجة لشدة الحرارة والعطش ، نزلوا عن خيولهم والقوا أنفسهم على الأرض في يأس شديد وغنم المسلمون أسلحتهم وعتادهم . (١) وانعكس أثر ذلك على الدفاع عن مملكة بيت المقدس ، اذ لم يعد في مقدور تلك الجيوش الصليبية الحصول على شيء من السلاح والعتاد بأي حال من الأحوال بعد اغلاق الساحل الشامي في وجوههم . وذكر ابو شامه وابن خلكان أن الصليبيين الذين تجمعوا داخل مملكة بيت المقدس قاموا بعمل بعض التحصينات ، وأقاموا وسائل الدفاع عن بيت المقدس ، حيث

---

(١) Lane-Poole, op. Cit. P. 214.

نصبوا المنجنيقات والستائر ، وحفروا في الخندق حفرا عميقة لا عاقة المسلمين عن اجتيازه ، كما أقاموا الابراج العالية الاركان ، وفرقوا العساكر عليها (١) .

والواقع أن تلك التحصينات التي أقامها الصليبيون حول بيت المقدس بعد هزيمتهم في حطين ، لا تصل بأي حال من الأحوال الى المستوى الذي يمكنها من صد القوات الاسلامية في ذلك الحين ، تلك القوات التي كانت تنعم بقدر وافر من التنظيم والمؤن والاسلحة والعتاد ، فضلا عن تمتعها بروح معنوية عالية ، وقيادة حكيمة مكنتها من الاستيلاء على ذلك الشريط الساحلي الذي كان يسيطر عليه الصليبيون في بلاد الشام في مدة لا تزيد عن الشهرين (٢) . واستحال على المملكة الصليبية في بيت المقدس وصول أي امداد لها سواء من الغرب الأوربي أو من الامارات الصليبية داخل بلاد الشام . أما صلاح الدين فقد ضمن خطوط تموين أمينة من كافة نواحي دولته ، خاصة بعد استيلائه على مدن الساحل الجنوبي للشام مثل عسقلان وغزة وغيرهما ، وتمكن أيضا من ضمان وصول الامدادات اليه من مصر . واستطاع صلاح الدين حرمان مملكة بيت المقدس من الحصول على شيء من المساعدات عن طريق حصني الكرك والشوبك اللذين كانا حتى ذلك الوقت في أيدي الصليبيين (٣) .

---

(١) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٣ ؛ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ١٨٤ .

(٢) أنظر Lane-Poole, op. Cit. P. 212.

(٣) لم يتم استيلاء صلاح الدين على حصني الكرك والشوبك ، الا بعد استرداد بيت المقدس وفي رمضان من سنة ٥٨٤ هـ (أنظر ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٢٠ — ٢١ ؛ ابن واصل ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٧ — ٢٢٨ .

والى جانب ذلك فان صلاح الدين باستيلائه على مدن الساحل الشامى ، وخاصة مدينة عكا ، التى كانت فى ذلك الحين تعد ميناء هاما على البحر المتوسط ، قد فرض حصارا اقتصاديا على الصليبيين داخل مملكة بيت المقدس . ولم يعد باستطاعتهم الحصول على الاقوات الكافية لهم عن طريق تلك المدن الساحلية من اخوانهم المسيحيين فى الغرب الأوربى أولئك الذين كانوا يمدونهم بالاقوات والمواد الضرورية أما بقايا المراكز الصليبية فى بلاد الشام وهى انطاكية وطرابلس وصور ، فضلا عن حصنى الكرك والشوبك ، فلم يعد بامكانها امداد مملكة بيت المقدس بأية امدادات أو أقوات أو عتاد ، بل يبدو أن هذه الامارات والقلاع الصليبية قد أخذت تعمل على زيادة تحصيناتها تحسبا لتعرضها لنفس المصير الذى تعرضت له بقية مدن وموانئ الساحل الشامى . كما لا يستبعد أن يكون حكام هذه الامارات والحصون الصليبية ، حرصوا على عدم اثارة صلاح الدين خوفا من هجومه عليها .

ولم يقتصر ذلك التدهور الذى حل بمملكة بيت المقدس على الناحية الاقتصادية بل تعدى ذلك الى الناحية النفسية للصليبيين وأحوالهم الاجتماعية ، اذ لا شك أن تلك الكارثة التى حلت بالجيش الصليبى فى معركة حطين ، والتى ذهب ضحيتها معظم ذلك الجيش بين قتيل وأسير ، فكان — كما يقول المؤرخ ابن الأثير — « من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحدا ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحدا »(١) كان لها الأثر البالغ على الأسر الصليبية التى لجأت

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٧ ، أنظر أيضا ، العماد ، الفتح ص ٨١ .

الى مملكة بيت المقدس بعد أن فقدت من كان يمولها ، الأمر الذى أوجد طائفة مشردة من النساء والاطفال داخل بيت المقدس ، تعانى حياة اجتماعية شاقة ، سببت كثيرا من المشاكل للصليبيين فى ذلك الوقت •

استعدادات الصليبيين داخل بيت المقدس •

ولجأت اعداد كبيرة من فلول الصليبيين بعد هزيمتهم فى معركة حطين ، ومن ثم تداعى معظم مدن مملكة بيت المقدس فى يد صلاح الدين الى بيت المقدس (١) • ويبدو أن الصليبيين ظنوا أن لجوءهم الى بيت المقدس خير وسيلة لنجاتهم ، وذلك لما تتمتع به هذه المدينة من قدسية فى قلوب المسلمين والمسيحيين على السواء ، فضلا عما عهدوه من تسامح صلاح الدين واحترامه للمقدسات • وهنا تذكر المصادر العربية أن عدد من تجمع من مقاتلى الصليبيين داخل بيت المقدس فى ذلك الحين بلغ أكثر من ستين ألفا عدا النساء والصبيان (٢) • ورغم أن البعض قد اعتبر ذلك مبالغة تتعارض مع ما ذكرته المصادر الصليبية المعاصرة من نقص المحاربين فى المدينة ، وأنه ربما كان السبب فى تلك المبالغة هو الرغبة فى ابراز قيمة العمل الذى قام به المسلمون بالاستيلاء على بيت المقدس (٣) • فانـــه

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١١ •

(٢) ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ٢٠٤ أ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨١ ، العماد ، الفتح ، ص ١٢٤ ، ابو شامه ، الروضتين ج ٢ ، ص ٩٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦ •

(٣) أنظر ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٢٠ •

تجدر الاشارة الى أن اعدادا كبيرة من جند الصليبيين قد هربت بعد معركة حطين ، كما أن صلاح الدين قد سلك مع الصليبيين ، أثناء استيلائه على المدن والموانئ الساحلية ، مسلكا كريما ، يقوم على اعطاء الصليبيين الأمان متى طلبوه ، ومن ثم اعطاؤهم الحرية فى اختيار المكان الذى يرغبون فى اللجوء اليه . وهذا ما حدث بالفعل فى أكبر مدن الساحل ، مثل عكا وعسقلان وبيروت وغيرها (١) . وذكر ابن الأثير وابن واصل أن معظم الصليبيين الذين كانوا يقطنون تلك المدن فضلوا الاتجاه الى بيت المقدس التى كانت خير ملاذ لهم فى ذلك الوقت (٢) .

ومهما يكن من أمر فان هؤلاء الصليبيين الذين تجمعوا داخل بيت المقدس فى ذلك الوقت ، كانوا يرون أن الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون بيت المقدس ، فقاموا ببذل كل جهودهم لتحصينه ، وجمع الحشود توقعا لمسير صلاح الدين اليه ، فحصنوه فى تلك الأيام بكل ما لديهم من امكانيات ، ونصبوا المنجنيقات على السور ليمنعوه ممن يريد النزول عليه والدنو منه ، ثم صمدوا على سوره بحدهم وحديدهم مجمعين على حفظه ، والدفاع عنه ، فهم يعتقدون

---

(١) أنظر ما سبق ، ص

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٩ ـ ٥٥٠ ، ابن واصل مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١١ ـ ٢١٢ ، أنظر الباز العرينى ، الشرق الادنى فى العصور الوسطى ، ص ٩٤ .

أن بذل النفس والاموال والاولاد بعض ما يجب عليهم فى حفظه والذب عنه (١) .

وكان صلاح الدين قد استقبل أمام عسقلان ، عقب استيلائه عليها فى نهاية جمادى الآخرة سنة ٥٨٣هـ/سبتمبر ١١٨٧م ، وفدا من أهل بيت المقدس ، فعرض عليهم تسليم بيت المقدس بالشروط التى أستسلمت بقية المدن الصليبية ، أى مقابل تأمينهم على أرواحهم ونسائهم وأولادهم وأموالهم ، ويسمح لمن يشاء منهم بالخروج من المدينة سالما . ولا شك أن صلاح الدين بما عرف عنه من تدينه وخلقه كان قلقا بشأن القيام بحصار تلك المدينة المقدسة ، واستخدام المنجنيقات لما لها من حرمة عند المسلمين والمسيحيين على السواء (٢) . على الرغم من ذلك العرض الذى تميز بالشهامة العالية من صلاح الدين ، فان وفد بيت المقدس رفض بلا تردد ذلك العرض وقالوا « انه من أجل الله لن يسلموا المدينة حيث مات المخلص من أجلهم » ولذا وعدهم صلاح الدين بالاستيلاء على المدينة عنوة ، وأضاع الصليبيون فرصة نادرة لهم (٣) .

ولم تلبث تلك الحشود الصليبية التى تجمعت داخل بيت المقدس ، أن استقبلت أحد كبار القادة الصليبيين الذين فروا من معركة حطين ، ذلك هو باليان دى ابلين (   ) الذى أرسل الى صلاح

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٧ ، العماد ، الفتح ، ص ١١٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٢ .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٩١٩ .

(٣) Lane-Poole, op. Cit. P. 225.

الدين عقب انتصار المسلمين في حطين يطلب منه أن يمنحه الآمان للوصول الى بيت المقدس ليحضر زوجه وأولاده الى صور . وفي الحال سمح له صلاح الدين بذلك ، بعد أن اشترط عليه ألا يبقى بالمدينة سوى ليلة واحدة ، وألا يرفع سلاحا في مواجهة المسلمين . ووافق باليان على ذلك الشرط ، واتجه الى بيت المقدس ، وما أن دخله حتى قوبل بترحاب كبير من الصليبيين ، حيث لم يكن هناك أي فارس في مرتبته . وسعى من بداخل بيت المقدس من الصليبيين الى اقناعه بالبقاء في المدينة وتولى قيادتهم . وعبثا حاول الاعتذار عن البقاء ، وأخبرهم بأنه أقسم لصلاح الدين ، وانه لا يمكنه البقاء في بيت المقدس . ولكن البطريرك هرقل أقنعه بعدم الوفاء لصلاح الدين ، وانه أن ترك بيت المقدس على هذه الحال وذهب بعيد ، فانه سيكون محتقرا بين الصليبيين (١) . أما صلاح الدين ، فقد قابل تلك الخيانة من باليان بشهامة عالية ، فلم يستنفد صبره ، بل سمح لباليان - الذى بعث اليه يخبره أنه كان مجبرا على عدم الوفاء بوعده - بنقل زوجه وأولاده الى طرابلس ، وأرسل اليه حامية من خمسين فرسا تحمل حاجياته (٢) .

وعلى كل فان باليان دى ابلين قد بقى داخل بيت المقدس لمساعدة غيره من الفرسان الذين فروا من معركة حطين وغيرها ، وكذلك البطريرك هرقل الذى

---

(١) Lane-Poole, op. Cit. P. 225.

(٢) Lane-Poole,op.Cit.P.226. ، أنظر أيضا ، ستيفن نسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٤٨ - ٧٤٩ .

فتح له الخزائن وأرسل يستصرخ بملوك الافرنج ويذكرهم بأن الموت بيت المقدس خير لهم من تسليمه للمسلمين (١) .

أما بالنسبة للمؤن والعتاد اللازمة للصليبيين فى ذلك الوقت ، فان سيطرة صلاح الدين على المنافذ الساحلية لبلاد الشام ، قد حرم أشلاء مملكة بيت المقدس فى الداخل أى امداد خارجي . ولم يكن ما فى بيت المقدس من المؤن والعتاد كافيا لمقاومتها مدة طويلة عند مسير صلاح الدين اليها ، لأن معظم ما كان بها من المؤن والعتاد قد استنفده الجيش الصليبى الذى خرج لملاقاة المسلمين فى حطين . فضلا عن أن صلاح الدين لم يكن يسمح للصليبيين بحمل شيء من السلاح والعتاد عند تسليم مدنهم مقابل تأمينهم والسماح لهم بالخروج منها ، بدليل ما ذكره ابن الاثير من أن صلاح الدين عندما طلب منه أهل عكا وبيروت الآمان أجابهم الى ذلك ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم (٢) . ومعنى هذا أن صلاح الدين كان يستثنى الاسلحة والعتاد عند اعطائهم الآمان .

خطة صلاح الدين العسكرية واستسلام بيت المقدس :

وتجلت مقدرة صلاح الدين الحربية فى تلك الخطة العسكرية التى اتبعها

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ١١٧ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٣ ، ابن أيبك الدوادارى ، الدر المطلوب ، ص ٨٤ ،
(٢) أنظر ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٩ ، ٥٤٣ .

فى جهاده ضد الصليبيين لاسترداد بيت المقدس . وقامت تلك الخطة على تكوين جبهة اسلامية موحدة تضم مصر وبلاد الشام وأجزاء من العراق ، ثم منازلة الصليبيين فى عقر دارهم ، وانزال ضربة قوية بهم كما حدث فى معركة حطين . وتلا ذلك سيره الى مدن الساحل الشامى لاضعاف الصليبيين ماديا ومعنويا . ولو اتجه صلاح الدين عقب انتصاره فى حطين الى بيت المقدس لتمكن من دخوله بدون عناء ، الا أن استيلاءه على بيت المقدس قبل السيطرة على مدن الساحل لن يضمن له الاستقرار التام فى بيت المقدس ، اذ كان من المتوقع قيام الغرب الأوربى بارسال الجيوش الصليبية الى موانئ الشام ، ومجيء فرسانه زرافات ووحدانا ، والدخول مع صلاح الدين فى معارك حامية لاسترداد بيت المقدس الذى به كنيسة القيامة لاعتقادهم الباطل كما يقول العماد الاصفهانى أن " فيها صلب المسيح ، وقرب الذبيح وتجسد اللاهوت ، وتأله الناسوت وقام الصليب "(١) وبفضل تلك الخطة العسكرية التى نفذها صلاح الدين بسيطرته على الشريط الساحلى ، عزل بيت المقدس ومنع وصول الامدادات اليه . وقطع كل أمل للصليبيين سواء فى الغرب الأوربى أو فى بلاد الشام فى الوصول الى بيت المقدس ، وانقاذه من جيوش المسلمين .

ولما استرد صلاح الدين من الصليبيين عسقلان وغيرها من البلاد المحيطة ببيت المقدس ، وضمن بذلك أحكام العزلة على مملكة بيت المقدس ، شمر

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ١١٩ ، أنظر أيضا ، ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٢ ، ص ٢١٢ .

عن ساق الجد والاجتهاد وعزم على قصد بيت المقدس • فأصدر أوامره واجتمعت عليه جميع العساكر الاسلامية التى كانت متفرقة فى الساحل (١) • وكانت تلك الحشود العسكرية الاسلامية قد شاركت صلاح الدين فى معركة حطين ، واستغل صلاح الدين تواجدها فى الشام قبل عودتها الى اقطاعاتها فى السيطرة على مدن وموانىء الساحل • وحرص صلاح الدين على أن يسبق مسيرة الى بيت المقدس هالة اعلامية الى كافة أطراف العالم الاسلامى بقصد استنفار المسلمين للجهاد ، الأمر الذى ثارت معه عزائم المسلمين بالعزم على الجهاد والاشتراك فى تطهير تلك البقعة المقدسة أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى محمد صلى الله عليه وسلم • وذكر ابو شامة وابن كثير أن المسلمين ما أن بلغهم ما منّ الله به على صلاح الدين من فتوح الساحل الشامى ، ، ومن ثم قصده المسير الى بيت المقدس ، حتى توافدوا عليه من كل مكان يتقدمهم العلماء والفقهاء الذين قدموا للتطوع فى الجهاد لتصفية الوجود الصليبى من بلاد الشام (٢) •

ومن ناحية أخرى فقد استدعى صلاح الدين القوات المصرية أثناء قيامه بالاستيلاء على الساحل لمساعدته فى الاستيلاء على المدن والقلاع الجنوبية

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨١ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ١٧ ص ١٧٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦ ، أنظر أيضا العماد ، التفح ، ص ١١٦ •

(٢) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٢ •

واجتمع بابنه الملك العزيز عثمان في عسقلان فقرت به عينه واعتضد بعضده (١) .
ويبدو أن صلاح الدين على الرغم من سيطرته التامة على مدن وموانئ الساحل الشامي كان يتخوف من هجوم صليبي من الغرب ، أثناء تقدمه الى بيت المقدس لذلك أمر الاساطيل الاسلامية المنصورة بالسير للمشاركة في الجهاد ، فسارت اليه من مصر يتقدمها الحاجب لؤلؤ ، وأخذت تجوب البحر وتقطع الطريق على سفن الصليبيين ومراكبهم ، في الوقت الذي كانت فيه الامدادات تصل من مصر الى الشام برا وبحرا بكل سهولة (٢) .

وعندما علم صلاح الدين بأن مدينة بيت المقدس ، قد أخذت قسطا وافرا من التحصين ، لما تتمتع به من مكانة عظيمة في نفوس الصليبيين ، حرص على احضار أدوات الحصار الكافية لاقتحام أسوارها ذات الابراج العالية (٣) . فأحضر معه المنجنيقات والعرادات والنفاطات والقطاعات وعدد النقوب وغيرها من الادوات اللازمة لدك الاسوار ونقبها ثم حشو تلك النقوب بالحطب والنفط واشعال النيران فيها ، لفتح ثغرات في الاسوار يمكن من خلالها اقتحام الاسوار ودخول المدينة (٤) .

---

(١) العماد ، الفتح ، ص١١٤ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٢ ،
Lane-Poole, op Cit P. 226.
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٦ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٢ .
(٣) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ١٨٤
(٤) العماد ، الفتح ، ص ٢٤٤ ، ابن ايبك الدواداري ، الدر المطلوب ، ص ٨٥ ، .

وبعد أن جمع صلاح الدين تلك الحشود الاسلامية التي لبت النداء للجهاد معه لاسترداد بيت المقدس ، وأحضر أدوات الحصار اللازمة ، فكر في خطة لحصار بيت المقدس ، تقوم على أساس اختيار المكان والزمان الملائمين لذلك . ففي البداية اتخذ صلاح الدين موضعه في الجانب الغربي في مواجهة الاسوار من بوابة داود الى بوابة القديس ستيفن وذلك في ١٥ رجب ٥٨٣هـ/ ٢٠ سبتمبر ١١٨٧م . ولاحظ أن هذه الجهة كانت على قدر كبير من الحصانة ، وأن الجيوش الصليبية قد تجمعت فيها باعداد ضخمة . وأدرك أيضا أن اختيار الهجوم من تلك الجهة شاق للغاية لوجود الابراج الكبيرة (١) . وأورد ابن فضل الله العمري في مسالك الابصار وصفا لهذا الجانب من المدينة نقلا عن احدى رسائل القاضي الفاضل حيث يقول " وأتينا المدينة من جانب فاذا هو أودية عميقة ، ولجج وعر غميقة ، وسور قد انعطف عطف السوار ، وأبرجه قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار " (٢) . هذا بالاضافة الى أن صلاح الدين وجد أن الشمس كانت في ذلك الحين في أعين المسلمين ، الأمر الذي لا يستطيعون معه مواصلة القتال حتى بعد الظهر بسبب تعرضهم لاشعتها (٣) .

لذلك أمر صلاح الدين جيشه للتراجع وسحب آلات الحصار ، وبدأ من جديد يستكشف الجوانب الاخرى للمدينة ، ليختار جهة أخرى صالحة

---

(١) Lane-Poole, op. Cit. P. 226

(٢) العمرى ، مسالك الابصار ، ج٧ ، ورقة ٢٩٦ .

(٣) Lane-Poole, op. Cit. P. 226

للهجوم . وهنا تذكر المصادر الاسلامية ، أن صلاح الدين نقل جيشه في ٢٠ رجب ٥٨٣هـ/ ٢٥ سبتمبر ١١٨٧م الى الجهة الشمالية نحو باب عمود وكنيسة صهيون لاتساع تلك المنطقة وتمكنه من كشف الاسوار ، والدنو منها لنقبها .(١)

ولم يبق أمام صلاح الدين الا أن يبدأ هجومه الكاسح على بيت المقدس وقد ساعده على ذلك ما ذكر من أن الصليبيين عندما شاهدوا انتقال صلاح الدين من الجانب الغربي الى الجانب الشمالي من المدينة ، ظنوا أنه رفع الحصار عن بيت المقدس ، وأسرعوا الى الكنائس ليعبروا عن شكرهم والفرحة والبهجة تملؤهم ولم تلبث تلك الفرحة أن تحولت الى عويل وبكاء عندما شاهد الصليبيون المسلمين وقد أخذوا مراكزهم أمام الاسوار لضربها بالمنجنيقات .(٢)

وقامت خطة صلاح الدين لاسترداد بيت المقدس على أساس قيام المنجنيقات الاسلامية بضرب الاسوار ، وفي الوقت نفسه تتقدم فرق من الجيوش الاسلامية للمضايقة بالزحف والقتال ، تحميهم سهام الرماة والحجارة والنيران الاغريقية . وكانت جيوش صلاح الدين الزاحفة تضم بين صفوفها فرقا من النقابين الذين أوكل اليهم صلاح الدين مهمة نقب الاسوار وتعليقها أو حشوها واشعال النيران

(١) الحنبلي ، شفاء القلوب ، ورقة ٣٥ ، ابن سعيد ، الروض المعضود ، ج ٢ ورقة ٣١ ب – ٣٢ أ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٩ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٧ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٢ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ١٨٤ .

(٢) Lane-Poole, op. Cit. P. 227

فيها لمساعدة المنجنيقات فى هدمها وفتح الثغرات فيها لكى تتمكن الجيوش الاسلامية من اقتحامها والسيطرة على المدينة (١) •

أخذت جيوش المسلمين مراكزها فى الجهة الشمالية من بيت المقدس ، حيث نصبت المنجنيقات وغيرها من أدوات الحصار • وبدأ صلاح الدين هجومه على المدينة ، وفى المقابل كان خيالة الصليبيين يخرجون الى ظاهر البلد فيقاتلون ويبارزون • فحمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد ، فازالوا الصليبيين عن أماكنهم وأرغموهم على دخول البلد • وواصل المسلمون زحفهم حتى وصلوا الى الخندق فجاوزوه والتصقوا بالاسوار ، وشرعوا فى نقبها ، فى وقت كان الرماة يطلقون سهامهم ، والمنجنيقات توالى الرمى ليكشف العدو عن الأسوار (٢) • وظل النقابون فى ظل تلك الحماية من الرماة والمنجنيقات والنيران الاغريقية يواصلون عملهم • وفى خلال يومين كان هناك ثلاثون أو أربعون موضعا قد نقبت فى الاسوار (٣) • وكان المسلمون يقومون بحشو تلك النقوب بالأخشاب لاشعال النيران داخلها (٤) •

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٢ •

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٣ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨١ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٧ ــ ٥٤٨ •

(٣) Lane-Poole. op. Cit. P. 227.

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٣ •

وفى الوقت الذى اشتد فيه هجوم صلاح الدين على بيت المقدس ، كان هناك داخل المدينة بعض السكان اليونانيين يدينون بمذهب الكنيسة البيزنطية (المذهب الأرثوذكسى) يتوقون الى الخلاص من الحكم اللاتينى الصليبى ولا يمثلون أية مشكلة لصلاح الدين (١) . ويبدو أن تلك الطائفة التى كانت تدين بالمذهب الأرثوذكسى كانت على خلاف مرير مع بقية الطوائف الكاثوليكية ، وأن ذلك الخلاف بلغ بالفريق الاول أن نادى بأنه يفضل الحكم الاسلامى على سيطرة الكاثوليك الغربيين . ويشير البعض الى تآمر هؤلاء الارثوذكسى داخل بيت المقدس مع صلاح الدين ، وأن ثمة اتصالات سرية تمت بين الطرفين تعهد فيها الارثوذكس بفتح أبواب المدينة (٢) .

وعلى كل فان الصليبيين لما رأوا شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات فى الاسوار وتمكن النقابين من النقب ، وأنهم قد اشرفوا على الهلاك ، تزاحم الناس فى الكنائس للصلاة والاعتراف بذنوبهم . وأخذوا يضربون أنفسهم بالحجارة ويرجون المدد والرحمة من الله . وقطعت النساء شعور بناتهن على أمل استثارة الرجال لحمايتهن من سبى المسلمين لهن (٣) . وأخيرا اتفق الصليبيون على ارسال الرسل بطلب الآمان مقابل تسليم المدينة لصلاح الدين . وامتنع

---

(١) Ehrenkreutz, Saladin. P. 204.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٢٠ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٣ ؛

Lane-Poole. op. Cit P.P. 227-228.

صلاح الدين اجابتهم الى ذلك ، وقال « لا أفعل بكم الا كما فعلتم بأهلـــه حين ملكتموه سنة احدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها »(١) فلما أعاد صلاح الدين رسل الصليبيين خائبين محرومين ، اجتمع الصليبيـــون مرة أخرى داخل بيت المقدس ، وحاولوا القيام بهجمات مفاجئة ضد المسلمين . ولكن البطريرك هرقل اعترض على ذلك وأوضح لهم أنهم لو فعلوا ذلك فانهـــم سيسوقون نساءهم وأطفالهم الى العبودية ، وحرضهم على طلب الأمان مـــن صلاح الدين . فأرسل باليان دى ابلين الى صلاح الدين طالبا الآمان لنفسه ، ليحضر عنده للتفاوض ، فأجابه صلاح الدين الى ذلك . وحضر باليان عنـــده وسأله الأمان للصليبيين ، فأصر صلاح الدين على فتح المدينة بالسيف ، فلما يئس باليان من ذلك أراد ـ أن يستثير عطف صلاح الدين بالتهديد بقتـــل النساء والأطفال وأسرى المسلمين ، حيث قال له « أيها السلطان ، اعلم أننا فى هذه المدينة خلق كثير لا يعلمه الا الله تعالى ، وانما يفترون عن القتـــال رجاء الأمان ظنا منهم أنك تجيبهم اليه ، كما أجبت غيرهم ، وهم يكرهـــون الموت ويرغبون فى الحياة ، فاذا رأينا لابد منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنـــا ولنحرقن أموالنا وأمتعتنا ، ولا نترككم تغنمون منها دينارا واحدا ولا درهمـا ، ولا تسبون وتأسرون رجلا ولا امرأة . واذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخـــرة

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٨٤ ، أنظر أيضا العماد ، الفتح ، ص ١٢٦ .

(٢) Lane-Poole. op Cit. P. 228

والمسجد الأقصى ، وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أساري المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ، ولا نترك الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراما » (١) .

واستشار صلاح الدين أصحابه ، فأوضحوا له أن يكفى للبر بقسمه أن يستولى على بيت المقدس بحد السيف وأن تستسلم المدينة بشروط كأنها سقطت بالقتال ، وفى هذه الحالة يعتبر سكان المدينة أسرى حرب (٢) . فأجابهم صلاح الدين الى الأمان مقابل تسليم بيت المقدس . ووافق على مغادرة الصليبين المدينة مقابل فداء يدفعونه ، فجعل على الرجل عشرة دنانير يستوى فى ذلك الغنى والفقير وعلى المرأة خمسة دنانير (٣) . ويضيف كل من سبط ابن الجوزى والعماد الحنبلى أن صلاح الدين جعل على الصبى أربعة دنانير (٤) ، أما بالنسبة للطفل فقد اختلف فيما فرض عليه فذهب البعض الى أن فديته دينار واحد (٥) ،

---

(١) ابن الاثير ، ج ١١ ، ص ٥٤٨ — ٥٤٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٤ ، أنظر أيضا العماد ، الفتح ، ص ١٢٦ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

(٢) Lane-Plloe, op Cit. P 229

(٣) الحنبلى ، شفاء القلوب ، ورقة ٣٥ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨١ — ٨٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٩ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٤ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٩٧ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٩٦ .

(٤) العماد الحنبلى ، شفاء القلوب ، ورقة ٣٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٩٧ .

فى حين يرى البعض الآخر أن فديته دينارا ن (١) ويبدو أن الرأى الأول أرجح بدليل اجماع المراجع الصليبية على ذلك (٢). أما الفقراء والمعدمون فقد وافق صلاح الدين على أن يدفع باليان مقابل اطلاق سراحهم ، مبلغا اجماليا قدره ثلاثون ألف دينار . وحدد صلاح الدين لباليان مدة أربعين يوما ، فمن أدى فديته خلالها أطلق سراحه ، ومن بقى بعدها صار مملوكا . وسلمت المدينة يوم الجمعة ٢٧ رجب ٥٨٣هـ/ ١٢ أكتوبر ١١٨٧م (٣) .

وذكر ابو شامة نقلا عن العماد فى البرق الشامى أن الصليبيين عقب توقيع اتفاقية التسليم ، شرعوا فى اخلاء البيوت ، وبيع ما ادخروا من الأثاث والأقوات بأرخص الاثمان ، وكان خروجهم " شبيها بالمجان " لاسيما ما تعذر نقله وصعب حمله ، وكانوا كما قال الله تعالى (كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك أورثناها قوما آخرين) (٤) .

---

(١) الحنبلى ، شفاء القلوب ، ورقة ٣٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٩ ، ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٥ ، المقريزى ، السلوك ج ١ ، ص ٩٦ .

(٢) أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٢٢ حاشية .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٤ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٩٧ ، العماد ، الفتح ، ص ١٢٨ .

(٤) سورة الدخان آية ٢٥ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٤ .

تسامح صلاح الدين فى معاملته لأسرى الصليبيين :

ودخل المسلمون بيت المقدس بعد توقيع اتفاقية التسليم واستولوا على المدينة . وشاءت الصدف أن وافق دخولهم بيت المقدس فى ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ/ليلة الاسراء والمعراج المنصوص عليها فى القرآن الكريم ، تلك الليلة التى أسرى فيها بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى وعرج به الى السماء (١) . وتقدم صلاح الدين وتسلم حامية المدينة ، ومن ثم ظهرت الاعلام الصفراء شعار الايوبيين المنتصرين على أسوار المدينة المقدسة ايذانا بالسيطرة الكاملة عليها (٢) . ووفى صلاح الدين بوعده فسمح عن دفع القطيعة بالخروج ، وكان قد رتب على كل باب أميرا مقدما كبيرا يحصر الخارجين ، فمن دفع الفدية خرج (٣) . وبالرغم من تلك القطيعة الزهيدة التى فرضها صلاح الدين مقابل خروجهم من بيت المقدس ، وتأمين وصولهم الى مأمنهم ، فان كثيرا منهم لم يستطع دفعها فداء لنفسه ، وأصبح بعد مضى أربعين يوما أسيرا فى أيدى المسلمين ، ولم يسهم أحد من أغنياء الصليبيين فى فداء فقرائهم ، فقد خرج

(١) الحنبلى ، شفاء القلوب ، ورقة ٣٥ ، ابن سعيد ، الروض المعضوب ، ج ٢ ورقة ٣٢ أ ، العماد ، الفتح ، ص ١٣٠ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٢ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٣٩٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، أنظر أيضا ، سعيد عاشور ، الناصر صلاح الدين ، ص ٢٠٤ .

(٢) Ehrenkreutz, Saladin. P. 205

(٣) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

البطريرك هرقل من بيت المقدس بخزائنه الضخمة دون النظر الى غيره (١) • ويبدو أن ذلك كان بسبب انعدام الروابط الاسرية وغيرها بين الصليبيين فى ذلك الوقت ، فالاسرى كانوا خليطا من أجناس وشعوب أوربية متباينة ، وأجناد من الغرباء المأجورين الذين رغبوا فى السفر الى الشرق تخلصا من رق الارض السائد وقتذاك فى المجتمع الاوربى (٢) •

والخلاصة أن ذلك الموقف المخزى من كبار الصليبيين ، وتلك الشهامة وذلك التسامح من صلاح الدين قد أجبر الكاتب الانجليزى لين بول اعجابه بصلاح الدين حيث قال بعد أن تهجم على البطريرك " انها كانت فرصة للملك المسلم أن يعلم المسيحيين معنى التسامح (٣) •

وقد برهن صلاح الدين وغيره من أمراء المسلمين على تلك الشهامة والتسامح عندما أصبح آلاف المدينيين الصليبيين الذين عجزوا عن دفع الفدية المقررة أسرى فى يد صلاح الدين ، فتقدم الملك العادل الى أخيه السلطان صلاح الدين يطلب منه أن يهب له ألفا من أولئك الصليبيين الفقراء ليطلق سراحهم لوجه الله ، وأجابه صلاح الدين الى ذلك • وحرك ذلك العمل الانسانى الذى قام به الملك العادل مشاعر البطريك وباليان فتقدما الى صلاح الدين وطلبا منه مثل ذلك ، فأعطاهما صلاح الدين ما طلباه وأطلق سراحهم•

---

(١) Ehrenkreutz, Saladin. P. 205.

(٢) نظير حسان سعداوى ، جيش مصر ، ص ٦٩ •

(٣) Lane-Poole. op Cit. P 231 .

ثم تقدم صلاح الدين وأمر حراسه بالمناداة فى شوارع بيت المقدس بأنه سوف يطلق سراح من لم يستطع دفع الفدية من الصليبيين لكبر سنه ، وأن على هذه الطائفة أن تتقدم من الباب الخلفى للمدينة ليسمح لها بالخروج من طلوع الشمس الى الليل . وما ان صدر ذلك الاعلان حتى توافد الصليبيون على ذلك الباب بأعداد لا تحصى (١) وطلب أمير البيرة اطلاق سراح زهاء خمسمائة أرمنى ، ذكر لصلاح الدين انهم من بلده ، وان قدومهم الى بيت المقدس كان من أجل العبادة هناك ، كما طلب أيضا الامير مظفر الدين على كوجك اطلاق سراح زهاء ألف أرمنى أدعى أنهم من الرها ، فأجابهما صلاح الدين الى ذلك وأطلق سراحهم (٢) .

ولم يقتصر ذلك التسامح من المسلمين على ما أقام به صلاح الدين وأخوه الملك العادل وكبار الامراء المسلمين ، بل تعدى ذلك الى عامة المسلمين ، فيذكر العماد وابن واصل أن بعض المسلمين قد البسوا الصليبيين زى الجند المسلمين وأخرجوهم من بيت المقدس . كما استوهب جماعة من صلاح الدين عددا من الصليبيين فوهبهم لهم وأفرج عنهم (٣) .

والواقع أن صلاح الدين قد أبدى من التسامح وكرم الاخلاق تجاه أسرى الصليبيين فى بيت المقدس الشىء الكثير . وبلغ من كرم وشهامة صلاح الدين

---

(١) Lane-Poole. Op. Cit. P. 232

(٢) العماد ، الفتح ، ص ١٢٨ ــ ١٢٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

(٣) العماد ، الفتح ، ص ١٢٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

ما قام به تجاه زوجات وبنات الفرسان الصليبيين ، الذين قتلوا وأسروا أثناء معاركهم مع صلاح الدين . فقد تجمعن أمام صلاح الدين يبكين ، فسأن عن حالهن وما يطلبن ، فقيل له انهن يطلبن الرحمة ، فعطف عليهن صلاح الدين وسمح لمن كان زوجها على قيد الحياة بأن تتصرف عليه ، وأطلق سراحه ، وسمح لهم بالذهاب حيث يريدون . أما النساء والبنات اللاتى مات أزواجهن وآبائهن فقد أمر صلاح الدين بأن يصرف لهن من خزانته الخاصة ما يناسب عيشتهن ومركزهن واعطاهن حتى ابتهلت ألسنتهن بالدعاء له (١) . وكان على رأس هؤلاء النسوة زوجة الملك المأسور جاى لوزجنان التى كانت مقيمة ببيت المقدس مع الخدم والحشم ، فاستأذنت صلاح الدين فى اللحاق بزوجها الذى كان مقيما فى برج نابلس ، فاذن لها ، وتوجهت اليه وأقامت معه . وحضرت الى صلاح الدين امرأة ارناط الذى قتله صلاح الدين فى حطين ، وطلبت من السلطان المسلم اطلاق سراح ابنها المأسور ، فأجابها الى ذلك بشرط تسليم حصن الكرك له ، فسارت اليه وامتنع من بداخله من الصليبيين عن تسليمه ، فأبى أن يطلق صلاح الدين ابنها ، ولكنه أكرمها وسمح لها بالسفر بمالها ومن يتبعها (٢) .

واحترم صلاح الدين مشاعر المسيحيين ، فعند ما أشار بعض المسلمين عليه عقب دخوله بيت المقدس بهدم كنيسة القيامة ، وازالة آثارها وقالوا

---

(١) ابن الاثير
(٢) العماد ، الفتح ، ص ١٢٨ — ١٢٩ ؛ الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٥٠ — ٥٥١ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٦ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٦ .

« اذا هدمت بنايتها ، وألحقت بأسافلها أعاليها ، ونبشت المقبرة وعفيت ، وأخمدت نيرانها وأطفيت ، ومحيت رسومها ونفيت ، انقطعت عنها امداد الزوار ، وانحسمت عن قصدها مواد اطماع أهل النار ، ومهما استمرت العمارة ، استمرت الزيارة » بينما أشار عليه البعض بأنه « لما فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس فى صدر الاسلام أقرهم على هذا المكان ولم يأمرهم بهدم البنيان » (١) . فأعرض صلاح الدين بتسامحه عن هدمها (٢) .

وتضرع بعض المسيحيين الى صلاح الدين ليسمح لهم بالبقاء داخل بيت المقدس بعد أدائهم الفدية المقررة عليهم ، وتعهدوا له بألا يزعجوا أحدا ، وأن يقوموا بالخدمة داخل المدينة . فوافق صلاح الدين على ذلك ، واشترط عليهم شروطا قابلوها بالالتزام والقبول ، وأعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وعوملوا معاملة أهل الذمة ، فأصبح لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم من الحقوق والواجبات (٣) .

وهكذا أبدى المسلمون الرحمن نحو المدينة التى سقطت فى أيديهم . واذا استعاد الانسان ذكرى دخول الصليبيين بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م عندما نشر جودفرى وتانكرد الموت فى الشوارع ، وعندما أغرق المدافعون المسلمون وأحرقوا والقوا فى بحار من الدماء ، حيث كان الصليبيون يخوضون حتى كعوبهم

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ١٤٥ ــ ١٤٦ .
(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .
(٣) العماد ، الفتح ، ص ١٣٦ .

فى دماء القتلى ، فضلا عما قاموا به من نهب وسلب وسبى (١) ، فانه يدرك الفرق الشاسع بين تسامح صلاح الدين ووحشية القادة الصليبيين – اذ يتضح مدى تمسك صلاح الدين بمبدأ التسامح وأحكام الشريعة الاسلامية السمحاء ، وبعده كل البعد عن تحكيم عواطفه وأهوائه تجاه الصليبيين الذين لم يمض على ارتكابهم تلك الجريمة الشنعاء قرن من الزمان .

وشهد الأوربيون بكرم أخلاق صلاح الدين وسماحته فذكر أحدهم أن المسلمين عند استردادهم بيت المقدس اتصفوا بالاستقامة الانسانية ، فبينما كان الصليبيون منذ حوالى ثمانين سنة تقريبا يخوضون فى دماء ضحايا المسلمين ، لم تتعرض عند استرداد المسلمين لبيت المقدس دار من الدور لأى اعتداء ، ولم يحل بأحد من الأشخاص مكروه ، بل صار رجال الشرطة – بناء على أوامر صلاح الدين – يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء على الصليبيين (٢) .

ارسال البشائر والوفود الى أنحاء العالم الاسلامى :

وصل صلاح الدين باسترداد بيت المقدس الى قمة المجد السياسى والعسكرى وأخذت أخبار ذلك الحدث تنتشر فى أنحاء العالم الاسلامى ، فقد سارع صلاح الدين بارسال البشائر باسترداد بيت المقدس الى الخليفة العباسى

---

(١) أنظر أيضا ، كتاب أعمال الفرنجة ، ترجمة حسن حبشى ص ١١٨ – ١٢٠ .

(٢) أنظر ويسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٧٢٥ .

فى بغداد والى مختلف الامراء والحكام المسلمين . وذكر ابو شامه نقلا عن العماد الاصفهانى الذى لم يحضر الفتح لمرض ألم به ، أنه لما سمع وهو بدمشق نزول السلطان صلاح الدين على بيت المقدس شفى من مرضه ، وتوجه اليه ، فوصل عنده يوم السبت ثانى يوم الفتح ، يقول العماد " وطلعت عليه صبحا فاستبشر بقدومى ، وخلع على البشير قبل رؤيتى ، وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليضربوا بها ويشرقوا وهو يقول لهم لهذه القوس بار ، ولهذه المأدبة قار ، قال فكتبت فى ذلك اليوم سبعين كتابا بشارة ، كل كتاب بمعنى بديع وعبارة ، فمنها الكتاب الى الديوان العزيز ببغداد افتتحه بهذه الآية (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، ليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) (١) . كما أرسل أيضا الى الامبراطور البيزنطى اسحق انجيلوس يبشره بذلك النصر العظيم (٢) .

واستقبل صلاح الدين رسل ووفود الملوك والامراء المسلمين من سلاجقة الروم وخراسان والعراق ، لتهنئته بما خصه الله به من نصر عظيم (٣) . كما أن المسلمين عندما سمعوا باسترداد بيت المقدس ، وفدوا للزيارة " من كل فج

---

(١) سورة النور آية ، ٥٥ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٦ ، أنظر أيضا العماد ، الفتح ، ص ١٣١ .

(٢) Ehrenkreutz, Saladin. P.205.

(٣) ابوشامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ .

عميق وسلكوا اليه في كل طريق ، وأحرموا من البيت المقدس الى البيت العتيق (١) "
وجلس صلاح الدين بالمخيم ظاهر بيت المقدس للقاء الاكابر والامراء والعلماء الذين أتوه من كل حدب وصوب لزيارة بيت المقدس ، وتهنئته بما أفرده الله به من الفضيلة باسترداد بيت المقدس من الصليبيين (٢) .

ولما كان يوم الجمعة رابع شعبان ٥٨٣هـ/ ٩ أكتوبر ١١٨٧م حضر المسلمون باعداد هائلة الى الحرم الشريف ، فغص بالزحام وامتلأت عراصه وصحونه بالخلائق ، وخشعت الاصوات ووجلت القلوب ، وارتفعت الأيدي بالشكر والدعاء ، وكان جماعة من أكابر علماء المسلمين قد رشحوا أنفسهم للخطابة في هذا المسجد العظيم ، وتأهبوا لذلك بتأليف الخطب الجليلة الرائعة ، ومنهم من عرّض لصلاح الدين ومنهم من صرّح ، وهو ساكت لا يبدي سره حتى حان وقت الصلاة ، فأوعز الى القاضي محيي الدين بن الزكي وقدمه لهذا الأمر ، فرقي المنبر بالأهبة السوداء العباسية ، وخطب خطبة بديعة بليغة دعا فيها للخليفة الناصر العباسي والسلطان صلاح الدين (٣) .

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ١٣٤ ، أنظر أيضا ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٩٧ .

(٢) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٦ .

(٣) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ، المقريزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٩٧ ، والقاضي محيي الدين الزكي هو ابو المعالي محمد بن أبي الحسن علي بن محمد بن يحيى ، ينتهي نسبه الى الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، لقبه محيي الدين ويعرف بابن زكي الدين ، كان فقيها أديبا ولاه صلاح الدين القضاء بحلب ، ثم بدمشق توفي سنة ٥٩٨هـ . (أنظر ابن خلكان ، وفيات الأعيان) ج ٤ ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

اصلاحات صلاح الدين فى بيت المقدس :

ثم قام صلاح الدين بازالة ما استحدثه الصليبيون من الابنية والأسوار فى بيت المقدس ، فقد أقام فرسان الداوية غربى المسجد الأقصى أبنية للسكنى ، وأدخلوا بعض الأقصى فى أبنيتهم ، وبنوا على وجه المحراب جدارا وتركوه مخزنا للغلة ، وقيل اتخذوه مستراحا قاصدين بذلك طعن الاسلام والمسلمين (١) . كما بنوا على الصخرة المقدسة كنيسة وستروها بالابنية ، وملؤوها بالصور ، ونصبوا عليها مذبحا ، وعينوا بها مواضع للرهبان . كما أقاموا على رأس قبة الصخرة صليبا كبيرا وغير ذلك ، حتى غيروا معالمها . وقام الطامعون منهم بقطع قطع منها وبيعها فى أسواق القسطنطينية ، وجزيرة صقلية بوزنها ذهبا (٢) .

فلما كان يوم الجمعة فى شعبان ٥٨٣هـ/ ٩ أكتوبر ١١٨٧م وهى الجمعة التالية للجمعة التى دخل فيها المسلمون بيت المقدس ، أمر صلاح الدين بازالة ما استحدثه الصليبيون من الابنية والاسوار ، وكشف الجدار الساتر للمحراب ، كما أمر بازالة ما استحدثوه على قبة الصخرة المقدسة من مبان وصور . ثم أمر الفقيه ضياء الدين الهكارى بأن يكون أمينا عليها وأدار عليها شبابيك من حديد (٣) . أما بالنسبة للصليب الذهبى الذى أقامه الصليبيون على قبة الصخرة ،

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ١٣٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٥١ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .

(٢) العماد ، الفتح ، ص ١٤١ ـ ١٤٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩ ، ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٣ ـ ١١٤ ، ابن ايبك الدوادارى ، الدر المطلوب ، ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص

فيذكر ابن واصل أن المسلمين ما أن دخلوا البلد حتى تسلق جماعة منهم الى أعلى القبة واقتلعوا الصليب الذي سقط وعند ذلك " صاح الناس كلهم صوتا واحدا ، من البلد ومن ظاهره ، المسلمون والفرنج ، أما المسلمون فكبروا فرحا ، وأما الفرنج فصاحوا توجعا وتفجعا " (١) .

ولما فرغ صلاح الدين من ازالة ما استحدثه الصليبيون داخل بيت المقدس بدأ بعمارة المسجد الأقصى ، فبذل جهدا كبيرا في توسيعه وتحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه ، فأحضر له من الرخام ما لا يوجد مثله ، ومن الفص المذهب القسطنطيني وغير ذلك من المواد اللازمة للتزيين ما لا يمكن وصفه ، وشرع في عمارته ، وتزيينه وازالة ما على جدرانه من الصور والتماثيل (٢) .

وخص صلاح الدين المحراب باهتمام كبير ، فعمل على ترخيمه وتزيينه ، وأقام به أول الأمر منبرا رسميا الا أنه رأى أن ذلك يحتاج الى عمل منبر لائق بمكانة بيت المقدس ، فأمر باحضار منبر كان نور الدين محمود ــ الذي كانت اطماعه متعلقة باسترداد بيت المقدس ــ قد أنشأه لهذا الغرض ، حيث طلب من نجار حلبي أن يعمل له منبرا لبيت المقدس وقال " اجتهد أن تأتي به على أحسن نعت يمكن واحكمه " (٣) فجمع الصناع وبالغ في اتقانه وصنعته وأتمه

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٢٧ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٥٢ .
(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ ، أنظر ايضا ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٢ .

فى سنتين . وحدث أن أحرق جامع حلب فى الأيام النوريه فنصب ذلك المنبر فيه . ولما تمكن صلاح الدين من استرداد بيت المقدس من الصليبيين أمر بحمل ذلك المنبر الى بيت المقدس ونصب فى المحراب ، ثم أمر صلاح الدين فعمل لجامع حلب محرابا ومنبرا مشابها لذلك .(١)

ويدل هذا العمل على مدى اخلاص صلاح الدين لاسلافه الزنكيين الذين بذلوا الكثير لتحقيق الوحدة الاسلامية ، تمهيدا لاقتلاع الوجود الصليبى فى بلاد الشام . كما أن ذلك يدل على أن صلاح الدين عندما قضى على دولة الزنكيين التى سادها الضعف والوهن عقب وفاة نور الدين محمود ، وتولى ابنه الصغير الملك الصالح اسماعيل ، لم يكن يقصد بذلك سوى مواصلة المسيرة والاستعداد للجهاد ضد الصليبيين لازالتهم واسترداد بيت المقدس منهم .

وعلى كل فان عناية صلاح الدين وغيره من الامراء ببيت المقدس لم تقف عند هذا الحد ، بل تنافسوا فى تزيينه وتنظيفه فقد . تقدم السلطان فى المسجد الأقصى ببسط العراص ، واخلائها لاهل الاخلاص ، وتنظيفها من الأدناس ، وكنس ما فى ارجائها من الأرجاس .(٢) وأحضر الملك المظفر تقى الدين عمر الى قبة الصخرة أحمالا من ماء الورد ، وتولى بيده كنس ساحتها

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ص ٩٧ .

(٢) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٩ ، والعراص :- مفردها عرصه ، وعرصة الدار وسطها ، وقيل هو ما لا بناء فيه (أنظر ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٨ ، ص ٣١٩).

وعراصها ، ثم غسلها بالماء مرارا حتى تطهرت ، ثم أفاض عليها ماء الورد ، وطهر حيطانها ، وغسل جدرانها ، ثم بخرها بمجامر الطيب . وجاء الملك الأفضل نور الدين على بن صلاح الدين " بكل نور جلى وكرم ملى ، وبسط بها الصنيعة ، وفرش فيها البسط الرفيعة " . (١) كما قام المسلمون بكنس عراص المسجد وتنظيفها ثم فرشها بالبسط عوض الحصر والبوارى ، وعلقت القناديل وصفت السجادات . (٢)

وبعد أن أنهى صلاح الدين تطهير بيت المقدس مما علق به من آثار الصليبيين ، رتب فى المسجد الاقصى وقبة الصخرة وغيرها من المساجد داخل بيت المقدس الخطباء والأئمة والمؤذنين والقومه ، وأحضر اليها المصاحف والربعات . كما قام صلاح الدين بانشاء المدارس والأربطة ، فجعل كنيسة صندحنه مدرسة للفقهاء الشافعية ، وعين دار البطريك رباطا للفقراء ، وأوقف على ذلك أوقافا جليلة . (٣)

وكان لاسترجاع صلاح الدين لبيت المقدس من أيدى الصليبيين أهمية خاصة بالنسبة لصلاح الدين ومكانته بين أبطال المسلمين حتى أنه يمكن القول أنه اذا كان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد طهر بيت المقدس من براثن الروم فى السنة الخامسة عشر للهجرة ، فان صلاح الدين أعاد تلك

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ١٤٣ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

(٢) العماد ، الفتح ، ص ١٣٧ ، البوارى :- الحصر المنسوج (أنظر العماد ، المصدر نفسه ، ص ١٣٧ حاشية)

(٣) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ ، ابن أيبك الدوادارى ، الدر المطلوب ، ص ٩٠ ، المقريزي ، السلوك ، ص ٩٧ .

الذكرى فى القرن السادس الهجرى بعد أن تعرض بيت المقدس لذلك الاعتداء الصليبى الذى استمر ما يقارب المائة عـام • ووضع صلاح الدين بذلك العمل الجليل الاساس لمن بعده من سلاطين المسلمين للقضاء على بقايا الصليبيين فى بلاد الشام •

الفصل الخامس

فشل الحملة الصليبية الثالثة فى إسترجاع بيت المقدس.

- نتائج وآثار استرداد صلاح الدين لبيت المقدس فى الغرب الأوربي
- الحملة الصليبية الثالثة ودخول الصليبيين عكا سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١م
- معركة أرسوف وفشل ريتشارد قلب الأسد فى استرجاع بيت المقدس.
- انتصار صلاح الدين وصلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م

الفصـــل الخامـــس

فشل الحملة الصليبية الثالثة في استرجاع بيت المقدس

نتائج وآثار استرداد صلاح الدين لبيت المقدس في الغرب الأوربي :

حقق صلاح الدين في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م انتصارات عظيمة ضـــد الصليبيين ، سيطر خلالها على معظم أنحاء مملكة بيت المقدس ، ما عدا مدينة صور التي وصفها المؤرخون المسلمون بأنها مدينة حصينة متوسطة في البحـــر كأنها سفينة ، ليس لها طريق الى البر الا من مكان واحد له سبعة أبـــراج (١) . فضلا عما كانت تتمتع به من أسوار منيعة وأبراج عالية قد امتلأت بالصليبيـــن الهاربين اليها بسبب الأمان الذي منحه صلاح الدين للصليبيين ، مقابل تسليم مدنهم له (٢) .

واذا كان الصليبيون قد فقدوا في معاركهم ضد صلاح الدين معظـــم زعمائهم وقادتهم الذين وقعوا بين قتلى وأسرى فانه قد ظهر بينهم بعض القادة الاكفاء الذين تولوا مهام أمورهم خاصة كونراد مونتفرات (Conrad de Montferat) الذي وصفه ابن شداد بقوله " انه كان رجلا عظيما ذا رأى

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ١٩٨ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ ، سبط ابـــن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤٠٠ .

(٢) العماد ، الفتح ، ص ١٥٦ وأنظر ما سبق ص

وبأس شديد في دينه وصرامة عظيمة » ووصفه سبط ابن الجوزي بانه « كان شجاعا حازما »(١) وكونراد هذا أو المركيس — كما تسميه المصادر العربية — كان مقيما بالقسطنطينية أثناء معركة حطين ، وهرب من القسطنطينية — لاتهامه بجريمة قتل — على ظهر سفينة كانت تحمل بعض الرحالة متظاهرين بالحج الى بيت المقدس(٢) . وعند ما وصل كونراد الى ساحل عكا لم يكن يعلم باستيلاء صلاح الدين عليها ، وعند ماعلم بذلك أخذ يتدبر الحيل للنجاة بنفسه ، ورحل بسفينة نحو مدينة صور ، قبل أن يكشف الجند المسلمون أمره . ووصل الى صور سالما وقوبل بصيحات الترحيب من الصليبيين ، واستقبل مع فرسانه بالقلمة ، وتسلم القيادة العليا للصليبيين بها(٣) .

أما عن دور المركيس كونراد ، فما أن وصل الى صور حتى استخدم من تجمع فيها من الصليبيين في زيادة تحصينها ، مستغلا انصراف صلاح الدين عقب استيلائه على عسقلان الى فتح بيت المقدس . حيث قام بتعمير أسوارها وأبراجها وتزويدها بعدد الدفاع ، ثم أعقب ذلك بتعميق خندقها الذي أوصله من البحر الى

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٩٨ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤٠٠ .

(٣) Lane-Poole, op. Cit. P. 221.

(٤) العماد ، الفتح ، ص ١٠٩ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٠ ، Lane-Poole, op. Cit. P. 221.

البحر ، حتى صارت المدينة « كالجزيرة فى وسط الماء لا يمكن الوصول اليهـــا ولا الدنو منها » (١)

وهكذا أصبحت مدينة صور بعد دخول المركيس كونراد اليها على حصانـة تامة تمكنها من الصمود أمام أى هجوم · كما يمكن القول أيضا بأن دخول كـونراد اليها يعد نقطة تحول فى تاريخ الحروب الصليبية ، اذ يعد دخوله اليها بمثابة المنقذ لآخر معقل صليبى ببلاد الشام ، حيث كان والى قلعة صور ومعه ريجنالد (Reginald) حاكم صيدا الذى كان بها فى ذلك الحين ، قد عزمـا على تسليم صور الى صلاح الدين مقابل طلب الأمان منه · فلما جاءهم المركيـس كونراد ردهم عن ذلك ، وقوى نفوسهم ، وضمن لهم حفظ البلد · (٢)

والى جانب تلك الحصانة التى وهبتها الطبيعة لمدينة صور ، فضلا عمـا قام به كونراد من جهود جبارة فى زيادة تحصينها ، فقد وفدت الى صور أعـداد كبيرة من الصليبيين من كافة أنحاء مملكة بيت المقدس التى تداعت عقب معركـة حطين · (٣)

ووفد الى مدينة صور ملك بيت المقدس جاى لوزجنان ، فبعد استـيلاء

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٥٣ ، أنظر أيضا الحنبلى ، شفاء القلوب ورقة ٤١ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ ·

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٠٩ ، Lane-Poole, op. Cit. P. 222.
نظير سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٨٩

(٣) أنظر ما سبق ، ص

صلاح الدين على عسقلان وبيت المقدس أطلق سراح الملك الصليبى بعد أن اشترط عليه أن لا يشهر عليه سيفا ويكون " مملوكه وطليقه " . ونكث الملك جاى عهده ، واتجه بدوره الى مدينة صور ، وحدث بينه وبين المركيس كونراد خلاف بادئ الأمر الا أنه تمكن من مصالحته ، واتفقا على لم شعث الصليبيين ، والثبات أمام هجمات صلاح الدين واستنفاذ البلاد التى أخذت (١) .

والحقيقة أن صلاح الدين أدرك مدى خطورة تجمع الصليبيين فى مدينة صور والدليل على ذلك أنه حاول الاستيلاء عليها أكثر من مرة . فبعد معركة حطين وبالذات فى شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٣هـ . وبعد أن استولى على المدن الساحلية الشمالية ومنها بيروت وصيدا وجبيل وغيرها ، عقد العزم على المسير الى المدن الساحلية الجنوبية ، ومر فى طريقه بمدينة صور ، فنازلها وفرض عليها حصارا شديدا ، الا أنه رأى فك حصارها لأسباب منها ، ما تتمتع به تلك المدينة من حصانة تامة ، فضلا عن احساسه بسأم عسكره من طول القتال وادراكه بأنه من الافضل الاتجاه الى مدن الساحل الجنوبية لسهولة أمرها (٢) .

ويبدو أن صلاح الدين كان يرى أن من الواجب استغلال تواجد عسكره معه ، وعدم اشغالهم بحصار المدن كصور التى كان يتوقع طول حصارها ، وذلك

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ ــ ٢٨٤ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٩٨ ، عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٥٣ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٠ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩١ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص ١٧٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٥ .

للحفاظ على الروح المعنوية العالية لجنوده (١) • يضاف الى ذلك أن صلاح الدين رأى على مايبدو أن من الأولى الاتجاه الى الاستيلاء على المدن الساحلية الجنوبية لاتمام العزلة على بيت المقدس وتأمين الطريق بين شطرى دولته فى مصر والشام ، فضلا عن عزل حصنى الكرك والشوبك اللذين كانا حتى ذلك الوقت فى قبضة الصليبيين (٢) •

ولم ينس صلاح الدين أمر صور ، فبعد أن أستولى على بيت المقدس قويت نفسه وعقد العزم على المسير اليها لأنه كان يعلم أن تأخره عن المسير اليها يزيدها حصانة وقوة بسبب زيادة لجوء الصليبيين اليها عقب دخول صلاح الدين بيت المقدس ، وسماحه لمن بها من الصليبيين بالخروج بعد دفع الفدية المقررة (٣) •

خرج صلاح الدين من بيت المقدس واتجه أول الأمر الى عكا للنظر فى أحوالها وتفقد تحصيناتها (٤) • ويبدو أن صلاح الدين كان يخاف على عكا فى ذلك الحين من هجوم صليبى غربى ، لما لها من وقع فى نفوس المسيحيين بسبب مكانتها الاستراتيجية والتجارية • ثم خرج منها صلاح الدين يوم الجمعة ٥ رمضان

---

(١) Lane-Poole, op. Cit. P. 220.

(٢) لم يتمكن صلاح الدين من الاستيلاء على حصنى الكرك والشوبك الا فى سنة ٥٨٤ هـ (أنظر ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٢٠) •

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٣ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ١٨٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٨ •

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٨ •

سنة ٥٨٣هـ/أوائل نوفمبر ١١٨٧م ، وسار باتجاه صور حتى أشرف عليها وعسكر بالقرب منها ينتظر وصول بقية عسكره وآلات الحصار . ووصل الى صور الملك الظاهر بن صلاح الدين الذى خرج من حلب بأمر والده صلاح الدين فوصل الى تلك المنزلة في الثاني والعشرين من شهر رمضان ، وسر صلاح الدين بوصوله سرورا عظيما (١) .

ولما توافدت على صلاح الدين عساكره ، وتكاملت عنده آلات الحصار من المنجنيقات والدبابات والستائر وغيرها ، نزل على صور ، ونصب عليها آلات الحصار ثم قسم القتال على عسكره بالتناوب ، فجعل لكل جمع منهم وقتا معلوما يقاتلون فيه ، بحيث ضمن اتصال القتال على أهل البلد . وضايق المسلمون صور وقاتلوا أهلها قتالا عظيما ، وزحفوا عليها بالمنجنيقات والعرادات والجروخ والدبابات. وكان أبناء صلاح الدين خاصة ولديه الأفضل والظاهر ، وأخاه الملك العادل ، وابن أخيه تقى الدين عمر وكذلك سائر الامراء يتناوبون القتال على صور (٢) .

ويبدو أن خطة صلاح الدين لم تؤثر كثيرا على الصليبيين داخل صور ، وذلك لكون الموضع الذى كان المسلمون يقاتلون فيه قريب المسافة يكفى للدفاع عنه جماعة يسيره من أهل البلد ، وعليه الخنادق العميقة التي وصلت من البحر الى

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٣ .

(٢) الحنبلى ، شفاء القلوب ، ورقة ٤١ ، ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ٢٠٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٥٥ ــ ٥٥٦ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢١ .

البحر . يضاف الى ذلك أنه كان للصليبيين في صور سفن كثيرة يركبون فيها البحر ، ويقفون على جانبي الموضع الذى يقاتل فيه المسلمين فيرمونهم من جانبهم بالسهام . ونتيجة لذلك لم يستطع المسلمون الدنو من البلد لأن أهله يقاتلونهم من أمامهم ، وأصحاب الاسطول يقاتلونهم من الجانبين . وكانت سهامهم تنفذ من أحد الجانبين الى الجانب الآخر لضيق الموضع البرى الذى يقف فيه المسلمون . الأمر الذى اضطر صلاح الدين الى طلب الاسطول الاسلامى من مصر ، فجاءته قطع الاسطول برجالها وعددها ، فتمكن المسلمون حينئذ من الدنو من البلد وقتاله ، فقاتلوه برا وبحرا حتى كادوا يظفرون به ، لولا أن الاقدار جاءت بما لم يكن فى الحسبان ، وذلك أن خمس قطع من سفن الاسطول الاسلامى باتت في بعض تلك الليالى مقابل ميناء صور لمنع الصليبيين من الدخول الى المدينة أو الخروج منها ، وبات رجالها ليلتهم يحرسون المدينة . فلما كان وقت السحر أمنوا من الصليبيين وناموا ، فما شعروا الا وسفن الأسطول الصليبى قد هاجمتهم ، وضايقتهم فقاومها الاسطول الاسلامى ، الا أن تلك المقاومة لم تجد نفعا لكونهم أخذوا على حين غفله . وانتهى الأمر بأسر خمس سفن اسلامية . ثم اصدر صلاح الدين أوامره الى بقية السفن بالانتقال الى بيروت وذلك فى ٢٧ رمضان ٥٨٣هـ/٣٠ ديسمبر ١١٨٧م .(١)

شاهد صلاح الدين ما حل بالاسطول الاسلامى نتيجة تعرضه لذلك

---

(١) الحنبلى ، شفاء القلوب ، ورقة ٤١ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٥٤ ــ ٥٥٥ ، العماد ، الفتح ، ص ١٦١ ــ ١٦٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٦ ، ص ٣٨ ،
Egrenkreutz, Saladin, P.P. 207-208.

الهجوم المباغت من الصليبيين ، فضلا عن حلول الشتاء (شهر ديسمبر) وسقوط الامطار والثلوج في ذلك الوقت مما أدى الى تحويل المعسكر الى بحر من الطين ، كما ساعد البرد الشديد والرطوبة العالية على انتشار المرض بين الجنود والخيول . يضاف الى ذلك أن بعض قادة صلاح الدين تذمروا ، وطالبوه بالعودة الى اقطاعاتهم قبل أن يضيع عليهم موسم الزراعة (١) . وجمع صلاح الدين أمراءه واستشارهم فيما يفعل ، فأشاروا عليه بالرحيل ليأخذ العسكر قسطا وافيا من الراحة ، ويستعدوا لهذا الأمر استعدادا جديدا ، فوافقهم صلاح الدين على ذلك ورحل عنها في ٢ ذى القعدة ٥٨٣هـ/ أول يناير ١١٨٨م (٢) .

والذى يجدر ذكره هنا أن المؤرخ ابن الاثير ـ الذى عرف بتحامله على صلاح الدين ـ حمّل صلاح الدين مسئولية ما حدث للمسلمين على صور ، وذكر أنه لم يكن لأحد ذنب فى أمر صور غير صلاح الدين ، فانه هو الذى جهز جموع الصليبيين وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغيرها ، وذلك بسبب افراطه فى التسامح مع خصومه الصليبيين (٣) . أما سبط ابن الجوزى فيرى أن صلاح الدين ضيع الفرصة على المسلمين بتسيير الصليبيين الى صور ، ولم ينظر فى عواقب الأمور ، وأنه كان من الواجب عليه عرضهم على الاسلام ، فان

---

(١) Ehrenkreutz, Saladin. P. 207.

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٤ ، ويذكر ابن الاثير (الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٥٦) أن خلافا وقع بين المسلمين عندما استشارهم صلاح الدين فى أمر صور ، فمنهم من قال بالرحيل ، ومنهم من دعا الى الاستمرار فى الجهاد .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٥٥ ـ ٥٥٦ .

أسلموا والا ضرب رقابهم بالسيف . كما أنه شبه تلك الاحداث بما حدث في معركتي بدر وأحد ، حيث يقول " وما أشبه هذه القضية بفدية الاسارى يوم بدر حيث أشار بعض الصحابة بأخذ ذلك القدر ، وبعضهم أشار بضرب الرقاب ، وما صدر ذلك الرأى الا عن صدر ، فلا جرم قتل منهم يوم أحد سبعون . وأسر سبعون من المسلمين ، كما فعلوا يوم بدر بالمشركين " (١) ويبدو أن ابن الاثير تحامل على صلاح الدين ، لأنه كان ربيب البيت الزنكى ، ولم ينس أن صلاح الدين قضى على ملكهم فى الشام ، ولا يستبعد أن يكون سبط ابن الجوزى قد تأثر بابن الاثير فى ذلك .

والواقع أن تلك الخطة التى اتبعها صلاح الدين مع الصليبيين ، والتى تقوم على تأمينهم مقابل تسليم المدن والحصون له ، أتاحت لصلاح الدين فرصة الاستيلاء على معظم مملكة بيت المقدس فى شهور قليلة ، ما عدا أماكن قليلة منها مدينة صور . وصلاح الدين لم يكن أمامه غير اتباع هذه الخطة ، اذ أنه لو عمد الى الاستيلاء على مدن مملكة بيت المقدس عن طريق القوة والمصابرة لطال أمر القتال . هذا بالاضافة الى أنه قد اختار سياسة التسليم مقابل الأمان عملا بالشريعة الاسلامية السمحاء (٢) .

رأى كونراد مونتفرات أنه ليس فى مقدوره مواجهة صلاح الدين بمن تجمع من الصليبيين فى مدينة صور ، وأنه لابد من استثارة الغرب الأوربى للمشاركة فى

---

(١) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٩٨ .
(٢) أنظر نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ١٩٩ .

قتال المسلمين فأرسل رسله الى البابوية وملوك وأمراء الغرب الأوربي يطالب منهم النجدة السريعة والمشاركة في اعادة الوجود الصليبي في الشرق . فذكر ابن شداد وأبو شامة نقلا عن العماد أنه « صور القدس في ورقة عظيمة ، وصور القمامة (كنيسة القيامه) التي يحجون اليها ويعظمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد رحيله بزعمهم ..... فصور القبر وصوّر عليه فرسا عليه فارس مسلم راكب ، وقد وطئ قبر المسيح وقد بال الفرس على القبر . » وأرسل كونراد هذه الصورة الى معظم بلاد غرب أوربا حيث حملها القسوس، ورؤوسهم مكشوفه وعليهم المسوح ، وهم ينادون بالويل والثبور في المجامع والاسواق . (١)

وأرسل كونراد القسوس والرهبان ، وغيرهم من الفرسان الذين لبسوا السواد ، وساروا الى الغرب الاوربي يتقدمهم بطريرك بيت المقدس ، وقد صوروا المسيح عليه السلام وجعلوه مع صورة اعرابي يضربه وقالوا لهم « هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله » وأخذوا يستنجدون الناس هناك ويحثونهم على المسير الى الشرق والأخذ بثأر بيت المقدس . (٢)

وكانت البابوية كعادتها أول من استجاب للنداء الذي وجهه كونراد

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ ، ابوشامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٠ ، ابن سعيد المغرب في حلى المغرب، ص ١٦٥ .

(٢) الحنبلي ، شفاء القلوب ، ورقة ٤٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ، ابن ايبك الدواداري ، الدر المطلوب ، ص ٩٨ ـ ٩٩ .

وكان البابا أوربان الثالث قد تقدم به السن ، وتولاه المرض ولم يحتمل أنبـاء كارثة سقوط بيت المقدس فى أيدى المسلمين فمات حزنا وهما على ضياع بيت المقدس وذلك فى شعبان من سنة ٥٨٣هـ/ اكتوبر ١١٨٧م ، وخلفه البابا جريجورى الثامن الذى بادر بارسال الكتب الى ملك انجلترا وملك فرنسا وامبراطور المانيا يطلـب منهم جميعا أن يتناسوا ما بينهم من خصومات وحزازات ويستعدوا للمسير الـى الشرق الاسلامى لاعادة الوجود الصليبى هناك (١) .

غير أن القدر لم يمهل البابا جريجورى الثامن ليرى ثمار جهوده ، فقـد توفى بعد حوالى شهرين من توليه منصب البابوية (اكتوبر - ديسمبر ١١٨٧م) ليلى منصب البابوية بعده البابا كلمنت الثالث (١١٨٧ - ١١٩١م) الذى واصل سياسة سلفه جريجورى فى الاعداد لحملة صليبية ثالثة . وأسرع البابا كلمنـت الثالث الى الاتصال بالامبراطور فردريك بربروسا وعمل على استرضائه بكل الوسائل محققا بذلك الوفاق بين الامبراطورية والبابوية (٢) . وجه البابا كلمنت الثالث أيضـا دعوة عامة الى كافة المسيحيين فى الغرب الاوربى يطلب منهم الاشتراك فى حملـة صليبية لاسترجاع بيت المقدس من المسلمين . وهددهم بأن يحرم عليهـم مطاعمهم ومشاربهم قائلا " من لا يتوجه الى القدس مستخلصا فهو عندى محـرم لا منكح له ولا مطعم " (٣) .

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٤٣ .

(٢) سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٣٩٤ .

(٣) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٢ ، ابن واصل ، مفـرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٣٣ ، ابن الفرات ، ج م٤ ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

وهكذا نجح كونراد مونتفرات الذى تولى زعامة الصليبيين فى الشرق بمساعدة البابويه فى استثارة ملوك وأمراء أوربا وحملهم على تناسى ما بينهم من حزازات وأحقاد وخلافات داخلية ، ومن ثم حثهم على المسير الى المشرق الاسلامى لمحاولة اعادة الصرح الصليبى الذى انهار أمام جيوش صلاح الدين.
وقدم الصليبيون الى بلاد الشام باعداد كبيرة لا تحصى . يدلنا على ذلك الرسالة التى بعث بها صلاح الدين الى الخليفة العباسى فى بغداد فى سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م يخبره بذلك والتى قال فيها " وقد بلى الاسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت ، واستجابوا الصوت ، وفارقوا المحبين والاوطان ، وهجروا المألوفين والأهل والديار ، وركبوا اللجج ووهبوا المهج ، كل ذلك طاعة لقسيسهم وامتثالا لأمر مركيسهم " (١) . وخرج المسيحيون على اختلاف فئاتهم وأجناسهم ومن عجز عن الخروج بنفسه جهز بعدته وثروته من يقدر على السفر (٢) . وخرجت النساء للاسهام فى الحملة الصليبية الثالثة ، فمنهن من خرج وبصحبتهن الفرسان ، وقد تكفلن بجميع ما يحتاجون اليه من مؤن وعتاد ، وعلى سبيل المثال ذكر ابو شامه وغيره أنه فى سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م وصل فى البحر الى بلاد الشام امرأة مسيحية جليلة القدر وفى صحبتها خمسمائة فارس بخيولهم واتباعهم ، وقد تكفلت بكل ما يحتاجون اليه " فهم يركبون لركوبها ويحملون بحملاتها ويثبون لوثباتها " (٣) . ومنهن من خرج

---

(١) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦١ ــ ١٦٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٣٢ ، ابن الفرات ، م٤ ، ج ١ ، ص ٢٢٩ .
(٢) العماد ، الفتح ، ص ٣٣٨ .
(٣) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩ ، العماد ، الفتح ص ٣٤٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ .

وقد لبسن الدروع وكن في زى الرجال للاشتراك في المعارك بأنفسهن لاعتقادهن أن عملهن ذلك عبادة (١) ، ومنهن من خرج لإسعاف الغرباء واسعاد الصليبيين بتسبيل أنفسهن لهم للاستمتاع بهن حتى لا يتسرب الملل الى نفوس المحاربين (٢) .

أما وليم الثانى ملك صقلية فقد بادر بارسال اسطول فى سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م يشتمل على ستين قطعة بها عشرة آلاف مقاتل أسند قيادته الى رجل من رجال البحر يدعى « المرغريط » فأبحر ذلك الاسطول الى مدينة صور ثم رجع الى طرابلس ولم ينفع الصليبيين بشىء لأن ما به من المسيرة لم تكن تكف ماعليه من الرجال (٣) .

الحملة الصليبية الثالثـــة ردخول الصليبية عكا سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م :

والواقع أن تلك الانتصارات العظيمة التى حققها صلاح الدين فى تلـك السنوات القليلة الواقعة بين سنتى ٥٨٣هـ ــ ٥٨٥هـ/١١٨٧ ــ ١١٩٠م ومـا ترتب عليها من قتل وأسر الاعداد الكثيرة من الصليبيين وتشريد البقية الباقيـة منهم الى صور ، كان له الأثر البالغ على نفوس المسيحيين الغربيين خاصة بعـد أن وصلتهم رسل اخوانهم فى بلاد الشام ، الذين شرحوا لهم ما لحق بهم مــن

(١) العماد ، الفتح ، ص ٣٤٩ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

(٢) العماد ، الفتح ، ص ٣٤٧ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٥٥٨ .

كوارث من جراء انتصارات المسلمين عليهم ٠ الأمر الذى جعلهم بمساعدة جهود البابا كلمنت الثالث الذى أثار الحماس الصليبى فى نفوسهم ضد الاسلام والمسلمين يتناسون ما بينهم من خلافات ويعقدون العزم على المسير الى بلاد الشام لمحاولة استعادة بيت المقدس من المسلمين ٠ فأعدوا لذلك الغرض حملة ثالثة ، فرضوا لتمويلها ضريبة خاصة أطلقوا عليها " عشور صلاح الدين "(١) وكان الغرب الأوربى فى ذلك الوقت يمر بفترة سياسية حرجة بسبب النزاع بين البابوية والامبراطورية وذلك العداء التقليدى بين ملوك أوربا وحكامها(٢) ٠ لذلك فان البابا(٣) كلمنت الثالث توسل بكافة الوسائل لاسترضاء عدو البابوية اللدود الامبراطور الألمانى فردريك بربروسا ، وكذلك بعث برسائله الى كل من ملك فرنسا وملك انجلترا والامبراطور الالمانى يحثهم على تناسى خلافاتهم ، وبالتالى أراد البابا أن يضع نهاية لتلك الفتن والحوادث الدامية فى أوربا بتوجيه زعمائها الى المشرق الاسلامى لاستعادة بيت المقدس من صلاح الدين ٠

---

(١) Ehrenkreutz, Saladin, P. 222.

(٢) كانت الكنيسة فى أوربا فى العصور الوسطى ، تعانى من ثلاثة أمراض خطيرة هى : السيمونية أى شراء الوظائف الكنيسية بالمال ، وزواج رجال الدين ، والتقليد العلمانى ، أى قيام الحكام العلمانيين بتعيين رجال الدين ٠ وعندما حاول البابا جريجورى السابع الذى اعتلى كرسى البابوية سنة ١٠٧٣م معالجة أمراض الكنيسة فى شدة وحزم ، دخل فى نزاع مع الامبراطور هنرى الرابع ، وبدأ دور من أدوار النزاع بين البابوية والامبراطورية الذى كان سمة بارزة من سمات تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (أنظر سعيد عاشور ، أوربا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٣٤٥ ــ ٣٥٧) ٠

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٤٤ ٠

وتناسى ملوك وحكام الغرب الاوربى ما بينهم من خلافات وحزازات وأحقاد وعقدوا العزم استجابة لدعوة البابا على تسيير حملة صليبية الى بلاد الشام ٠ وكان أول من استجاب لهذه الدعوة فردريك بربروسا أمبراطور المانيا (١) ٠ ففى ربيع سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م بدأت الجيوش الالمانية فى التجمع عند مدينة راتسبون .Ratisbon (٢) استعدادا للمسير الى بلاد الشام ٠ وكان ذلك الجيش بالرغم من كثرته العددية يتمتع بنظام عسكري دقيق ، فكان من يجرى منه جناية ليس له جزاء الا أن يذبح " مثل الشاة " (٣) ٠

---

(١) ولى الامبراطور فردريك بربروسا حكم المانيا بعد وفاة عمه كونراد الثالث عام ١١٥٢م ٠ ويعتبر من أقوى الشخصيات التى تولت حكم ألمانيا منذ عهد أوتو الأول العظيم (٩٦٢ ــ ٩٧٣م) ٠
أنظر (حامد زيان ، الامبراطور فردريك بربروسا ، ص ١٢) ٠

(٢) مدينة راتسبون هى احدى المراكز الرئيسية الالمانية فى العصور الوسطى وكانت من أهم مراكز الحكم الامبراطورى ، تقع بالقرب من الحدود الشرقية الالمانية قريبة من بلاد المجر ٠
أنظر حامد زيان ، الامبراطور فردريك بربروسا ، ص ٢٤) ٠

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٢٦ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ، اختلفت الروايات التاريخية فى تقدير عدد الجيش الالمانى ، فمنهم من قال ثلثمائة ألف مقاتل (النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٦ ورقة ١٣٠ ، العماد ، الفتح ، ص ٣٣٠) ومنهم من قال مائتى ألف (أنظر ابن سعيد ، الروض المعطار ، ج ٢ ، ورقة ١٣٦ أ ، ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ، ابن ايبك الدوادارى ، الدر المطلوب ، ص ١٠٥) ومنهم من قدره بستمائة ألف (أنظر الحنبلى ، شفاء القلوب ، ورقة ٤٥ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١١٤) ومنهم من قصره على مائة ألف مقاتل (أنظر صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص ٢٠)

وسار ذلك الجيش يتقدمه الامبراطور فردريك بربروسا وبصحبته أحد ابنائه ؛ سالكا الطريق البري باتجاه القسطنطينية ، حيث عبر بلاد الهنكر (المجر) بالقوة . ولكنه ما أن وصل الى القسطنطينية حتى واجه عداء شديدا من الامبراطور البيزنطي اسحق الثاني انجليوس الذي بعث الى حليفه صلاح الدين يخبره بمسير الالمان ويعده بأن لا يمكنهم من عبور بلاده ، الا أن المصادر تذكر أن الامبراطور البيزنطي لم يستطع منعهم من العبور ، ولكنه لم يسعفهم بشيء من المؤن والعتاد ، فقلت عليهم الأقوات ، وعبروا خليج القسطنطينية (البسفور) وقد اشتدت ضائقتهم وحل بهم كرب شديد (١) .

ولما عبروا الى آسيا الصغرى تعرضوا لمتاعب كثيرة بسبب جهلهم بتلك الأماكن لذا سلكوا الأودية على غير هدى ، فكانوا يقطعون الفرسخ الواحد في يومين ، فوقعوا فريسة للخطف من جانب التركمان سكان تلك المناطق ، كما كان لدخول الشتاء أثره البالغ على سيرهم ، حيث تراكمت الثلوج ، فاحتاجوا الى أكل الدواب ، وأحرقوا عددهم لنقص الحطب عندهم ، كما عدموا العلف فأنهكوا وأنهكت دوابهم حتى عجزوا عن حمل عددهم ، فاضطروا الى دفن ما عجزوا عن حمله (٢) .

---

(١) الحنبلي ، شفاء القلوب ، ورقة ٤٥ ، العماد ، الفتح ، ص ٤١٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٨ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣١٧ – ٣١٨ .

(٢) العماد ، الفتح ، ص ١٥١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣١٨ .

ولما قاربوا الوصول الى سلطنة سلاجقة الروم التى كان على رأسها السلطان قليج ارسلان بن مسعود السلجوقى ، نهض اليهم ابنه قطب الدين ملكشاه ، واشتبك معهم فى معركة كبيرة هزموه فيها ، فتراجع الى الوراء الى مدينة قونيه عاصمة السلطنة ، فتعقبه الالمان ، ودخلوا المدينة وأحرقوا أسواقها ، ثم أرسلوا الى والده قليج ارسلان يقولون له " انا لم نصل لأخذ بلادك ، وانما نزلنا لنثأر البيت المقدس " (١) وبعثوا اليه الهدايا وطلبوا منه الهدنة فهادنهم • وبعث هو وابنه الى صلاح الدين يعتذران من تمكين الالمان فى بلدهما ويخبرانه بأنهما غلبوا على ذلك • ومكث الجيش الالمانى مدة من الزمن فى بلاد قليج وتقووا خلالها بما أرادوا من العدد والازواد ثم واصلوا سيرهم • (٢)

وأشار ابن شداد وأبو شامه الى روابط الصداقة بين السلطان قليج ارسلان والامبراطور فردريك بربروسا ، وأن قليج عندما أرسل الى صلاح الدين يعتذر عن عبور ملك الالمان من بلاده ، انما قصد بذلك التظاهر أمام صلاح الدين بالشقاق لملك الالمان ، وهو فى الباطن يضمر له الوفاق ، وأنه أنفذ معه الأدلاء ، وأعطاه الرهائن حتى يضمن له العبور بسلام • (٣) هذا بينما يذكر

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣١٨ ، أنظر أيضا ابن أيبك الدوادارى الدر المطلوب ، ص ١٠٥ •

(٢) الحنبلى ، شفاء القلوب ، ورقة ٤٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٨ـ ٤٩ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٤٠٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣١٨ ـ ٣١٩ •

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٢٣ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٤ •

ابن الاثير أن أسبابا دفعت الملك قليج ارسلان على السماح لملك الالمان بعبور أراضيه ، منها حالة الضعف التي كانت تتعرض لها بلاده بسبب المشاكل الداخلية نتيجة تقسيمه ملكه بين أبنائه (١) . يضاف الى ذلك ما كان يتعرض له قليج أرسلان من ضغط بسبب التحالف بين خصميه صلاح الدين من ناحية والامبراطور البيزنطي من ناحية أخرى (٢) .

وعلى كل فتلك التسهيلات التي منحها قليج للامبراطور فردريك بربروسا لم تنفع الجيوش الالمانية بشيء اذ تعرضت أثناء عبورها لبلاده لهجمات عديدة . الأمر الذي أغضب ملك الالمان فقبض على الأدلاء والرهائن الذين سيرهم قليج معه وقيدهم بعد أن أخذ ما معهم ووضعهم في الأسر . فمنهم من فدى نفسه وخرج ، ومنهم من مات في الأسر (٣) .

وأصل الألمان سيرهم رغم تلك المتاعب الشديدة التي تعرضوا لها ، حتى وصلوا الى بلاد الأرمن . فرحب بهم أميرها ابن لاون ، وقدم لهم ما يحتاجون اليه من المؤن والازواد والعلوفات ، وأرشدهم الى أسهل الطرق (٤) . وكان أمير أرمينية يأمل في أن يتوج ملكا على أرمينية الصغرى ، حتى لا يبدو في مكانة أقل

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٧ .
(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٤٧ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣١٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٢١ .

من مكانة الامراء الصليبيين المقيمين ببلاد الشام من جهة ، وليبعد عنه أطماع الامبراطور البيزنطي من جهة أخرى . ويبدو أن أمير أرمينية قد علق آمالا كبيرة على كل من البابا والامبراطور الالماني في تحقيق هدفه هذا (١) .

لم يطل مقام الالمان ببلاد ابن لاون بل واصلوا سيرهم بعد أن هداهم الطريق ، ونزلوا بطرسوس (٢) وقد انهكهم السفر بسبب ما تعرضوا له من متاعب في طريقهم ، فأرادوا الاقامة هناك أياما ليريحوا أنفسهم . الا أن القدر خبأ لهم خلاف ذلك ، فحدث لهم حدث مفاجئ قلب الموازين رأسا على عقب ، حيث مات الامبراطور فردريك بربروسا غريقا في أحد الأنهار وذلك سنة ٥٨٦هـ/ ١٠ يونيه ١١٩٠م . واختلفت آراء المؤرخين في تعليل أسباب وفاته فذكر العماد وابن واصل أن الالمان عندما عبروا نهر سالف التطم الموج بهم، فطلب الملك موضعا يعبر فيه وحده ، فدخل في مخاضة قوية فاختطفه تيار الماء واصطدم بشجرة شجت رأسه ، فاستخرجوه وهو في آخر رمق وهلك بعد قليل (٣) .
وأشار ابن شداد وغيره الى أن فردريك بربروسا نزل على شط أحد الأنهار ، واستحم في ماء ذلك النهر . فأصابته برودة ذلك الماء بمرض مات على أثره بعد

---

(١) سعيد عاشور ، سلطنة المماليك وارمينية الصغرى في كتاب بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ص ١٤٤ ، حامد زيان ، الامبراطور فردريك بربروسا ، ص ٥٠

(٢) طرسوس : مدينة بثغور الشام بين انطاكية وحلب وبلاد الروم ، (أنظر ياقوت معجم البلدان) .

(٣) العماد ، الفتح ، ص ٣٩١ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣١٩ .

أيام قلائل . أما ابن الأثير ، فقد ذكر أن فردريك دخل النهر يريد الاغتسال فغرق .(٢) (١)

ومهما يكن من أمر ، فان الذي يهمنا هو أن الامبراطور فردريك بربروسا قد هلك دون أن يحقق هدفه في المشاركة في استعادة بيت المقدس من يد صلاح الدين ، فضلا عن أن ذلك الحدث المفاجئ كان له أثر كبير على فشل الحملة الصليبية الثالثة اذ أن جزءا كبيرا من الجيش الالماني قد عاد عقب وفاته الى أوربا .(٣) بالاضافة الى أن الصليبيين قد فقدوا بوفاته شخصية كبيرة لو أنها وصلت الى عكا لوجد منها صلاح الدين متاعب كثيرة .(٤)

وبموت الامبراطور فردريك بربروسا حلت بالالمان كوارث كثيرة ، فقد اختلفوا منذ البداية حول من يخلفه في قيادة الحملة الصليبية الالمانية ، حيث مال بعضهم الى تولية ابنه فردريك السوابي ، بينما مال بعضهم الآخر الى تولية أخ لفردريك السوابي أكبر منه .(٥) ولما ان رأى الملك الأرمني ما حل بالألمان من التفكك والضعف بعد موت فردريك بربروسا ، حتى آثر أن لا " يلقى بنفسه بينهم ، فانه لا يعلم كيف يكون الأمر وهم أفرنج ، وهو أرمني فاعتصم هو عنهم في بعض قلاعه

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٢٥ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٥٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٣٠٣
(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٩ .
(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٩ .
(٤) أنظر ، نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ٢٣٩ .
(٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٩ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤٠٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٢٢

المنيعة » . (١) وتفرق الالمان بعد موت ملكهم فمنهم من عاد الى أوربا ، ومنهم من سار مع الامير فردريك السوابى الذى خلف والده فى قيادة الجيش الألمانى . وعند مسير بقايا الحملة الى انطاكية حل بهم وباء شديد ذهب ضحيته كثير من رجالهم ، ووصلت البقية الباقية الى انطاكية « وكأنهم قد نبشوا من القبور » على حد قول المؤرخ ابن الاثير (٢) ،

وما ان وصل الالمان الى انطاكية حتى تبرم بهم صاحبها بوهيمند الثالث وثقلت وطأته عليهم ، وطمع فى الاستيلاء على أموالهم وعتادهم . فاشار عليهم بالمسير الى حلب وحسن لهم طريقها . الا أن فردريك السوابى لم يستجب لمشورة بوهيمند ، وانما طلب منه أن يعطيه قلعة انطاكية ليودع بها ماله وخزائنه وأثقاله ، فوافق بوهيمند على ذلك على أمل أن يفوز بما يودع فيها من الأموال والعتاد . وكان الأمر على ما أراد ، فان الالمان لما فارقوا انطاكية لم يعودوا اليها ثانية ، ففاز بوهيمند بكل ما أودعوه فيها (٣) .

وفى الوقت نفسه تعرضت فرقة من الالمان لكارثة أخرى كان لها أثر كبير فى اضعاف نفسياتهم ، فقد اتجهت هذه الفرقة الالمانية صوب بغراس وهم يظنون أنها لا تزال فى أيدى اخوانهم الصليبيين ، وما ان وصلوا اليها حتى

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٢٤ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٩ ، أنظر أيضا ابوشامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٦ .
(٣) العماد ، الفتح ، ص ٣٩٥ ، ابو شامه كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

فتحت أبواب القلعة وهجم المسلمون على الألمان فأستولوا على ما معهم من الاموال والاسلحة والعتاد ، وقتلوا منهم وأسروا العدد الكثير . كما خرج أيضا بعض سكان حلب وتفرقوا فى طريق الالمان وأخذوا يتخطفونهم ، فأسروا منهم أعدادا كثيرة باعوهم فى الاسواق بأثمان زهيدة (١) . كما أن ذلك يدلنا أيضا على مدى تلك العزلة التامة التى فرضها صلاح الدين على الصليبيين ببلاد الشام ، بعد احكام سيطرته على مدن الساحل ، حتى أن الصليبيين فى الغرب الأوربى لم يكن فى مقدورهم التمييز بين المدن والقلاع التى استولى عليها صلاح الدين وبين التى لا تزال فى أيدى اخوانهم الصليبيين فى الشرق .

وأخيرا قرر فردريك السوابى بعد تلك الكوارث التى حلت لجيشه الاتجاه الى عكا . ففى يوم الأربعاء ٢٥ رجب من سنة ٥٨٦هـ/ أغسطس ١١٩٠م سار على رأس جيشه الى عكا عن طريق جبلة واللاذقية . وانتهز المسلمون فى اللاذقية فرصة مرور شراذم الالمان ، فخرج رجالها عليهم ، فقتلوا وأسروا منهم أعدادا كثيرة . ولما وصل الالمان الى طرابلس أقاموا بها للراحة ، فنزل بهم وباء شديد مات على أثره أكثرهم .

---

(١) الحنبلى ، شفاء القلوب ، ورقة ٤٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٩ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ ، وبغراس مدينة بينها وبين انطاكية أربعة فراسخ على يمين القاصد الى انطاكية من حلب فى البلاد المطلة على طرسوس (أنظر ياقوت ، معجم البلدان) .

ولم يبق منهم سوى حوالى ألف رجل ركبوا فى البحر يتقدمهم فردريك السوابى قاصدين عكا للانضمام الى بنى جنسهم هناك لمؤازرتهم فى حصارها ، فوصلوا الى عكا فى ١٦ رمضان سنة ٥٨٦هـ/ اكتوبر ١١٩٠ م .(١)

وتنبغى الاشارة الى أن صلاح الدين لم يهمل أمر الحملة الالمانية منذ علمه بمسيرها اليه . فقد استنفر الناس للجهاد ، فبعث رسولا فى رمضان من سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م من قبله وهو القاضى بهاء الدين بن شداد الى الخليفة العباسى فى ذلك الوقت الناصر لدين الله ابو العباس احمد بن المستضئ لاعلامه بمسير الالمان الى بلاد الشام . وأمر صلاح الدين القاضى ابن شداد بالمسير فى طريقه الى أمراء الموصل وسنجار والجزيرة واربل لاستدعائهم للجهاد ، فأجابوا الى ذلك ، وتأهبوا للمسير الى صلاح الدين . كما وعد الخليفة العباسى " بكل جميل " وأمد صلاح الدين بالمال والعتاد .(٢)

وتابع صلاح الدين فى الوقت نفسه تقدم الالمان اليه عن طريق ارسال العيون (الجواسيس) لكشف أخبارهم . كما أرسل نوابه فى البلاد الشامية عساكرهم لكشف أخبار العدو واعتراض طريقه ، فوقعوا على فرقة من جيش

---

(١) الحنبلى ، شفاء القلوب ، ورقة ٤٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٩ ، ابوشامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، م٤ ، ج ١ ، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١١٥ ، أنظر أيضا ، النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٦ ، ورقة ١٣٠ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .

الالمان ، قد خرجت لطلب العلوفة للدواب ، فقتلوا وأسروا منهم زهاء خمسمائة نفس . (١)

ولما تحقق صلاح الدين من وصول الالمان الى بلاد الأرمن وقربهم من البلاد الاسلامية ، جمع أمراء دولته وشاورهم فيما يصنع ، فاتفق رأيهم على تسيير عسكر كبير لملاقاة العدو في طريقه وحماية بعض المدن ، فسارت تلك الجموع الاسلامية يتقدمها عدد من أمراء المسلمين فكبدت العدو الألماني في طريقه خسائر جسيمة . (٢) كما أمر صلاح الدين بهدم أسوار طبرية ويافا وارسوف وقيسارية وصيدا وجبيل ، وذلك لأنه خشى سيطرة الصليبيين عليها واستخدام تلك الأسوار في محاربة المسلمين . (٣)

والحقيقة أن حملة الالمان الصليبية فشلت عندما غرق قائدها الامبراطور فردريك بربروسا في أحد أنهار آسيا الصغرى ، وتشتت جموع الالمان في الشام مما حال دون وصولهم الى بيت المقدس ، وتحقيق هدفهم باسترجاعه من أيدى المسلمين .

وأخيرا فاذا كان فردريك بربروسا قد عجل الخروج الى المشرق على رأس

---

(١) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٠ ، ابن واصل ، ج ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٢٦ ــ ١٢٧ .

(٣) العماد ، الفتح ، ص ٣٩٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٥٠ .

حملته الصليبية ، وأختار لها الطريق البرى الى بلاد الشام ، فان فيليب أوغطس ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا لم يتركا الغرب الأوربى فى حملة صليبية الا فى صيف ٥٨٦هـ/١١٩٠م ، وأختارا الذهاب الى عكا بحرا .

دخول الصليبيين عكا سنة ٥٨٧هـ :

كان لمدينة عكا — كما سبق القول — أهمية تجارية كبيرة لدى المسيحيين فى عصر الحروب الصليبية ، كما كانت فى ذلك الوقت أكبر سوق للتجارة فى البحر المتوسط . (١) واحتلت عكا أهمية استراتيجية كبيرة ، فبمجرد نظرة سريعة الى خريطة تضم مدن الساحل الشامى ، نلحظ أن مدينة عكا تتوسط تقريبا ذلك الشريط الساحلى الذى تمتد عليه مدن عدة ، الأمر الذى يجعلها كالقلب النابض لامداد تلك المدن الممتدة شمالها وجنوبها بما تحتاجه من الاسلحة والمؤن والعتاد

وأدرك المسلمون ما يعلقه الصليبيون من أهمية بالغة على تلك المدينة ، لذلك أدرك صلاح الدين ضرورة الاستيلاء عليها لحرمان الصليبيين فى بلاد الشام من المساعدات الأوربية عن طريق هذا الميناء الهام . وأبلغ دليل على ذلك ما قام به صلاح الدين عقب استرداد بيت المقدس بالمسارعة الى تحصينها بترميم أسوارها وتشييد أبراجها تحسبا لما قد تتعرض له من هجوم من قبل الصليبيين . (٢)

وتحقق ما توقعه صلاح الدين ، فالصليبيون ببلاد الشام وكذلك من وفد

(١) أنظر ما سبق ص

(٢) أنظر العماد ، الفتح ، ص ٢٧٦ .

اليهم من الغرب ، لما علموا بما حل بالحملة الالمانية من كوارث أدت الى عجزها عن الوصول لنجدتهم ، وكذلك علموا بما قام به زعماء الحملتين الفرنسية والانجليزية من اضاعة الأشهر الطويلة في جزيرة صقلية فضلا عن اتجاه ريتشارد الى جزيرة قبرص واستيلائه عليها ، رأوا أنه لم يبق أمامهم سوى الاعتماد على أنفسهم وعلى ما عساه يصلهم من جموع صليبية متفرقة ، يستغلونها في الدفاع عما بقي من أشلاء مملكة بيت المقدس والامارات الصليبية ببلاد الشام (١). وفي ذلك الوقت ظهر على مسرح الاحداث ملكهم السابق جاي لوزجنان الذي كان قد أسر في معركة حطين ، والذي حظي بشهامة صلاح الدين ووفائه بوعده الذي كان قد قطعه له فأطلق سراحه ، بعد أن تعهد لصلاح الدين بعدم معاداة المسلمين . وكما سبق القول فان جاي لوزجنان لم يف بوعده لصلاح الدين ، بل اتجه الى صور واتفق مع كونراد مونتفرات على حرب المسلمين (٢).

وجد الملك جاي لوزجنان نفسه يشعر بثقة كافية ليقود جيشه الذي ارتفعت روحه المعنوية بتوليه قيادته ليتحول من مجرد الدفاع عن أشلاء مملكة بيت المقدس والامارات الصليبية الى محاولة استرداد مدنهم التي كان صلاح الدين قد استولى عليها (٣) وعزم جاي لوزجنان على تجريد حملة ضد مدينة عكا ، فسارت جموع الصليبيين من صور في رجب من سنة ٥٨٥هـ/أغسطس ١١٨٩م . ومما يدل على سيطرة المسلمين على مدن ومعاقل الساحل الشامي ان الصليبيين قد

---

(١) أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٥٢ .
(٢) أنظر ما سبق ، ص
(٣) Ehrenkreutz, Saladin. P. 213.

سلكوا في طريقهم الى عكا ساحل البحر ، ولم يكن في مقدورهم الابتعاد عنه مهما كلفهم ذلك من مشقة الطريق ، ومراكبهم تسير في مقابلهم في البحر فيها سلاحهم وذخائرهم . وعلى الرغم من ذلك الاحتراس فان يزك المسلمين (١) الذى كان قد تفرق على طول الطريق الذى عبروه استطاع أن يتخطف منهم أعدادا كثيرة . (٢)

وما أن علم صلاح الدين بمسير الصليبيين الى عكا حتى عظم عليه الأمر ، ولكنه لم يسارع بادئ الأمر بالمسير اليهم لأنه ظن أن تحركهم ذلك كان بهدف خداعه ليترك حصار قلعة شقيف ارنون التى كان يحاصرها وقتذاك (٣). الا أنه عندما تأكد له عزم الصليبيين على المسير الى عكا جمع أمراءه وأصحاب الرأى من جيشه واستشارهم فى الأمر . وهنا يذكر ابن الاثير أن صلاح الدين خيرهم بين المسير بمحاذاة الصليبيين فى طريقهم الى عكا ومقاتلتهم وهم سائرون وبين أن يسلكوا طريقا آخر غير الذى سلكه الصليبيون ، ويجتمعوا بهم على عكا . وفضل معظم أصحابه الرأى الثانى محتجين بأن السير بمحاذاة الصليبيين فيه مشقة عليهم بسبب وعورة الطريق وضيقه (٤). أما العماد وغيره ممن نقل عنه ، فيذكرون أن صلاح الدين كان يرى أن يسايرهم فى الطريق ويواقعهم عند المضيق ليمنعهم من الوصول الى عكا (٥). والحقيقة أن صلاح الدين لو هاجم الصليبيين أثناء سيرهم

---

(١) عن اليزك أنظر ما سبق ، ص
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٣ .
(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠٣ .
(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٤ .
(٥) العماد ، الفتح ، ص ٢٩٧ ، ابوشامه ، كتاب الروضتين ، ج ١٢ ، ص ١٤٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

لاستطاع تحطيم قواهم ومنعهم من الوصول الى عكا ، والدليل على ذلك أن الصليبيين أنفسهم كانوا يشعرون بذلك بدليل اصرارهم على لزوم ساحل البحر أثناء مسيرهم الى عكا مهما كلفهم ذلك من مشقة ، فضلا عن أنهم كانوا عزلا من السلاح الا الخفيف منه ، وذلك لأن معظم أسلحتهم وذخائرهم كانت محملة فى المراكب التى كانت تسير بحذائهم فى البحر . ولعل مما يؤكد ذلك أيضا ما ذكره ابن الاثير من أن العساكر الاسلامية لو اتبعت رأى صلاح الدين فى مسايرة الصليبيين ومقاتلتهم قبل نزولهم على عكا لبلغ غرضه وصدهم عنها (١) .

ومهما يكن من أمر ، فان الجيوش الصليبية بقيادة الملك جاى لوزجنان وصلت الى عكا وعسكرت على تل المصلبين ، وأحاطت بالمدينة احاطة تامة ، ولم يبق للمسلمين طريق اليها . الأمر اضطر صلاح الدين عندما وصل اليها الى اقامة معسكره على تل كيسان وتل العياضية ، حيث أحاط بالصليبيين من الخلف لمنعهم من الخروج وكذلك منع وصول الامدادات اليهم . وبدأ صلاح الدين فى مناوشتهم باليزك فى وقت كانت العساكر الاسلامية تتوافد للجهاد معه من كافة الأقطار فقد وصله وهو على تلك المنزلة كل من عساكر الموصل وديار بكر وسنجار وبلاد الجزيرة وغيرها (٢) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٤ .
(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠٤ ــ ١٠٥ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٤ ، العماد ، الفتح ، ص ٢٩٨ .

ولما رأى صلاح الدين أن الصليبيين قد استداروا بعكا بحيث تمكنوا من منع المسلمين من الدخول والخروج منها ، ثارت همته العالية ، وعزم على فتح الطريق اليها لادخال الميرة والنجدة الى الحامية الاسلامية بالداخل . فاحضر أمراءه وأصحاب الرأى من دولته وشاورهم فى مضايقة الصليبيين . واتفق معهم على مضايقة البلد وفتح ثغرة فيه يستطيع منها ادخال المدد الى الحامية بالداخل . فلما كان يوم الجمعة مستهل شهر شعبان من سنة ٥٨٥هـ/سبتمبر ١١٨٩م ، رتب صلاح الدين عسكره ميمنة وميسرة وقلبا ، ورأى أن يبدأ الحملة عقب صلاة الجمعة تيمنا بدعاء الخطباء . وجرت بين الطرفين حملات كثيرة طوال ذلك اليوم استمرت الى أن حال الظلام بينهما . ولما أصبح يوم السبت ثانى شعبان أنفذ صلاح الدين فرقة من شجعان جيشه الى الناحية الشمالية من عكا مستغلا خلو ذلك الجانب من خيام العدو ، فلما رأى الصليبيون ذلك أسرع جمع منهم لحماية تلك الجهة . الا أن عسكر المسلمين حملوا عليهم حملات منكرة ، فكسروا الصليبيين كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعا كثيرا ، ثم تبعتهم بقية الجموع الاسلامية ، فى حين وقف اليزك الصلاحى مانعا الصليبيين من الخروج من معسكرهم ، ومنع من يحاول الدخول اليهم . وهكذا تمكن المسلمون من فتح الطريق الى داخل عكا ، وصار الطريق سهلا يمر فيه السوقى بحوائجه ، ويمر الرجل أو المرأة دون أن يعترض طريقه أحد ، واليزك واقف بين الطريق وبين العدو . ودخل صلاح الدين فى ذلك اليوم الى عكا ومعه الجموع الكثيرة من جيشه ، وأشرف على أمورها وأدخل اليها ما أراد من الرجال والذخائر والسلاح والاموال .(١)

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠٥ — ١٠٦ ، ابن الاثير ، الكامل ج ١٢ ، ص ٣٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ — ٢٩٣ ، ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٧ ، ص ١٩٤ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، =

ويبدو أن المسلمين عندما دخلوا عكا أدركوا أنهم أصبحوا فى مركز يمكنهم من مهاجمة الصليبيين فى أى وقت ، لذلك تراجعوا عن القتال بعد فتحهم الطريق الى عكا لسقى الدواب وأخذ الراحة ، على أن يعاودوا قتال العدو صباح الأحد ثالث شعبان . فلما كان الصباح تهيأ المسلمون للقتال وعزموا على مهاجمة العدو . ولكن بعض الأمراء المسلمين رأوا تأخير ذلك الهجوم الى بكرة الاثنين رابع شعبان ، وأن يدخل المسلمون كلهم الى داخل عكا ، ويخرجوا مع العسكر المقيم بالبلد لمهاجمة العدو فى الخارج . وبالفعل دارت رحى الحرب يوم الاثنين بين المسلمين والصليبيين ، وهاجم المسلمون العدو الصليبى الذى احتمى بخيامه ، وظلت الحرب قائمة بين الطرفين حتى يوم الجمعة ثامن شعبان حيث عزم الصليبيون على ترك خيامهم والانتشار على التلال ، وملاقاة المسلمين الذين ازدادوا همة وشجاعة ، وأقدموا بدورهم لملاقاة الصليبيين . ودار بين الطرفين قتال استمر الليل مع النهار حتى كان الحادى عشر من شعبان ، حيث أدرك صلاح الدين أن تلك الخطة لا جدوى منها ، وأن من الأفضل توسيع الدائرة على الصليبيين لعلهم يخرجون الى مصارعهم . ونقل صلاح الدين ثقله الى تل العياضية ، وهو تل قبالة تل المصلبين يمتاز باشرافه على عكا وخيام العدو .(١) وفى تلك المنزلة جرت بين الطرفين مناوشات متقطعة ، فكان المسلمون

= ص ١٠٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٤٣ — ٤٤ ، ابن الوردى ، تتمة المختصر ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠٧ — ١٠٨ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٣ ، ابن واصل مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٤٤ .

يغادرون القتال مع الصليبيين ويراوحونه ، والصليبيون لا يظهرون من معسكرهم ولا يفارقونه (١) . وكان لا يخلو اليوم الواحد من قتل وسبي وجرح ونهب بين المسلمين والصليبيين (٢) .

ويبدو أن الصليبيين وهم في تلك المنزلة ملازمون لخيامهم وعساكر المسلمين تهاجمهم صباحا ومساء ، أدركوا أن ذلك سوف يكبدهم خسائر جسيمة ، اذ هو بمثابة استنزاف لهم . لذلك لما كان يوم الاربعاء الحادى والعشرون من شعبان تحركت عساكرهم حركة عظيمة لم يسبق لها مثيل - ويبدو أن وصول كونراد دى مونتفرات من صور على رأس قواته اليهم أواخر شهر أغسطس سنة ١١٨٩م قد شجعهم على تلك الانتفاضة (٣) . واصطف الصليبيون خارج خيمهم تعبئة للقتال ، وعزموا على مهاجمة المسلمين . وفى المقابل فان صلاح الدين ما أن علم بتحركهم ذلك حتى أمر الجاويش (٤) بالمناداة فى جيشه " يا للاسلام " فركب المسلمون تعبئة القتال . ولم يزل الصليبيون يتقدمون والمسلون يسيرون فى اتجاههم حتى علا النهار وبدأ القتال بتحرك ميسرة الصليبيين على ميمنة المسلمين ، ثم ما لبثت المعركة أن اشتدت بين الطرفين واشتركت فيها كل الفرق . وتعرضت ميمنة المسلمين للضغط من جانب ميسرة العدو فتراجعت الى

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٦ .
(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠٨ .
(٣) أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٥٧ .
(٤) عن الجاويش أنظر ما سبق فى الفصل الثانى .

تل العياضية . أما ميسرة المسلمين ، فانها ثبتت لأنها لم تصادف هجوما قويا . وهنا أخذ صلاح الدين يقوى الروح المعنوية فى نفوس جنده ، فأخذ يطوف على الاطلاب (١) يعدهم الوعود الجميلة ، ويحثهم على الجهاد . الأمر الذى قوى من عزيمة المسلمين للعودة الى القتال خاصة بعد أن رأوا أن ميسرتهم لا تزال ثابتة ، فعادوا الى ميدان القتال وحملوا مع بقية الجيوش الاسلامية على الصليبيين الذين أخذتهم " سيوف الله من كل جانب " وقتل وأسر منهم جمع كثير ، وكان من جملة الاسرى مقدم الداوية الذى كان صلاح الدين قد أسره وأطلقه (٢) .

ولما قتل من الصليبيين ذلك العدد الكثير ، وجافت الأرض من نتن ريحهم خشى صلاح الدين على جيشه من نتيجة ذلك وما قد يسببه من أوبئة فحضر عنده الامراء وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع ، وترك مضايقة الصليبيين ، ووافقهم الاطباء على ذلك ، فأجابهم صلاح الدين الى ذلك ونقل معسكره الى تل الخروبه (٣) وذلك يوم الخميس ٢٩ شعبان ٥٨٥هـ/منتصف أكتوبر ١١٨٩م .

ويبدو أن الصليبيين قد استفادوا من انتقال صلاح الدين الى هذه

---

(١) الاطلاب : جمع طلب : وهو الكتيبة من الجيش ، ومعناه الاصلى الامير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال وأطلق أيضا على قائد المائة أو السبعين (أنظر ابو شامه ، الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ص ٦١٤ ، حاشية) .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠٩ ــ ١١٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٧ ــ ٣٩ ، ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ــ ١٤٦

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١١٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٠ .

المنزلة الجديدة ، وذلك لأن صلاح الدين كان وهو على تل كيسان على اتصال بقواته فى عكا ، أما وقد انتقل الى تل الخروبه فقد غدا فى استطاعة الصليبيين الاحاطة بعكا احاطة تامة ، (١) فضلا عن أنهم وجدوا بذلك الفرج بعد الضيق فشرعوا فى حفر الخندق حول معسكرهم من البحر الى البحر ، وأخرجوا ما كان فى مراكبهم من آلات الحصار وعمقوا الخندق ، وأداروا حولهم سورا مستورا بالستائر وتركوا له أبوابا يظهرون منها عند الحاجة (٢) .

وعلى الرغم مما ذكره بعض الكتاب الاوربيين من أن جيش صلاح الدين لم يكن فى ذلك الوقت فى حالة تمكنه من متابعة نجاحه ، وأن صلاح الدين قد استسلم لرأى قادته بالتراجع لاعطاء العسكر راحة كافية بعد عناء خمسين يوما تحت السلاح ، الأمر الذى مكن الصليبيين من تحصين أنفسهم وتعميق خندقهم (٣) . فانه يمكن القول بأن ذلك لم يكن هو السبب فى تراجع صلاح الدين بل أن هناك أسبابا أخرى دفعته الى ذلك ، منها أنه قصد بتراجعه ذلك انتظار النجدة التى كان يترقب وصولها وفى مقدمتها أخوه الملك العادل الذى وصل اليه بعد انتقاله الى تل الخروبه بمدة وجيزة على رأس قواته البرية فضلا عن وصول الاسطول المصرى . وما أن اقترب الاسطول المصرى من ساحل عكا

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٥٧ .
(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ ــ ٣٠٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٠ ــ ٤١ ،
(٣) Ehrenkreutz, Saladin, p. 214, Lane-Poole, op Cit, P. 2,5.

حتى لقيه اسطول الصليبيين ، فدارت بين الاسطولين معركة بحرية قوية ، تمكن الاسطول المصرى فيها من تكبيد الاسطول الصليبى خسائر جسيمة وغنم منه غنائم كثيرة ، ودخل بعدها الى عكا ، حيث أفرغت المراكب التى تحمل الميرة والذخائر المصاحبة له حمولتها داخل البلد ، فطابت قلوب المسلمين داخل عكا ، وانشرحت صدورهم بذلك (١) . هذا فضلا عن تعرض صلاح الدين لمرض ألم به أثارته تلك الروائح الكريهة التى أعقبت الوقعة الكبرى على عكا ، وكذلك تغير الهواء عليه بسبب تقلبات الطقس (٢) . كما كان لغزارة الامطار التى أصبح الطين على أثرها عميقا لدرجة أن الجيشين كانا لا يمكنهما الاقتراب من بعضهما أثره الكبير فى تراجع صلاح الدين (٣) ، ولا يستبعد أيضا أن صلاح الدين نظرا لحلول شهر رمضان فى ذلك الحين قد رأى تمكين أصحابه من صيامه والاستزادة من العبادة فيه (٤) .

وعلى كل فقد دخلت سنة ٥٨٦هـ/ وصلاح الدين مقيم على الخروبه محاضر للفرنج ويزكه وطلائعه لا تنقطع عن قتال الفرنج فى كل يوم ، ينتظرون وصول حكام المسلمين الذين وجه اليهم الدعوة لمشاركته الجهاد (٥) . فوصله

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٢٢ ، ابن الاثير ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤١ ،

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٠ ، Lane-Poole, op,Cit.P. 266.

(٣) Ehrenkreutz, Saladin. P. 214.

(٤) أنظر نظير حسان سعداوى ، التاريخ الحربى المصرى ، ص ٢٣١ .

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٤ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٠٣

فى ربيع الأول من سنة ٥٨٦ هـ/ ابريل ١١٨٩م رسول الخليفة العباسى ومعه حملان من النفط وجماعة من النفاطين ، ورقعه من الديوان تتضمن أن يقترض مبلغا من المال من التجار ينفقها فى الجهاد على أن يتولى الديوان العزيز ردها (١) . كما وصله فى الشهر نفسه ولده الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب بوسمة جيوشه لخدمته والجهاد معه . وفى ربيع الثانى من السنة نفسها وصله عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى صاحب سنجار على رأس عسكره . وفى جمادى الأولى وصله سنجرشاه معز الدين صاحب الجزيرة على رأس عسكره أيضا ، كما وصله فى الشهر نفسه علاء الدين خرمشاه بن مسعود بن مودود ابن زنكى نائبا عن ابيه عز الدين مسعود صاحب الموصل ، كما وصله فى الشهر نفسه أيضا زين الدين على بكتكين صاحب اربل (٢) . ولا شك أن صلاح الدين قد فرح بمقدم هذه الجيوش التى يدل تجمعها ، واستجابتها له بالمسير اليه لمشاركته الجهاد ، على تأصل فكرة مشروعية الجهاد الاسلامى فى نفوسهم ، وحبهم الشديد للدفاع عن حوزة الاسلام ، واعلاء كلمة الله ورد كيد المعتدين.

وبالفعل فقد تمكن صلاح الدين بعد وصول تلك الامدادات من الحاق خسائر فادحة بالصليبيين الذين كانوا قد تمكنوا خلال مقامه بالخروبة من اقامة

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١١٨ ـ ١١٩ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١١٨ ـ ١٢٣ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٣ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

أبراج ثلاثة من الخشب على عكا طول كل واحدة منها ستون ذراعا ، وكل برج منها مكون من خمس طبقات كل طبقة مملوءة بالمقاتلين . وما أن رأى صلاح الدين ما سببته تلك الابراج من مخاوف للمسلمين داخل عكا ، حتى أخذ يفكر في احراقها واهلاك من بداخلها . فجمع الصناع من الزراقين والنفاطين وباحثهم في الاجتهاد في احراقها ، فتقدم لذلك الأمر شاب دمشقي ، استطاع احراق هذه الابراج الثلاثة وهلاك من بها ، وذلك أنه تمكن من ابتكار عملية كيميائية بارعة ، تتلخص في طبخ بعض الأدوية مع كميات من النفط في قدور من النحاس ومن ثم رميها على تلك الابراج الثلاثة . وفي الوقت نفسه تقدمت جيوش المسلمين الى ذلك المكان ، وانزلت بالصليبيين خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد .(١)

والواقع أن صلاح الدين الذى أهتم بالجهاد ضد الصليبيين في ذلك الحين لم يكتف بتلك الامدادات التى وصلته من المشرق الاسلامى ، بل عمد الى ارسال سفارة من قبله الى ملك المغرب أبى يوسف يعقوب بن عبد المؤمن يطلب منه المدد وذكر له أنه لم ير أهلا لكتابه ولا أكفأ لانجاده الا ذلك الجانب (يقصد ملك المغرب) وذلك لأن همته « لا ترضى أن يعين الكفر الكفر ولا يعين الاسلام الاسلام » (٢) كما طلب منه أن يقطع عن الصليبيين امداداتهم التى كانت

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٢٠ ــ ١٢١ ، العماد ، الفتح ، ص ٣٧٠ ــ ٣٧١ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٥ ــ ٤٦ ، ابن واصل ، التاريخ الصالحى ، ورقة ٢٠٦ ب ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١١٧ .

(٢) أبو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧١ .

تصلهم عن طريق البحر ، وذلك باعتراضها فى عرض البحر . وعند وصول هـذه السفارة الى المغرب فى سنة ٥٨٧هـ/ ١١٩١م تعهد ابو يوسف يعقوب بارسال اسطوله لعرقلة نشاط الصليبيين فى مياه البحر المتوسط (١) .

ويمكن القول بأن الحرب بين المسلمين والصليبيين على عكا لم تسر على وتيرة واحدة بل كانت تأخذ فى معظم حالاتها أسلوب المناوشات المتقطعة ، ولكنها ما تلبث أن تحتدم فتدور بين الطرفين معارك قوية لا تستمر فى غالب حالاتها وقتا طويلا . فقد حدث فى شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٦هـ/يوليه ١١٩١م أن خرج الصليبيون من وراء خنادقهم بعد أن قضوا خلفها وقتا كانوا فيه يتبادلون المناوشات مع الجيش الاسلامى الذى كان يحاصرهم خلف أسوارهم وخنادقهم . وتقدموا نحو عساكر المسلمين . وهنا تختلف الروايات فى السبب الذى دفع الصليبيين الى ذلك التحرك ، فيذكر البعض أن السبب الذى شجعهم على ذلك هو وصول فردريك السوابى ابن ملك الالمان الى عكا على رأس فلول جيش ابيه (٢) . فى حين يذكر العماد الاصفهانى فى كتابه الفتح أن سبب تلك الانتفاضة الصليبية هو سماعهم بقرب وصول ملك الألمان حيث قالوا " انه اذا جاء لا يبقى لنا حكما " وانهم رأوا أن من الافضل أن يقوموا بهجوم على المسلمين قبل

---

(١) أنظر ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٧٠ ـ ١٧٤ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٦٠ .

(٢) الاصفهانى ، البستان الجامع ، ورقة ١٢٩ أ ، العماد ، الفتح ص ٤٠٣

وصوله لكي يشيع اسمهم ويظهرون أمامه بمظهر القوى المنتصر (١) .

ومهما يكن من أمر فان الصليبيين قد وضعوا في أذهانهم — على ما يبدو — انزال ضربة قوية بقوات الملك العادل القادمة من مصر ، واستعدوا لتوجيه ضربة قوية بتلك العساكر الاسلامية المصرية . والتقى الجمعان ، ودار بينهم قتال شديد . وبالرغم من مباغتة الصليبيين لجيش الملك العادل ، فان تلك القوات الايوبية القادمة من مصر تمكنت من التقدم في معسكر الصليبيين والوصول الى خيامهم ، حيث قامت فرقة منها بقطع الامدادات التي كانت تصل الصليبيين في ميدان المعركة . أما صلاح الدين فانه ما أن علم بذلك الهجوم حتى نادى مناديه بالجهاد فركب عسكره تعبئة للقتال ، دارت بين الطرفين معركة حامية انتهت بانتصار مؤزر للمسلمين ، وهذه المعركة هي التي عرفت في المصادر العربية بالوقعة العادلية (٢) .

ولم تقتصر الحرب بين المسلمين والصليبيين على عكا على تلك المناوشات المتقطعة وما صاحبها من معارك ضارية ، بل انها قد اتخذت الى جانب ذلك طابعا آخر استهدف المسلمون منه ما أقامه الصليبيون على عكا من آلات الحصار

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ٤٠٣ .
(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٢٩ — ١٣٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٥١ ، ابوشامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ — ٣٢٧ ، ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات م٤ ، ج ١ ، ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

وأدوات الدفاع . فقد حدث في رجب من سنة ٥٨٦هـ/أغسطس ١١٩٠ أن أشتد طمع الصليبيين في عكا ونصبوا عليها المنجنيقات من كل جانب ، وتناوبوا على رمى البلد بها ليلا ونهارا . ولما رأى من بداخل عكا من المسلمين ما تلحقه تلك المنجنيقات بهم من الضرر ، حركتهم النخوة الاسلامية ، وعزموا على فتح أبواب المدينة ومهاجمة الصليبيين خارجها ، ففعلوا ذلك وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب . وهاجم المسلمون الصليبيين في خيامهم ، فاشتغلوا بحماية خيامهم وتركوا المنجنيقات ، فصوبت اليها شهب الزراقين واشتعلت فيها النيران وأحرقت عن آخرها (١) . وفي شعبان من نفس السنة حاصر الصليبيون برج الذبان ، الذي وصفه ابن شداد ، بأنه برج في وسط البحر مبنى على الصخر على باب ميناء عكا لحراسة الميناء لأن المركب متى عبره أمن غائلة العدو . كما أن الاستيلاء عليه يجعل الميناء تحت سيطرتهم فيمنعون السفن المحملة بالميرة من الوصول الى البلد . وأحضر الصليبيون سفنا جعلوا على صواريها برجا عاليا ملأوه بالحطب والنفط ، على أن يسيروها باتجاه البرج ، فاذا قاربته أشعلوا النيران فيها لاحراق البرج وقتل من عليه من الجنود . وعبسوا سفينة ثانية ملأوها حطبا ووقودا على أن يدفعوها الى أن تدخل بين سفن المسلمين ، ثم يشعلون النيران لتمتد النيران منها الى سفن المسلمين فتحرقها مع ما فيها من الميرة ، كما شحنوا سفينة ثالثة بالجنود ، وجعلوا عليها حاجزا على هيئة قبو يمنع عنهم

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٣٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٣٥ .

سهام المسلمين ، فاذا ما أحرقوا ما أرادوا احراقه دخلوا ذلك القبو . وبالرغم من أن اتجاه الرياح كان بادئ الأمر يسير على ما يريدون ، فان قدرة الله شاءت بعد أن أشعلوا النار فى البرج الذى أقاموه على صوارى السفن ، وكذلك السفينة التى كانوا يزمعون ارسالها بين سفن المسلمين ، أن انعكس اتجاه الريح عليهم فاحترقت سفنهم الأولى التى عليها البرج وكذلك الثانية ، ثم امتدت النيران الى التى بها الجنود وعليهم القبو ، فانزعج من بداخلها من الصليبيين ، ولم يستطيعوا الخروج من القبو فهلكوا جميعا (١) .

وبالرغم من تلك الكارثة التى حلت بالصليبيين عند محاولتهم الاستيلاء على برج الذبان ، فانهم لم ينقطع أملهم فى أخذ ذلك البرج ، حيث عادوا مرة أخرى ، ووضعوا آلة عظيمة على هيئة دبابة (٢) لها رأس عظيم برقبة شديدة من الحديد تسمى كبشا ينطح بها السور فتهدمه بتكرار نطحها ، كما استخدموا آلة أخرى هى عبارة عن قبو فيه عدد من الجنود ورأسه محدد على شكل السكة التى تستخدم فى الحرث تسمى سنورا ، فرأس الكبش مدور يهدم بثقله ورأس السنور يهدم بحدته . كما استخدموا أيضا الستائر والسلاليم الكبار الهائلة . وأعدوا فى

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٣٨ – ١٣٩ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٣ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٣٨ ، أنظر أيضا ، العماد ، الفتح ، ص ٤٢٩ ، Lane-Poole, op Cit. P. 271.

(٢) عن الدبابة أنظر ما سبق ، ص

البحر سفينة عظيمة أقاموا بها برجا بخرطوم اذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ويبقى طريقا الى المكان الذى ينقلب عليه فتمشى عليه المقاتلة وعزموا على تقريبه الى برج الذبان فيأخذوه . ولما اكتملت استعداداتهم شرعوا فى الزحف على البلد ومقاتلته من كل جانب وهم فى خلق لا يحصى . وأمهلهم المسلمون بادئ الأمر حتى نشبت مخاليب أطماعهم فى عكا ، وسحبوا آلاتهم تلك وقربوها من الاسوار ، وعندما أصبحوا على تلك الحالة ، صاح المسلمون عليهم صيحة واحدة ، وفتحوا الأبواب " وباعوا أنفسهم لخالقها وباريها " كما يقول المؤرخ ابن شداد ، وهجموا على العدو من كل جانب وكبسوه فى الخنادق. ولما رأوا ما نزل بالصليبيين من الخذلان والهزيمة هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط ، وتمكنوا من احراقه لهرب المقاتله منه . ثم سرت النار كذلك فى السدور واحرقته ثم علق المسلمون فى الكبش الكلاليب الحديدية وسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم فى البلد ، وكان هذا الكبش يتألف من عدد من الآلات . والقى عليه الماء حتى برد حديده بعد أيام وكان هذا فى رمضان من سنة ٥٨٦هـ/ اكتوبر ١١٩٠م .(١)

ومن هنا يظهر لنا مدى سيطرة المسلمين على الموقف ، وكذلك مدى ما وصل اليه الصليبيون من الهلع والخوف ، حيث لم يكتف المسلمون بالحاق الضرر

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٤٠ ــ ١٤٢ ، العماد ، الفتح ، ص ٤٣٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٣٨ .

بآلات الصليبيين ، بل عمدوا الى الاستفادة منها في جهادهم لتصفيتهم . ولما كان يوم الاربعاء منتصف شهر رمضان خرج المسلمون على ظهور سفنهم ، وباغتوا تلك السفينة الصليبية التي كانت قد أعدت لاخذ برج الذبان ، فضربوها بقوارير النفط ، وباءت محاولة الصليبيين لأخذ البرج بالفشل الذريع (١). وفي جمادى الأولى من سنة ٥٨٧هـ/ يونيه ١١٩١م ، هاجم الصليبيون سفينة اسلامية كانت قد سيرت من بيروت بعد شحنها بالآلات والأسلحة والميرة والرجال ، وكان مقدمهم رجلا شجاعا . فما أن رأى أمارات الغلبة عليهم حتى أشار على أصحابه باغراق سفينتهم بأيديهم لئلا يتمكن العدو من الظفر بها ، فوقعوا في جوانبها بالمعاول حتى دخل الماء اليها ، فغرقت ، وغرق جميع ما فيها من الآلات والميرة ، ولم يظفر العدو بشيء منها (٢). وهنا يبدو أن المسلمين الذين كانوا داخل عكا قد أزعجهم ذلك الحدث ، فعزموا على مهاجمة الصليبيين وتكبيدهم خسائر أكثر لكي يثبتوا لهم أن غرق السفينة لم يؤثر عليهم . فحدث في ذلك الوقت أن اصطنع العدو دبابة عظيمة هائلة مكونة من أربع طبقات ، الطبقة الاولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد ، والرابعة من النحاس ، وكان ارتفاعها أكثر من ارتفاع السور ، وشحنوها بالمقاتلة وقربوها من السور لمهاجمة المسلمين في الداخل . الا أن المسلمين بادروا بضربها بالنفط ، واستمر ضربهم ليلا ونهارا حتى تمكنوا من اشعال النار فيها واحراقها (٣)

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٤٣ .

(٢) ابو شامة ، المصدر نفسه ، ص ١٦١ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ص ٦٥ ، العماد ، الفتح ، ص ٤٨٦ ، ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٤ ـ ١٨٥ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٦٢ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ج ١٢ ، ص ٤٤٣ .

وعلى الرغم من تلك الخسائر التى ألحقها المسلمون بالصليبيين ، فان الغرب الأوربى لم تنقطع امداداته عن الصليبيين ببلاد الشام . الأمر الذى مكن الصليبيين من مواصلة حصارهم لعكا . ففى الوقت الذى كان صلاح الدين فيه قد حقق انتصارات عظيمة على الصليبيين سواء فى المعارك أو فى تحطيم آلاتهم وأدواتهم ، وصل الى المشرق الاسلامى أعظم ملوك أوربا فى ذلك الحين وهما الملك فيليب أغسطس ملك فرنسا . وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، اللذين سلكا طريق البحر الى هناك . ولاشك أنه كان لوصولهما أثره البالغ فى رفع الروح المعنوية للصليبيين ، حيث أبحر ملك فرنسا من مدينة جنوا ، وأبحر ملك انجلترا من مرسيليا . وتقابلا فى جزيرة صقلية ، وهناك قضيا ومعهما جيوشهما نحو ستة أشهر يتمتعون بدفء الشتاء فى الوقت الذى كانت فلول الصليبيين ببلاد الشام ، المتجمعة أمام عكا . تنتظر حضورهما فى قلق بالغ . (١)

وهنا يمكننا أن نتساءل لماذا مكث فيليب أغسطس وريتشارد قلب الأسد تلك المدة الطويلة فى جزيرة صقلية ، والذى يبدو أن السبب فى ذلك يرجع الى العداء التقليدى المتأصل بين فرنسا وانجلترا ، ومن المحتمل أن كل من فيليب اغسطس وريتشارد قلب الاسد كان يطمع فى أن يسير أحدهما قبل الآخر الى بلاد الشام ليكون كبش الفداء ، اذا ما حدث لتلك الحملة حادث على خلاف

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٦٣ ، باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٨٩ . Lane-Poole, Op. Cit. P. 281.

المتوقع ، بينما يقوم الملك الآخر عند ذلك بدور المنقذ ، ويكون بذلك قد كسب بانهاك القوى الاسلامية بقيادة صلاح الدين ، فضلا عما يناله من مكانة عظيمة في الغرب الأوربي . ومما يدل على ذلك أن فيليب أغسطس غادر صقلية في نهاية مارس سنة ١١٩١م متجها نحو صور حيث رحب به قريبه كونراد مونتفرات الذى صحبه الى عكا فوصلاها ١٢ ربيع الاول من سنة ٥٨٧هـ/ ٢٠ ابريل ١١٩١م (١) . بينما غادر ريتشارد فيليب قلب الأسد صقلية في ابريل من نفس السنة قاصدا عكا ، فهبت عاصفة قوية أثناء سير سفنه في البحر ، ففقد ريتشارد عددا منها ، لذلك أخذ يجوب جزر البحر المتوسط الشرقية بحثا عن تلك السفن المفقودة . وانتهى به الأمر الى أن رسى في جزيرة قبرص ، حيث وجد أن تلك السفن الضائعة قد رست عند تلك الجزيرة ، وكان حاكمها واسمه اسحق كومنين (٢) قد استولى على سفن ريتشارد التى لجأت الى الجزيرة ، فأسر رجالها وغنم ما تحمله . الأمر الذى أغضب ريتشارد منه وجعله يعزم على الاستيلاء عليها . وبعث ريتشارد الى الصليبيين ببلاد الشام يطلب نجدة ، فأنفذوا له جفرى أخو الملك جاى ، فهاجم

---

(١) النويرى ، نهاية الارب ، ج ٢٦ ، ورقة ٣٣ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٥٧ ، العماد ، الفتح ، ص ٤٧٤ ، ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٣ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١٢٧ ، ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٢٢ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٦٣ ، باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٨٩ .

(٢) عين الامبراطور البيزنطى اندرونيق الاول كومنين (١١٨٢ ـ ١١٨٥م) قريبه اسحق كومنين على جزيرة قبرص منذ سنة ١١٨٤م ، غير أن اسحق لم يكد يصل الى الجزيرة حتى استبد بالامور وقطع صلته بالقسطنطينية ، وتلقب بلقب أمبراطور قبرص ، ونجح في توطيد سلطانه في الجزيرة ، حتى تعسر على أباطرة القسطنطينية عزله أو التغلب عليه (أنظر سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٢٤) .

ريتشارد الجزيرة وضيق الخناق عليها ، وانتهى الأمر باستيلائه عليها وكسب الصليبيون بذلك مركزا هاما سهل لهم الاتصال مع أوربا (١) .

سار ريتشارد عقب ذلك من قبرص باتجاه ساحل الشام ، ويقال أن ريتشارد اتجه أول الأمر الى صور ، فرفضت حاميتها السماح له بالدخول ، وذلك وفقا للتعليمات التي تركها فيليب أغسطس وكونراد (٢) . الأمر الذي اضطره الى الاتجاه مباشرة الى مدينة عكا التي وصلها في ١٣ جمادى الأولى سنة ٥٨٧هـ/ ٨ يونيه ١١٩١م (٣) . وكان لوصول ريتشارد الذي وصفه ابن شداد بأنه " شديد البأس عظيم الشجاعة ، قوي الهمة له وقعات عظيمة وجسارة على الحروب " الى بلاد الشام أثرها البالغ على نفوس الصليبيين الذين أظهروا الفرح والسرور به ، وعبروا عن ذلك باشعال النيران العظيمة احتفاء بقدومه (٤) .

وعلى كل فان وصول هذين الملكين وهما محملان بالاسلحة والذخائر والمؤن وغيرها ومعهما الرجال قد أعطى الصليبيين دفعة قوية لمواصلة حصارهم لعكا . ، حيث يذكر أن ملك فرنسا قد وصل الى عكا ومعه ست سفن كبار ، كما

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ٤٧٧ ــ ٤٧٨ ، أنظر تفصيل ذلك في سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٢٦ ــ ٣٠ ، باركر ، الحروب الصليبية ، ص ٨٩ .
(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٦٤ .
(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٦١ ، العماد ، الفتح ، ص ٤٨٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ .
(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٦١ .

وصل ريتشارد بعده ومعه خمس وعشرون قطعة مملؤه بالرجال والأموال (١). وبالرغم من وضوح ذلك العداء التقليدى بين الملكين أمام عكا ، فان تلك الحزازات لم تحل دون توحيد صفوف الصليبيين وتشديد الهجمات على عكا (٢). فقد نصبوا عليها المنجنيقات التى أخذ ضربها يتواتر على أسوار المدينة ليلا ونهارا ، وذلك فى مستهل جمادى الآخرة من سنة ٥٨٧هـ/ يوليو ١١٩١م. وفى المقابل فان صلاح الدين لما علم بذلك الهجوم الصليبى على عكا ، جمع الراجل والفارس وحثهم على الجهاد ، وزحفت جيوشه على خنادق العدو ، واشتد زحفهم على معسكر الصليبيين ودارت بين الطرفين معارك شديدة يوم الثلاثاء سابع الشهر نفسه ، استمرت الى أن هجم الظلام فعاد السلطان الى تل العياضية. ولما كان سحر تلك الليلة أمر صلاح الدين بدق الكوس (٣) ، وركبت عساكره من كل جانب واستمر هجومه ذلك حتى الصباح ، ووصل الى معسكره وفد من حامية عكا أطلع صلاح الدين على ما وصلت اليه الحال فى الداخل ، الأمر الذى أثار حمية صلاح الدين فحث جيشه على تقوية الهجوم. واشتد زحف عسكره على الصليبيين. الا أن تلك الهجمات الكاسحة لم تؤثر على صفوف الصليبيين الذين ثبتوا أمام هجمات المسلمين ، حيث استمر القتال يعمل بين المسلمين والصليبيين على هذه الحال الى أن فصل الليل بينهما (٤).

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٤ ـ ٦٥ ، Lane-Poole, op. Cit. P. 273.

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٦٥.

(٣) عن الكوس أنظر ما سبق ص

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ١٨٦ أنظر أيضا : Lane-Poole, op Cit. P. 291.

عاد الصليبيون بعد ذلك وشنوا هجوما مكثفا على أسوار المدينة بآلاتهم ، فانهدمت من السور ثلمة ، ووقف المسلمون للدفاع عنها واستطاعوا سدها ، في حين كانت قوات صلاح الدين تهاجم العدو من الخارج الا أن ذلك الهجوم القوي الذي شنه صلاح الدين على الصليبيين لم يفلح في انقاذ عكا ، فساءت أحوال الحامية الاسلامية ، واضطر من بها من الامراء الى اجراء محادثات مع الصليبيين على أساس التسليم . وبدأت تلك المحادثات بين الطرفين بأن خرج الأمير سيف الدين المشطوب بنفسه لمقابلة فيليب اغسطس ملك فرنسا . وذكر أن المسلمين كانوا اذا أخذوا بلدا منهم ، وطلب من بذلك البلد الآمان على أنفسهم أعطوهم . وعرض عليهم تسليم البلد له بشرط أن يعطيهم الآمان على أنفسهم . الا أن ملك فرنسا الذي كان بعيدا كل البعد عن صفات الشهامة والمروءة التي كان صلاح الدين يتحلى بها ، امتنع عن اجابة طلبه ورد عليه ردا دل على وحشيته . الأمر الذي آثار نخوة سيف الدين المشطوب ، فأغلظ له في القول ، وكان مما قال له « انا ما نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ولا يقتل واحد منا حتى نقتل خمسين نفسا من كباركم » ثم انصرف عنه المشطوب ودخل عكا يستثير الناس للجهاد وبذل أرواحهم في سبيل الله (١) .

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٦٨ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٦ _ ١٨٧ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ . ، وسيف الدين المشطوب هو ابو الحسن علي بن احمد الهكاري ، المعروف بابن المشطوب ، أحد الأمراء الصلاحية . والهكاري نسبة الى قبيلة من الاكراد لهم معاقل وحصون وقرى من بلاد الموصل من جبهتها الشرقية ، توفي سنة ٥٨٨ هـ (أنظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ١٨٢ _ ١٨٣ ، ج ٣ ، ص ٣٤٥) .

وعلى الرغم من ذلك التعنت من ملك فرنسا ، فان الصليبيين كانوا بلا شك يحسبون للقوة الاسلامية حسابا كبيرا بدليل ما ذكره ابن الاثير من أن الصليبيين لم يكتفوا بالتفاوض مع قادة الحامية الاسلامية بعكا ، بل أنهم اتجهوا كذلك الى مفاوضة صلاح الدين نفسه ، حيث ارسلوا اليه فى أمر التسليم ، فأجابهم اليه على أن يطلقوا من بعكا من المسلمين ، ويطلق هو من أسراهم بعدد من فى البلد (١) .

ومهما يكن من أمر فان صلاح الدين لما رأى ذلك التعنت من الصليبيين ، أرسل الى من بعكا من المسلمين يحثهم على الصبر ، ويأمرهم بأن يخرجوا من المدينة يدا واحدة بعد أن يحملوا على العدو حملة رجل واحد . ووعدهم بأن يتقدم هو الى تلك الجهة التى يخرجون منها بعساكره ويقاتل الصليبيين حتى يتمكنوا من الخروج اليه . الا أن تلك المحاولة لم يكتب لها النجاح بسبب سيطرة الصليبيين على البلد (٢) . وهنا أدرك من بداخل عكا من المسلمين أنه لم يعد أمامهم سوى الجهاد والاستبسال فى قتال الأعداء ، فكتبوا الى صلاح الدين يذكرون له أنهم قد تبايعوا على الموت ، وأنهم قد عزموا على الاستمرار فى القتال ، وانهم لن يسلموا ما داموا أحياء (٣) .

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٦ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٥٨ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٦٩ – ١٧٠ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٧ – ١٨٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٥٩ .

وعلى الرغم من تلك التضحية الكبيرة من أهل عكا وحبهم للاستشهاد في سبيل الله ، فانه يبدو أن صلاح الدين وأمراءه الذين كانوا بالداخل أمثال الأمير سيف الدين المشطوب وغيره ، كانوا حريصين كل الحرص على سلامة أرواح المسلمين . يدلنا على ذلك ما ذكر من أن سيف الدين المشطوب عند ما رأى الموقف ، خرج الى الصليبيين للمرة الثانية ، وقرر معهم تسليم البلد مقابل خروج من به من المسلمين بأموالهم وأنفسهم ، وأن يدفع لهم فدية قدرها مائتا ألف دينار وخمسمائة أسير ، فضلا عن اعادة صليب الصلبوت ، ودفع مبلغ من المال الى كونراد مونتفرات صاحب صور . وهنا يذكر المؤرخ ابن شداد أن صلاح الدين عند ما وصلته رسالة مع أحد العوامين تذكر له تلك الشروط ، أنكر ذلك انكارا شديدا (١) .

ومهما يكن من أمر فان الصليبيين قد قبلوا تلك الاتفاقية ، وحلفوا لسيف الدين المشطوب فسلم لهم البلد ، ودخلوه سلما . ولما دخل الصليبيون عكا نقضوا عهودهم كعاداتهم وغدروا بمن فيه من المسلمين ، واحتاطوا عليهم وعلى أموالهم وحبسوهم وذلك في ١٧ جمادى الآخرة ٥٨٧هـ/يوليه ١١٩١م متظاهرين بأنهم فعلوا ذلك حتى يصل اليهم ما اتفقوا عليه من الفدية والاسرى . وهنا شرع

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ ، أنظر أيضا ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٧ ، ابوشامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٥٩ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

صلاح الدين في جمع الاموال ، واجتمع عنده مبلغ كبير من المال ، واستشار أصحابه في تسليمه للصليبيين ، فأشاروا عليه بأن يعود مرة أخرى فيستحلف الصليبيين على اطلاق أصحابه وان يضمن الداوية ذلك " لأنهم أهل تدين ووفاء " الا أن الداوية امتنعوا عن ذلك ، وقالوا " لا نحلف ولا نضمن لاننا نخاف غدر من عندنا " (١) عند ذلك علم صلاح الدين غدرهم فلم يجبهم الى ذلك (٢) .

ولما رأى ريتشارد قلب الأسد توقف صلاح الدين عن بذل المال والأسرى وصليب الصلبوت لهم ، لم يعاود الاتصال بصلاح الدين ، بل دفعه تهوره وحمقه الى أن ساق أسرى المسلمين الذين بعكا ، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم الى تل العياضية ، وأوثقهم بالحبال ثم حمل الصليبيون عليهم حملة واحدة وقتلوهم عن آخرهم وذلك في ٢٧ رجب ٥٨٧هـ/٢٠ أغسطس ١١٩١م (٣) .

وشتان بين هذا السلوك الهمجي الذي اتبعه ريتشارد مع أسرى المسلمين بعكا ، وبين ذلك السلوك الانساني الذي كان صلاح الدين قد اتبعه مع الصليبيين في مواقف كثيرة ، منها ما فعله بأسراهم عقب انتصاره في حطين

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٨ .
(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٧٤ ، العماد ، الفتح ، ص ٥١٣ ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٧ ـ ٦٨ ، ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٨ ـ ١٨٩ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ .
(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٧٢ ، ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٦٣ .

ثم عقب استيلائه بيت المقدس ، اذ حرص دائما على السماح لأهل المدن التي استولى عليها من الصليبيين بمغادرتها سالمين . ولاشك أن ذلك التصرف الوحشي الذي أتاه ريتشارد مع أسرى المسلمين في عكا لم تكن له نتيجة سوى اثارة النخوة الاسلامية في صفوف المسلمين ، الذين استشعروا ذلك الخطر الصليبي ، فهبوا من كافة الاقطار الاسلامية للجهاد ضد الصليبيين . وبالفعل فان الجيوش الاسلامية قد منعت الجيوش الصليبية من تحقيق أي انتصار عقب دخولهم عكا ، وذلك لتفاني الجيوش الاسلامية في ميادين القتال لشعورها بزيادة الخطر الصليبي . فضلا عما أعقب دخول الصليبيين عكا من خلاف وشقاق بين قادتهم أدى الى اختلاف كلمتهم وعجزهم عن تحقيق انتصار آخر غير دخولهم عكا ذلك الانتصار الذي لا يقاس في حد ذاته بما لحق بالصليبيين من خسائر .

معركة ارسوف وفشل ريتشارد قلب الاسد في استرجاع بيت المقدس :

وكيفما كان الأمر فبعد أن تمكن ريتشارد من دخول عكا بدأ يفكر في استرداد مدن الساحل الشامي التي استولى عليها صلاح الدين . ففي مستهل شعبان من سنة ٥٨٧هـ/أواخر أغسطس ١١٩١م ، أمر ريتشارد جيوشه بالمسير عبر الساحل في اتجاه حيفا . وما أن علم صلاح الدين بمسيرهم حتى نادى في عسكره بالجهاد ، وأمرهم بالمسير لملاقاة الجيش الصليبي واثنائه عن تحقيق مهمته ، فقامت فرقة من جيش المسلمين بمضايقة الصليبيين أثناء مسيرهم ، بينما قامت فرقة أخرى بالانقضاض على مؤخرة جيشهم فقتلوا منها جماعة وأسروا

جماعة أخرى (١) .

وعلى الرغم من ذلك فقد تمكن الصليبيون من دخول حيفا ، ثم المسير منها الى قيسارية والنزول بها أيضا . أما المسلمون فقد باتوا قريبا ، فخرج جماعة من الصليبيين وأبعدوا عن معسكرهم ، فهاجمهم المسلمون ، وقتلوا وأسروا عددا كبيرا منهم (٢) . ولاقى الصليبيون أثناء زحفهم الى قيسارية مشاق كثيرة بسبب وعورة الطريق ، حتى أن ريتشارد نفسه أصيب بجروح ورضوض ، مما جعله يطلب فتح باب المفاوضات مع صلاح الدين . وهنا يبدو أن صلاح الدين أراد أن يكسب الوقت حتى تصل قواته من التركمان التى كان قد أرسل فى طلبها ، فتظاهر بقبول مبدأ المفاوضات (٣) وأناب عنه أخاه الملك العادل فى تلك المفاوضات . وبالفعل فقد دارت المفاوضات بين الملك العادل وريتشارد الذى كان حاصل كلامه " انه قد طال القتال بيننا ، ونحن جئنا فى نصرة أصحاب الساحل ، فاصطلحوا أنتم وهم ، وكل منا يرجع الى مكانه " فأجابه الملك العادل بسؤاله عن شروط اتمام الصلح ، فقال ريتشارد " على أن يسلم الى أهل الساحل ما أخذتم من البلاد (٤) " فرفض العادل ذلك الطلب .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٩ ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٨٣ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٦٩ .

(٣) أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٧٥ .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٦٧ ، أنظر أيضا ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٨٢ ، العماد ، الفتح ، ص ٥٤٢ .

ويبدو أن كلا من الطرفين أدرك بعد ذلك أنه لم يبق أمامه سوى معاودة القتال ، فسار الصليبيون من قيسارية الى أرسوف (١) . وهناك وجدوا أن المسلمين قد سبقوهم اليها . ودارت بين الطرفين معركة كبيرة فى شعبان من سنة ٥٨٧هـ/ سبتمبر ١١٩١م . وقد سارت المعركة بادئ الأمر فى صالح المسلمين ، حيث أحاط فرسان الايوبيين بالصليبيون ، وأوشكوا أن يقضوا عليهم كما حدث فى معركة حطين ، الا أن الصليبيين عادوا واجتمعوا وحملوا على المسلمين حملة واحدة من كل الجوانب (٢) . ولما رأى صلاح الدين ما نزل بالمسلمين صاح فيهم وحرضهم على الجهاد فى سبيل الله ، وبقى هو ثابتا فى المعركة . فلما رآه الناس على تلك الحالة من الشجاعة والصبر توافدوا عليه ، وقاتلوا الصليبيين قتال الابطال حتى تمكنوا من دحرهم واجبارهم على التراجع الى منزلتهم (٣) .

ومهما يكن من أمر فانه بالرغم من دخول الصليبيين عكا ، ومن ثم محاولتهم الاستيلاء على مدن الساحل ، فانهم لم يستطيعوا تحقيق هدفهم الاساسى وهو استعادة بيت المقدس من المسلمين . وعاد معظم الصليبيين بما فيهم فيليب اغسطس ملك فرنسا خائبين الى أوطانهم ، وظلت مسئولية استمرار الحرب ضد

---

(١) ارسوف : مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا (أنظر ياقوت معجم البلدان) .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٨٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ، أنظر سعيد عاشور الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٧٥ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٨٤ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤٠٩ .

صلاح الدين على عاتق ريتشارد ملك انجلترا (١) • ولم يجن ريتشارد من دخـــول عكا وما أعقبه من محاولة استعادة مدن الساحل الجنوبية سوى المتاعب ، خاصـــة بعد تمكن المسلمين من ارجاعه الى منزلته فى معركة ارسوف بالاضافة الى اقدام صلاح الدين على تلك الخطوة الجريئة وهى تدمير أسوار عسقلان واحراقها وسـط ذهول الناس • وقصد صلاح الدين من ذلك منع العدو من الاستفادة بشئ مـن تحصيناتها وأموالها (٢) • ولم يجرؤ ريتشارد عقب معركة ارسوف على المســــير الى بيت المقدس مباشرة بل اتجه بعدها الى اعادة بناء أسوار مدينة يافا ،وأضاع فى ذلك وقتا ثمينا ، تمكن صلاح الدين خلاله من اكمال استعداداته وتنظـــيم صفوفه (٣) •

وأخيرا قرر ريتشارد المسير الى بيت المقدس ، فترك الصليبيون يافــــا واتجهوا الى الرملة فى ذى القعدة من سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١م • وما أن وصلوا اليها حتى أصيبوا بخيبة أمل شديدة بسبب اقدام صلاح الدين على تخريبهـــــا وتخريب مدينة اللد معها ، فى حين أقام صلاح الدين معسكره على النطـــرون استعدادا لملاقاة الصليبيين ، الا أنه أدرك أن من الاحسن تخريب النطرون

---

(١) Ehrenkruetz., Saladin., P. 216.

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٨٧ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٤١٠ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢، ص ٧١ •

(٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٧٢ ، ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٢ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢، ص ٧٧ظ ـ ٨٧٨ •

والسير الى بيت المقدس لاحكام الدفاع عنها ، باستكمال تحصيناتها وترتيب أمورها (١) .

ولم يكتف صلاح الدين باقامة معسكره في بيت المقدس بعد تحصينه ، بل أخذ يراقب تحركات الجيوش الصليبية ، ومضايقتها في طريقها بواسطة يزكه الذي استطاع أسر نيف وخمسين فارسا من مشاهير الفرسان الصليبيين أثناء مسيرهم من الرملة الى النطرون (٢) . هذا بالاضافة الى ما قام به جماعة من البدو الاعراب بايحاء من صلاح الدين بالاغارة على مؤخرة الجيش الصليبي وتكبيدهم خسائر فادحة في العتاد والأرواح فضلا عن قطع خطوط مواصلاته والدليل على ذلك ما ذكره ابن شداد من أن صلاح الدين أوعز الى ثلاثمائة من الاعراب بالاغارة على الصليبيين لكبس معسكراتهم ومضايقتهم فتمكنوا من تكبيدهم خسائر في الأموال والامتعة والخيول (٣) .

ومهما يكن من أمر فان تلك المحاولة التي نظمها ريتشارد لاستعادة بيت المقدس من المسلمين قد باءت بالفشل الذريع ، أمام تصميم المسلمين على الجهاد في سبيل الله لتصفية الوجود الصليبي في بلاد الشام ، فضلا عما ذكر

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٩١ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ص ٧٣ — ٧٤ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٧٤ ، أنظر أيضا ، ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢١٢ .

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٩٢ — ١٩٣ .

من عوامل أخرى ، منها تخوف ريتشارد نفسه من الوصول الى بيت المقدس . يدلنا على ذلك ما ذكره المؤرخ ابن الاثير من أن ريتشارد طلب ممن معه من الصليبيين الشاميين أن يصفوا له مدينة القدس التى لم يسبق له رؤيتها فوصفوها له فرأى أن الوادى يحيط بها ما عدا موضعا يسيرا من جهة الشمال ، فسأل عن الوادى وعن عمقه ، فأخبروه بأنه عميق وعر المسالك ، فقال لهم " هذه مدينة لا يمكن حصرها مادام صلاح الدين حيا وكلمة المسلمين مجتمعة ، لأننا أن نزلنا فى الجانب الذى يلى المدينة بقيت سائر الجوانب غير محصورة ، فيدخل اليهم منها الرجال والذخائر وما يحتاجون اليه ، وان نحن افترقنا فنزل بعضنا من جانب الوادى ، وبعضنا من الجانب الآخر ، جمع صلاح الدين عسكره وواقع احدى الطائفتين ، ولم يمكن الطائفة الاخرى اتجاه أصحابهم ، لأنهم ان فارقوا مكانهم خرج من بالبلد من المسلمين فغنموا ما فيه ، وان تركوا فيه من يحفظه وساروا نحو أصحابهم ، فالى أن يتخلصوا من الوادى ويلحقوا بهم يكون صلاح الدين قد فرغ منهم ، هذا سوى ما يتعذر علينا من ايصال ما يحتاج اليه من العلوفات والأقوات " فلما قال لهم ذلك لم يعارضه أحد بل استصوب الجميع رأيه نظرا لقلة الميرة عندهم ، وأشاروا عليه بالعودة الى الرملة ، فعادوا دون تحقيق هدفهم خائبين خاسرين (١) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٧٥ .

انتصار صلاح الدين وصلح الرملة سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م :

وفي الوقت الذي عجز فيه ريتشارد قلب الأسد عن تحقيق الهدف الاساسي الذي خرجت من أجله الحملة الصليبية الثالثة الى بلاد الشام ، وهو استعادة بيت المقدس ، واجه ملك انجلترا مشاكل كثيرة كان لها الأثر الأكبر في اضطراره الى قبول الصلح والنزول على شروط المسلمين . فقد حدث أن احتدم خلاف كبير بين كل من كونراد دي مونتفرات ، وجاي لوزجنان ، كان لهذا الخلاف الأثر البالغ في تهديده وحدة الصليبيين ببلاد الشام ، اذ كان كل منهما يرى نفسه صاحب الحق الشرعي في مملكة بيت المقدس ، ورأى البعض أن كونراد كان هو صاحب الحق الشرعي في مملكة بيت المقدس نظرا لزواجه من ايزابيل وريثة المملكة ،(١) فضلا عن تمتعه بتأييد فرسان المملكة الذين كانوا يكرهون الملك السابق جاي لأنهم كانوا يعتبرونه مسئولا عن كارثة حطين .(٢) والذي يهمنا من ذلك هو ما ترتب على هذا الخلاف من قيام كونراد بمحاولة الاتصال بصلاح الدين أثناء بدء المفاوضات بين المسلمين والصليبيين حيث أراد كونراد منافسة ريتشارد والتفاوض مع صلاح الدين على حده .(٣) الأمر الذي كان له أثره البالغ على اضعاف صفوف الصليبيين .

ويبدو أن ريتشارد ، أدرك خطورة ذلك التصرف من كونراد ، خاصة

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ٤٩٤ ،

(٢) أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٨٤ .

(٣) أنظر تفصيل ذلك في ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٩٩ — ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

بعد فشله في محاولة ارضاء كونراد واسترجاعه اليه (١) • فعمد ريتشارد الى عقد مؤتمر عام ضم الامراء والفرسان لاستفتائهم في مشكلة أيهما صاحب الحق الشرعي بعرش مملكة بيت المقدس كونراد أم جاى ؟ وعقد المؤتمر في عسقلان في ابريل سنة ١١٩٢م فأجمع الامراء اجماعا شبه تام على اختيار كونراد (٢) • ولكن الحياة لم تطل بكونراد اذ قتل بيد أثنين من الباطنية أصحاب راشد بن سنان • وهنا تكاد تجمع المصادر الاسلامية على أن قتل الباطنية له كان بتحريض من الملك ريتشارد (٣) • ويشذ عن ذلك ابن الاثير الذي ذكر أن ذلك كان بتحريض من صلاح الدين (٤) • والذى لا شك فيه ان ما ذهب اليه ابن الاثير ـ الذى عرف بتحامله على صلاح الدين نظرا لأنه كان ربيب البيت الزنكى ـ بعيد عن الصحة ، فالى كونه قد خرج عن الاجماع ، فان مروءة صلاح الدين وشهامته لم تكن تدعه يفعل ذلك ، كما يبدو أن بقاء كونراد حيا ، كان في صالح المسلمين لأن وجوده كان يشكل عامل خلاف في صفوف الصليبيين (٥) !

وبوفاة كونراد دى مونتفرات ، فقد الصليبيون زعيما قويا كانت له اليد الطولى في قتال المسلمين • كما أن مقتله بتحريض من الملك ريتشارد سوف تنعكس آثاره

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص

(٢) أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٨٥ •

(٣) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ٢٠٨ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ وابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٦ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٤٨ •

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٧٨ ـ ٧٩ •

(٥) أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٨٦ (حاشية) •

على أقارب كونراد وأتباعه . اذ لا شك أن ذلك الحدث سوف يكون له مردودة في نفوس هؤلاء الاقارب والاتباع ، الأمر الذى يترتب عليه متاعب كثيرة للصليبيين ببلاد الشام .

وعلى كل فان فشل ريتشارد في تحقيق أهدافه ، جعله يدرك أنه لم يعد بامكانه البقاء في بلاد الشام ، وان عليه انهاء الحرب مع المسلمين والعودة الى بلاده . والواقع أن فشله في تحقيق أهدافه لم يكن العامل الوحيد الذى دفعه الى ذلك ، بل تضافرت عوامل أخرى كثيرة ، كان لها الاثر البالغ في حرصه على تحقيق صلح مع المسلمين بأية وسيلة كانت ، فبالاضافة الى نتائج مقتل كونراد ورد الى ريتشارد سوء الأحوال الداخلية في بلاده (١) . فقد ذكر أن ريتشارد في تلك الاثناء وصلته أخبار سيئة من الغرب تؤكد فتنة أخيه حنا ضده ، الأمر الذى تطلب منه سرعة العودة الى بلاده (٢) بالاضافة الى مرضه مرضا شديدا أشرف منه على الهلاك ، وضرب صلاح الدين أثناء مرض ريتشارد أروع المثل في المروءة والشهامة والكرامة ، فلم يعبأ بما جرى بينه وبين ريتشارد من صراع وحروب ، بل سارع الى امداده بالثلج والفاكهة (٤) . والى جانب ذلك فهناك عامل

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ٨٨٥ .

(٣) ابن الفرات ، م٤ ، ج ٢ ، ص ٨ ، ابن خلدون العبر ، ج ٥ ، ص ١٥٠

(٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٣٢ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ . ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٥٥ .

آخر يزيد أهمية عن ذلك ، هو انتصار المسلمين في مواقع كثيرة في سنة ٥٨٨ هـ ، فقد ذكر ابن واصل في كتابة التاريخ الصالحي أن وقعات كثيرة جرت بين المسلمين والصليبيين في هذه السنة ، كان الظفر فيها للمسلمين الا وقعة واحدة (١) . مما يزيد تأييد حرص ريتشارد على تحقيق ذلك الصلح مع المسلمين ما ورد في المصادر من نصوص على لسان ريتشارد نفسه تدل على خضوعه التام وحرصه الشديد على تحقيق الصلح مع المسلمين بأي وسيلة كانت ، من ذلك ما ورد في احدى محادثات الصلح حيث ذكر أن ريتشارد قال لأحد الرسل " قل لاخي — يعني الملك العادل — يبصر كيف يتوصل الى السلطان في معنى الصلح (٢) " ومنها أيضا قوله لاحد أمراء المسلمين " سلم على السلطان وقل له بالله عليك أجب سؤالي في الصلح (٣) " .

والحقيقة أن مباحثات الصلح بين صلاح الدين وريتشارد قد بدأت منذ الايام الاولى لوصول ريتشارد الى المشرق ، يدلنا على ذلك ، قيام ريتشارد بالاتصال بصلاح الدين بعد مضى عشرة أيام من وصوله الى المشرق وبعد اشتراكه في معركة واحدة ، حيث أوفد رسولا من قبله يحمل رسالة الى صلاح

---

(١) ابن واصل ، التاريخ الصالحي ، ورقة ٢٠٨ أ .
(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٣٢ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ .
(٣) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ .

الدين يطلب منه فيها الاجتماع به • الا أن صلاح الدين رد عليه بقوله : " ان الملوك لا يجتمعون الا عن قاعدة ولا تحسن الحرب بعد الاجتماع والمواكله "(١) وأدرك صلاح الدين أن هدف ريتشارد من ذلك هو تفتير العزمات وتضييع الاوقات على المسلمين (٢) •

وبالرغم من أن هذه الاتصالات بين صلاح الدين والملك ريتشارد قد انقطعت بعد تلك الجريمة البشعة التى ارتكبها ريتشارد ضد أسرى عكا بعد أن قطع لهم عهدا بتأمينهم مقابل تسليم البلد له فان ريتشارد وجد نفسه بعد دخوله عكا وفشله الاستيلاء على بعض المدن الساحلية مضطرا الى العودة الى الاتصال بصلاح الدين وهنا يأتى دور الملك العادل الذى لعب الدور الاكبر فى ذلك مع الملك ريتشارد بتفويض من أخيه السلطان صلاح الدين • وكما سبق أن رأينا فقد كان أول اتصال بين العادل وريتشارد يوم ٢٢ شعبان من سنة ٥٨٧هـ/ سبتمبر ١١٩١م • وانتهى ذلك الاتصال بأن رفض الملك العادل ما عرضه عليه ريتشارد من شروط (٣) •

ولم يمض على ذلك سوى مدة وجيزة حتى عاد ريتشارد مرة أخرى الى طلب

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٦٠ ، نظير حسان سعداوى ، الحرب والسلام ، ص ٣٢ •

(٢) ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٨٦ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٥٥ •

(٣) أنظر ما سبق ، ص ٦٠ - ٦١ •

الصلح حيث بعث رسالة الى صلاح الدين فى العشر الاخير من رمضان من سنة ٥٨٧هـ/اكتوبر ١١٩١م • ذكر فيها أن مطالبة هى القدس لانه متعبدهم فلا يستطيعون النزول عنه ولو لم يبق منهم واحد ، ثم الصليب الذى يعد عند المسلمين خشبة لا قيمة له ، الا أنه عندهم شئ عظيم • وطلب من صلاح الدين أن يمن به عليهم كما طلب من صلاح الدين أن يعيد اليهم ما هو قاطع نهر الاردن من البلاد • فرد عليه صلاح الدين بقوله "القدس لنا كما هو لكم وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن ننزل عنه ، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، أما البلاد فهى لنا فى الاصل ، واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف من كان بها من المسلمين فى ذلك الوقت ، وأما الصليب فهلاكه قربة عظيمة ، ولا يجوز أن نفرط فيه الا لمصلحة راجعة الى الاسلام هى أوفى منها" (١) •

لم ييأس ريتشارد من رد صلاح الدين ، بل ظل مصمما على مواصلة المفاوضات مع المسلمين للتوصل الى صلح يمكنه من الجلاء عن المشرق الاسلامى بصفة مشروعة لا تهز مكانته بين الاوربيين ، ولكنه هذه المرة أدرك أن المحادثات لن تجدى مع صلاح الدين ، فعمد الى طريقة أخرى للمفاوضات مع صلاح الدين تلعب العاطفة دورا كبيرا فيها • فأنفذ رسولا من قبله الى الملك العادل فى ٢٩

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٩٣ ـ ١٩٤ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق١ ، ص ٤١٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣ •

رمضان ٥٨٧هـ/ ٢٠ اكتوبر ١١٩١م يعرض عليه الزواج من أخته جوانا أرملة وليم الثانى ملك صقلية ، على أن يكون لهما البلاد الساحلية الاسلامية والصليبية ، لها من جانب أخيها ، والاسلامية للملك العادل من جانب أخيه السلطان صلاح الدين ، وأن يحكم الملك العادل جميع البلاد الساحلية وينفذ فيها أمره على أن يرضى العادل مقدمى الصليبيين والداوية والاسبتارية باقطاعهم ما أراد من القرى دون الحصون ، وتكون جوانا مقيمة بالقدس ومعها رهبان وقسيسون في صحبتها .(١)

رأى الملك العادل في ذلك مصلحة ، وشاور صلاح الدين ، فوافق عليه رغم ادراك صلاح الدين أن ذلك لن يتم ، وانما ذلك مجرد مكر وخدعة من الملك الانجليزى . وبالفعل فقد دلت الاحداث على صحة هذا الاعتقاد . اذ ما كاد خبر ذلك الزواج ينتشر في الاوساط الصليبية حتى دخل الصليبيون على جوانا وخوفوها ، وأعلموها أن ذلك قبيح ومخالف لعقيدتهم و وفيه عصيان للمسيح واغضاب له ، فوافقتهم على ذلك ، ورفضت ذلك الزواج . وأمام ذلك الرفض لم يستطع ريتشارد أن يفعل شيئا واكتفى بأن اقترح أن يتم ذلك المشروع بأحد

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٠٣ ، العماد ، الفتح ، ص ٥٥٥ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٢ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٠٣ ، العماد ، الفتح ص ٥٥٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٤١٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٢ ، عاشور ، [illegible] ، الحروب والسلام ، ص ٤٠ .

أمرين ، اما أن يدخل العادل فى دين أخته واما أن يزوجه بابنة أخيه التى كانت بكرا لا تحتاج الى موافقة البابوية ، فرفض العادل ذلك بشدة (١) .

وما لبثت تلك المفاوضات حول مشروع الصلح أن توقفت لفترة مؤقتة ربما كان ذلك بسبب شعور ريتشارد بالحرج أمام صلاح الدين لانكشاف نواياه الخداعية ومماطلته ، ثم ظهر لريتشارد حزب معارض بزعامة كونراد مونتفرات صاحب مدينة صور ، اذ أخذ كونراد ينافس ريتشارد فى كل شىء من ذلك محادثات الصلح مع صلاح الدين . فقد حدث فى ١٤ شوال من سنة ٥٨٧هـ/ ٤ نوفمبر ١١٩١م أن بعث كونراد رسولا من قبله الى صلاح الدين ، عرض عليه المصالحة بشرط أن يتنازل له صلاح الدين عن صيدا وبيروت ، على أن يجاهر الصليبيين بالعداوة ، ويقصد عكا ويحاصرها ويستخلصها للمسلمين ، فأجابه صلاح الدين الى ذلك بعد أن اشترط عليه أيضا أن يطلق من بها ومن بصور من أسارى المسلمين (٢) .

والذى يهمنا هنا هو أن اقدام صلاح الدين على هذا العمل يعد غاية فى الحنكة السياسية وتصريف الأمور ، اذ أن ذلك الخلاف بين ريتشارد وكونراد

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٠٣ ، العماد ، الفتح ، ص ٥٥٥ ، سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج ٨ ، ق ١ ، ص ٨١٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٢ ، نظير حسان سعداوى ، الحرب والسلام ، ص ٤٠ .

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٩٠ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص ٣٧٢ .

قد ازداد حدة ، وأخذ كل منهما ينافس الآخر فى ايفاد الرسل الى صلاح الدين لكسب صداقته ، الأمر الذى أشعل نار الحقد والكراهية بينهما خاصة وبين الصليبيين عامة . ذلك أن ريتشارد ما أن علم بسفارة كونراد الى صلاح الدين حتى سارع باستئناف المفاوضات مع المسلمين ، وطلب الاجتماع بالملك العادل ، فاجتمعا على وليمة كبرى ودارت بينهما محادثات وانفصلا عن تواد ومطايبة ومحبة (١) . ثم رجا ريتشارد من الملك العادل أن يأخذ موافقة من أخيه صلاح الدين فى الاجتماع به ، فامتنع العادل وقال « ان الملوك اذا اجتمعوا تقبح بينهم المخاصمة بعد ذلك ، واذا انتظم أمر حسن الاجتماع (٢) » (٣) .

وعلى كل فان صلاح الدين رأى أن من الافضل قطع مفاوضات كونراد والاستمرار فى مفاوضة ريتشارد وعلى ذلك مقتل كونراد كما سبق أن أشرنا (٤) . وتعددت الاجتماعات بين الملك العادل وريتشارد حول مصير بيت المقدس والمدن الساحلية خاصة عسقلان التى كان ريتشارد حريصا على تسلمها دون خرابها (٥) . الا أن صلاح الدين نفسه كان بلا شك لا يرغب فى الصلح المشروط لأنه كان عقد نية الجهاد ، وحزم الأمر على الاستمرار على الجهاد لأنه كان

---

(١) نظير حسان سعداوى ، الحرب والسلام ، ص ٤٣ .
(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٠١ ، .
(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٤ .
(٤) أنظر ما سبق ص
(٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٢٨ ، ابو شامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٩١ .

يدرك بعد تعنت ريتشارد ، أن الجهاد هو السبيل الوحيد لحمل الصليبيين على الرحيل نهائيا من المشرق الاسلامى دون قيد أو شرط (١) .

الا أن ريتشارد رأى نفسه مضطرا الى العودة السريعة الى بلاده ، بسبب ظهور القلاقل بها ، فضلا عن فشله فى تحقيق أى شىء من أهدافه ، بالاضافة الى ما أحرزه صلاح الدين من انتصارات على الصليبيين ، لعل أهمها استيلاءه على يافا فى ٢٠ رجب ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م ، تلك التى أثر الاستيلاء عليها تأثيرا بالغا على الصليبيين (٢) . الأمر الذى كان له أثره على ريتشارد الذى اشتد به المرض فى ذلك الوقت ، وكانت رسله تتردد على صلاح الدين فى طلب الفاكهة والثلج ، كما أوقعه مرضه فى شهوة الكمثرى والخوخ ، وكان صلاح الدين يتسامحه بذلك (٣) . فبعث ريتشارد الى صلاح الدين يتوسل اليه : أن يختار أحد أمرين اما أن ينزل له عن عسقلان ، واما أن يعطيه عوضا عن خسارته فى عمارتها ، الا أن صلاح الدين رفض ذلك الطلب ، لذلك لم يجد ريتشارد – الذى كانت حالته قد ازدادت سوءا – بدا من التنازل عن عسقلان وعن العوض عنها . واستقرت القاعدة بين المسلمين والصليبيين على أن تكون عسقلان خرابا ، وأن يكون للصليبيين يافا وعملها – باستثناء الرملة واللد

---

(١) نظير حسان سعداوى ، الحرب والسلام ، ص ٤٦ .
(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٤ .
(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٠٢ .

ومجدليابه وكذلك قيساريه وعملها وارسوف وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملهـا ـ ما عدا الناصرة وصفورية ـ وتكون بلاد اللد والرملة مناصفة بين الطرفيـن . واشترط صلاح الدين دخول بلاد الباطنية ، واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس . (١) وحلف الطرفان على ذلك فى ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ/ ٢ سبتمبر١١٩٢م، على أن تستمر تلك الهدنة ثلاث سنين وثلاثة أشهر . (٢)

ولما انفصل أمر الهدنة اذن صلاح الدين للصليبيين بزيارة بيـت المقدس (٣) واختلط عسكر المسلمين بمسكر الصليبيين ، وذهبت جماعة مـن المسلمين الى يافا فى طلب التجارة ، كما وصل خلق عظيم من الصليبيين الـى القدس للحج ، وأنفذ صلاح الدين الخفراء يحفظونهم وغرضه من ذلك أن يقضوا وطرهم من الزيارة ويرجعون الى بلادهم . (٤)

وعلى كـل فانه يمكن القول أنه بانعقاد صلح الرملة تحقق فشل الحملـة الصليبية الثالثة التى عجزت عن تحقيق أهدافها . هذا بالاضافة الى أن ذلـك الصلح يعد بلا شك نصرا مؤزرا للمسلمين ، فالى جانب نجاح صلاح الدين فـى

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٠٣ ، المقريزى ، السلوك ، ج ١ ، ص ١١٠ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٧٧ ،

(٢) ابوشامه ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٣ ، ابن واصل ، مفرج الكـروب ، ج ٢ ، ص ٤٠٤ .

(٣) ابن الاثير، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٦ .

(٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ .

منع الحملة الصليبية الثالثة من استعادة بيت المقدس ومدن فلسطين فانه تمكن أيضا من الحاق خسائر فادحة بتلك الجموع الصليبية التى جاءت من الغرب الأوربى بهدف أسترجاع بيت المقدس • وهكذا طهر صلاح الدين الأيوبى بيت المقدس ، وجعل كلمة الله هى العليا ، واسترد البيت الذى ذكره الله فى كتابه ، ونص عليه فى خطابه فقال تعالى :

" سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير " • (١)

---

(١) سورة الاسراء ، آية ١

الخاتمة

أهم نتائج البحث

بحمد الله وتوفيقه فقد انتهى موضوع البحث الذى تناول دراسة شاملة متكاملة لموضوع استرداد بيت المقدس فى عصر صلاح الدين • وقد رأينا فى هذه الدراسة أن صلاح الدين قد نشأ في فترة تاريخية هامة مر بها العالم الاسلامى وهى عصر الجهاد ضد العدوان الصليبى ، لذلك فان صلاح الدين نشأ منذ بداية حياته فى وسط جهادى ، بدأه رجال مسلمون مجاهدون على رأسهم عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود • ولا شك فان صلاح الدين الذى خرج الى مصر فى ركاب عمه أسد الدين شيركوه ـ الذى كان من ألمع قادة نور الدين محمود ـ قد تعلم من السلطان نور الدين محمود نفسه وكذلك من عمه أسد الدين شيركوه أن أحياء فكرة الجهاد الاسلامى وتوحيد كلمة المسلمين تحت راية واحدة هما الأساس الأول لقهر أعداء الاسلام والقضاء على الوجود الصليبى فى الشرق الاسلامى •

وقد تأكد صلاح الدين منذ بداية حكمه أنه لن يتم القضاء على ذلك العدوان الصليبى الا بتكوين جبهة اسلامية موحدة تمتد من الفرات الى النيل ، لذلك بدأ صلاح الدين بالقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية فى مصر • وكانت هذه الخلافة قد وصلت الى حد كبير من الضعف والانهيار بسبب استبداد الوزراء بالسلطة دون الخلفاء ، وتصارعهم على الفوز بمنصب الوزارة الذى أصبح فى ذلك الوقت من نصيب الغالب • يضاف الى ذلك فتن الجند وسوء الأحوال الاقتصادية نتيجة انتشار الأوبئة والمجاعات داخل تلك الدولة ، الأمر الذى ترتب عليه

آثار خطيرة زادت من تفكك العالم الاسلامى ، وطمع الصليبيين فى الظفر بأجزاء جديدة منه . فالى جانب قيام الخلافة الفاطمية الشيعية بدور المناوئ والمنافس والمعادى للخلافة العباسية السنية في بغداد ، فان ذلك الصراع والنزاع بين الوزراء فى الدولة الفاطمية زاد خطره باستنجاد بعضهم بالصليبيين الذين قدموا الى مصر لنصرة بعض الوزراء ولتحقيق مزيد من الانتصارات ، ولمنع سقوط مصر فى أيدى القوة الاسلامية الجهادية التي امتدت من الجزيرة الى بلاد الشام.

وبقضاء صلاح الدين على الخلافة الفاطمية فى مصر واعادة الديار المصرية الى حظيرة الخلافة العباسية السنية فى بغداد فى سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، حقق صلاح الدين للعالم الاسلامى وحدته المذهبية ، ووضع الوجود الصليبى الذى كان يسيطر على أجزاء من بلاد الشام بين شقى الرحى ، وقضى على كل أطماعهم التوسعية ، وكانت بداية النهاية للوجود الصليبى فى بلاد الشام .

وأوضحت الدراسة أن بلاد الشام قد تعرضت لمصير سئ عقب وفاة السلطان نور الدين محمود وتولى ابنه الصغير الملك الصالح اسماعيل سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م . فقد تنافس الأمراء بعد وفاة نور الدين على الفوز بالوصاية على ابنه الصغير وتدبير دولته ، مما أضعف مركز الدولة الزنكية أمام الوجود الصليبى الذى كان يسيطر — وقتذاك — على الأجزاء الساحلية من بلاد الشام . وشجع ذلك الخلاف بين الامراء النورية الصليبيين على مهاجمة بعض المدن الشامية

حتى اضطر بعض هؤلاء الامراء الى عقد هدنة مع الصليبيين • الامر الذى أثار غضب صلاح الدين الذى كان آنذاك يفكر جادا فى الحفاظ على وحدة العالم الاسلامى ، وتوجيه جهود أهله لطرد الوجود الصليبى من بلاد الشام • لذلك سارع صلاح الدين بالخروج من مصر على رأس قواته الى بلاد الشام ، وقضى على تلك الخلافات والأطماع ، ووحد البلاد الشامية والمصرية تحت راية واحدة استعدادا للجهاد الاسلامى ضد الصليبيين • وعليه يمكن القول أنه لولا تدخل صلاح الدين ، لخرق الصليبيون — الذين عرفوا بالغدر والخيانة وعدم احترام المواثيق — تلك الهدنة التى عقدها أمراء نور الدين معهم ، وفرضوا سيطرتهم على أجزاء أخرى من بلاد الشام •

والى جانب ذلك فقد اثبتت الدراسة جدوى نظام الاقطاع الحربى الذى أدخله صلاح الدين الى مصر للصرف على جيشه بمختلف عناصره ، حيث وزع صلاح الدين أراضى مصر والشام على شكل اقطاعات بين أهله وأمرائه وقادة جيشه ، مقابل التزامات حربية وخدمات مدنية يؤديها المقطع • وضمن صلاح الدين بهذا النظام حصوله وقت الحرب على جيش منظم مزود بكافة متطلبات القتال • فكانت جيوش الأمراء تأتى مزودة بالأسلحة والمؤن والعتاد يتقدمها الامير المقطع فتشارك مع صلاح الدين معاركه ضد الصليبيين ، على أن تعود الى اقطاعاتها بعد انتهاء المعارك • ولاشك أن صلاح الدين بفضل الله سبحانه وتعالى ثم بفضل نظام الاقطاع الحربى وأثره على التنظيمات الحربية لجيشه ، استطاع

أن يحقق تلك الانتصارات الرائعة ضد الصليبيين حتى استرد بيت المقدس .

كما أثبتت الدراسة براعة صلاح الدين فى وضع التنظيمات العسكرية البارعة ، اذ اتبع فى جهاده ضد الصليبيين خططا عسكرية متنوعة ، منها ما كان يقوم على أساس الاشتباك مع العدو فى معارك مكشوفة على شكل التعبئة القتالية المعروفة ، ومنها ما كان يعتمد على أساليب الكر والفر ، فضلا عما قامت به فرق من جيشه من أعمال فدائية كان الهدف منها انهاك العدو وكشف خططه . يضاف الى ذلك الخطط البارعة التى اتبعها صلاح الدين فى حصاره للمدن والقلاع التى تقوم على ضرب الاسوار بالمنجنيقات ومن ثم تقدم فرق من جيشه على شكل زحوف تحميها سهام الرماه نحو الاسوار لنقبها وفتح الثغرات فيها تمهيدا لاقتحامها والاستيلاء عليها . كما ثبت أيضا أن صلاح الدين أدرك منذ دخوله مصر مع عمه أسد الدين شيركوه ما للبحرية من أهمية فى الجهاد ضد الصليبيين ، لذلك فقد عمل منذ بداية عهده على اعادة بناء الاسطول الاسلامى الذى كان قد ضعف فى أواخر الدولة الفاطمية ، فانشأ دورا للصناعة فى الموانىء المصرية قامت ببناء اسطولا اسلاميا حقق صلاح الدين بفضله انتصارات بحرية عظيمة .

وأوضحت الدراسة أيضا مدى ما توصل اليه المسلمون فى القرن السادس الهجرى من انتاج أسلحة متطورة كان لها الأثر البالغ فيما حققوه من انتصارات على الصليبيين . فالى جانب استخدامهم للاسلحة الثقيلة كالمنجنيقات والدبابات

وغيرها ، عرفوا أسرار أعظم سلاح عرفته العصور الوسطى ذلك هو سلاح النفط (النار الاغريقية) ، وبرع المسلمون فى صناعة أنواع متعددة منه ، ومن ثم استخدامه بطرق مختلفة فى قتال الاعداء ، واحراق منشآتهم العسكرية • ولعل خير دليل على ذلك ما ألحقه سلاح النفط بتلك الآلات الحربية التى أقامها الصليبيون على عكا أثناء حصارهم لها فيما بين سنتى ٥٨٥ ـ ٥٨٧ هـ ، اذ تمكن المسلمون بفضله من احراق ما أقامه الصليبيون عليها من ابراج ودبابات وغيرها •

وعند دراسة حوادث معركة حطين وما أعقبها من انتصارات ، كان أهمها استعادة بيت المقدس من أيدى الصليبيين ، تبين لنا بوضوح ما كان يتمتع به صلاح الدين من مقدرة عظيمة فى ميادين الادارة والسياسة والحرب يدلنا على ذلك الخطط السياسية والحربية التى نفذها صلاح الدين باحكام للتمهيد لضرب الصليبيين فى حطين ، اذ بذل قصارى جهده لتكوين قوة اسلامية تؤمن ايمانا تاما بفكرة الجهاد الاسلامى ، الذى حرص صلاح الدين منذ بداية عهده على غرسه فى نفوس رجاله ، ومن ثم اختيار المكان والزمان المناسب الذى يستطيع جيشه فيه ضرب الصليبيين ضربة قوية لا تقوم لهم بعدها قائمة • وقام الى جانب ذلك بتنفيذ خطط سياسية تقوم على ادخال الخلل والفرقة فى صفوف الصليبيين لاضعافهم وذلك بالايقاع بين كبار قادتهم ومساعدة بعضهم على بعض ، هذا فضلا عن تمكن صلاح الدين من اقامة علاقات طيبة مع الامبراطور البيزنطى لحرمان الصليبيين من أية مساعدة بيزنطية • وبالفعل فقد أثمرت

تلك الجهود فى تحقيق ذلك الانتصار الحاسم فى معركة حطين . وحرص صلاح الدين قبل بدأ المعركة على التمركز فى أماكن طيبة تتوافر فيها المياه والمراعى ، ثم قام بالهجوم على طبرية لاستفزاز الصليبيين وجذبهم اليه وانزالهم فى المكان الذى يريد ، وضربهم ضربة قاضية راح ضحيتها معظم الصليبيين بين قتيل وأسير وفقد الصليبيون أعظم قادتهم وفرسانهم . ثم اتجه صلاح الدين بعد انتصاره الحاسم فى تلك المعركة الى الاستيلاء على مدن الساحل ليحكم العزلة على مملكة بيت المقدس ويقطع عنها الامدادات الخارجية التى كانت تصلها من الغرب الأوربى ومن الامارات الصليبية ببلاد الشام ، حتى تمكن فى النهاية من استرداد بيت المقدس .

وعند دراسة موضوع استرداد صلاح الدين البيت المقدس اتضح مدى ما ألحقته معركة حطين من خسائر مادية ومعنوية بالصليبيين حتى أصبحوا فى وضع يرثى له . وظهر أثر ذلك بوضوح عندما اتجه صلاح الدين لاستعادة بيت المقدس . فما أن شاهد الصليبيون جيوشه تقتحم أسوار المدينة حتى نادوا بطلب الأمان ، والسماح لهم بالخروج من بيت المقدس مقابل تسليمه . وهنا يظهر بوضوح ذلك الفرق الشاسع بين هذا السلوك الاسلامى الذى تميز بالتسامح والشهامة والمروءة ، وبين ذلك السلوك الصليبى الهمجى عندما خاض الصليبيون بأقدامهم فى دماء المسلمين عند استيلائهم على بيت المقدس سنة ٤٩٢ هـ .

وألقت الدراسة الأضواء على حوادث الحملة الصليبية الثالثة التي جاءت الى بلاد الشام بعددها وعتادها يتقدمها أعظم ملوك وأباطرة أوربا . وأثبتت الدراسة أن استرداد صلاح الدين لبيت المقدس من الصليبيين قد ترتب عليه آثار وأصداء كثيرة في الغرب الأوربي الذي سارع بارسال حملة صليبية ثالثة تولت البابوية الاعداد لها ، وخرجت جموع أوربية متباينة الأجناس الى بلاد الشام ، لمحاولة استرجاع بيت المقدس من المسلمين . الا أن تلك الحملة قد تظافرت عوامل عدة في افشال مهمتها وعجزها عن تحقيق أهدافها ، وأهم هذه العوامل استشعار المسلمين للخطر الصليبي واستبسالهم في الدفاع عن بلادهم ومقدساتهم . يضاف الى ذلك اختلاف كلمة الصليبيين منذ البداية ، ويظهر ذلك بوضوح في اختلاف طرق سير تلك الحملة ، حيث سار قسم منها عبر الطريق البري ، والقسم الآخر عبر الطريق البحري ، فضلا عما تعرض له الصليبيون من كوارث وخسائر ، هذا بالاضافة الى ما حدث بين قادتها من خلافات وأحقاد بسبب العداء التقليدي المتأصل بينهم .

وأخيرا فانه يمكننا القول أن صلاح الدين بهذه الاعمال الجليلة قد وضع الأسس الصحيحة لمن أتى بعده من سلاطين المسلمين الذين ساروا على نهجه ، فأخلصوا النية لله تعالى ، وجاهدوا في سبيله حق جهاده ، وأنزلوا بالصليبيين ضربات متلاحقة لم يفيقوا منها حتى تم طردهم نهائيا من بلاد الشام سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م . أما مكانة صلاح الدين الأيوبي في تاريخ الجهاد الاسلامي فستظل

ان شاء الله تعالى — عظيمة خالدة أبد الدهر حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها فهو الذى استرد بيت المقدس أول القبلتين وثالث الحرمين .

والله ولى التوفيـــق ،،،،

****

الملاحق

الملحق الأول :

رسالة صلاح الدين الى الخليفة العباسي المستضيء بأمر الله سنة ٥٧٠ هـ

الملحق الثاني :

اهتمام صلاح الدين بأمر الجهاد

الملحق الثالث :

خطبة القاضي محيي الدين بن زكي الدين بعد استرداد بيت المقدس .

يوم الجمعة ٤ شعبان ٥٨٣ هـ

الملحق الرابع :

رسالة صلاح الدين الى الديوان العزيز للبشرى بفتح بيت المقدس .

الملحق الأول

رسالة صلاح الدين الى الخليفة العباسى المستضىء بأمر الله سنة ٥٧٠ هـ

فصل :ــ ثم أرسل السلطان ، الخطيب شمس الدين بن الوزير ابى المضاء الى الديوان العزيز برسالة ضمنها القاضى الفاضل كتابا طويلا رائقا فائقا ، يشتمل على تعداد ما للسلطان من الأيادى من جهاد الافرنج فى حياة نور الدين ، ثم فتح مصر واليمن ، وبلاد جمة من أطراف المغرب واقامة الخطبة العباسية بها . يقول فيه :

فانا كنا نقتبس النار باكفنا وغيرنا يستنير ، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير ، ونلقى السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير ، ونصافح الصفاح بصدورنا وغيرنا يدعى التصدير ، ولابد أن نسترد بضاعتنا بموقف العدل الذى ترد به الغصوب ، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب . وما كان العائق الا أنا كنا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمة يضاهى ابتداءنا بالخدمة ، وانجابا للحق ، يشاكل انجابنا للسبق . كان أول أمرنا انا كنا فى الشام نفتتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ، ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا ، ونحن ووالدنا وعمنا . فأى مدينة فتحت أو معقل ملك ، أو عسكر للعدو كسر أو مصاف للاسلام معه ضرب (ولم نكن فيه) . فما يجهل أحد صنعنا ولا يجحد

عدونا أنا نصطلى الجمرة ونملك الكرة ، ونتقدم الجماعة ، ونرتب المقاتلة ، وندبر التعبئة الى أن ظهرت فى الشام الآثار التى لنا أجرها ، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها •

وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير ، وبما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير ، وأن النظام بها قد فسد ، والاسلام بها قد ضعف عن اقامته كل من قام وقعد ، والفرنج قد احتاج من يدبرها الى أن يقاطعهم بأموال كثيرة ، لها مقادير خطيرة • وأن كلمة السنة بها وان كانت مجموعة فانها مقموعة ، وأحكام الشريعة وان كانت مسماة فانها متحاماه ، وتلك البدع بها على ما يعلم ، وتلك الضلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الاسلام ويحكم ، وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم ، وتلك الانصاب قد نصبت آلهة تعبد من دون الله ، وتعظم وتفخم ، فتعالى الله عن شبه العباد ، وويل لمن غره تقلب الذين كفروا فى البلاد • فسمت همتنا دون همم أهل الأرض الى أن نستفتح مقفلها ، ونسترجع للاسلام شاردها ، ونعيد على الدين ضالته منها • فسرنا اليها فى عساكر ضخمة وجموع جمة وبأموال انتهكت الموجود ، وبلغت منا المجهود ، أنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا ، وثمن أسارى الفرنج الواقعين فى قبضتنا فعرضت عوارض منعت ، وتوجهت للمصريين رسل باستنجاد الفرنج قطعت ، ولكل أجل كتاب ، ولكل أمل باب ، وكان فى تقدير الله تعالى أنا نملكها على الوجه الاحسن ، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن ، فغدر الفرنج

بالمصريين [١] غدرة في هدنة عظم خطبها وخبطها ، وعلم أن استئصال كلمة الاسلام محطها • فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان ، كما كاتبنا المسلمون في الشام في هذا الأوان ، بأنا وان لم ندرك الأمر والا خرج عن اليد ، وان لم ندفع غريم اليوم لم نمهل الى الغد • فسرنا بالعساكر المجموعة والامراء والاهل الموروفة ، الى بلاد قد تمهد لنا بها أمران ، وتقرر لنا في القلوب ودّان ، الأول ما علموه من ايثارنا للمذهب الأقوم ، واحياء الحق الأقدم ، والآخر ما يرجونه من فك أسارهم ، واقالة عثارهم • ففعل الله ما هو أهله وجاء الخبر الى العدو فانقطع حبله ، وضاقت به سبله ، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورساتيقها [٢] وبلادها وأقاليمها قد نفذت فيها أوامره ، وخفقت عليها صلبانه ونصبت بها أوثانه ، وأيس من أن يسترجع ما كان بأيديهم حاصلا ، وان يستنقذ ما صار في ملكهم داخلا • ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير ، وسوادهم كبير ، وأموالهم واسعة ، وكلمتهم جامعة ، وهم على حرب الاسلام أقدر منهم على حرب الكفار ، والحيلة في السر فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر ، وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف ، كلهم أغنام أعجام ، ان هم الا كالانعام ، لايعرفون ربا الا ساكن قصره ، ولا قبلة الا ما يتوجهون اليه من ركنه ، وامتثال أمره ، وبها عسكر من الأرمن باقون على النصرانية موضوعة عنهم الجزية ، كانت لهم شوكة وشكة وحمة وحمية ، ولهم حواش لقصورهم

---

(١) أي الفاطميين •

(٢) جمع رستاق : لفظ فارسي معناه القرية أو محلة العسكر أو البلد ، وتعريبها الرزداق ، وجمعها الرزداقات والرزاديق (ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦١٨ حاشية) •

من بين داع [1] تتلطف فى الضلال مداخله ، وتصيب القلوب مخاتله ومن بين كتآب تفعل أقلامهم أفعال الاسل ، وخدّام يجمعون الى سواد الوجوه سواد النحل ، ودولة قد كبر نملها الصغير ، ولم يعرف غيرها الكبير ، ومهابة تمنع من خطرات الضمير ، فكيف بخطوات التدبير . هذا الى استباحة للمحارم ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادة جارية جائرة ، وتحريف للشريعة بالتأويل ، وعدول الى غير مراد الله بالتنزيل ، وكفر سمى بغير اسمه ، وشرع يستر به ويحكم بغير حكمه . فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشفار ونتحيّفهم تحيّف الليل والنهار ، بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير ، وغرائب تقدير لا تحملها الاساطير ، ولطيف توصّل ما كان من جبلة البشر ولا قدرتهم لولا اعانة المقادير . وفى أثناء ذلك استنجدوا علينا بالفرنج دفعة الى بلبيس ودفعة الى دمياط ، وفى كل دفعة منهما وصلوا بالعدو المجهر ، والحشد الاوفر ، وخصوصا فى نوبة دمياط ، فهم نزلوها بحرا فى ألف مركب ، مقاتل وحامل ، وبرا فى مائتى ألف فارس وراجل ، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ، ويماسونها ويصابحونها ، القتال الذى يصلبه الصليب ، والقراع الذى ينادى به الموت (كل) مكان قريب . ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر ، ونصابر الضرّرين المنافق والكافر ، حتى أتى

---

(١) يقصد بها الداعى الى المذهب الفاطمى أو الاسماعيلى أو [illegible]

الله بأمره ، وأيدنا بنصره ، وخابت المطامع من المصريين والفرنج . وشرعنا فـي تلك الطوائف من الأرمن والسودان والاجناد فأخرجناهم من القاهرة ، تـارة بالأوامر المرهقة لهم وتارة بالامور الفاضحة منهم و (طورا) بالسيوف المجردة ، وبالنار المحرقة ، حتى بقي القصر ومن به من خدم ومن ذرية قد تفرقت شيعـة ، وتمزقت بدعه ، وخفتت دعوته ، وخفيت ضلالته ، فهنالك تم لنا اقامة الكلمـة والجهر بالخطابة ، والرفع للواء الأسود المعظم ، وعاجل الله الطاغية الأكـبر بهلاكه وبرأنا من عهدة يمين كان اثم حنثها أيسر من اثم ابقائه ، لانه عوجـل لفرط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته . ولما خلا درعنا ، ورحب وسعنا ، نظرنا في الغزوات الى بلاد الكفار فلم تخرج سنة الا عن سنة أقيمت فيها بـرا وبحرا ، مركبا وظهرا ، الى أن أوسقناهم قتلا وأسرا وملكنا رقابهم قهرا وقسرا ، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الاسلام فيها منذ أخذت من أيديهم ، ولا أوجفت خيلهم ولا ركابهم مذ ملكها أعاديهم فمنها ما حكمت فيه يد الخراب ، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب ، ومنها قلعة . بثغر أيله كان العدو قـد بناها في بحر الهند ، وهو المسلوك منه الحرمين واليمن ، وغزا ساحل الحـرم ، فساء منا خلقا ، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقا ، فكادت القبلة أن يسـتولى على أصلها ، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها ، ومقام الخليل عليه السلام ، أن يقوم به من ناره غير برد الاسلام ، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتطرقه من لا يدين بما جاء به من الاسلام ، فأخذت هذه القلعة وصارت معقلا للجهـاد ، وموئلا لسفار البلاد ، وغيرهم من عباد الله .

وسيّرنا الخلع والمناشير والالوية بما فيها من الاوامر والاقضية • فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد ، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشداد ، فمنهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية الاكبر ، والجالوت الأكفر ، وصاحب المملكة التي أكلت على الدهر وشربت ، وقائم النصرانية الذى حكمت دولته على ممالكها وغلبت ، جرت لنا معه غزوات بحريه ومناقلات ظاهره وسرية ، ولم نخرج من مصر الى أن وصلتنا رسله فى جمعة واحدة نوبتين بكتابين ، كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح والقاء السلاح ، والانتقال من معاداة الى مهاداة ، ومن مفاضحه الى مناصحه ، حتى أنه أنذر بصاحب صقلية وأساطيله التى تردد ذكرها وعساكره التى لم يخف أمرها •

ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية ، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا فى نوبه دمياط فغلبا وقسرا ، وهزما وكسرا ، أراد أن يظهر قوته المستقلة ، فعمر اسطولا استوعب فيه ماله وزمانه ، فله الآن خمس سنين تكثر عدته ، وتنتخب عدته ، الى أن وصل منها فى السنة الخالية الى الاسكندرية أمر رائع ، وخطب هائل ، ما أثقل ظهر البحر مثل حمله ، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله ، وما هو الا أقليم بل أقاليم ، نقله ، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله •

ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنه والجنويه (١) ، كل هؤلاء تارة

---

(١) البنادقة : أهل مدينة البندقية ، والبياشنه : أهل مدينة بيزا ، والجنويه أهل مدينة جنوه ، وكلها مناالمدن الايطالية التى اشتهرت بنشاطها التجارى البحرى •

وكان باليمن ما علم من ابن مهدى الضال الملحد ، المبدع المتمرد ، وله آثار في الاسلام ، وثار طالبه النبى عليه الصلاة والسلام ، لأنه سبى الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البخس ، واستباح منهم كل مالا يقر لمسلم عليه نفسه ودان ببدعة ، ودعا الى قبر ابيه وسماه كعبة ، وأخذ أموال الرعايا المعصومة ، وأحل الفروج المحرمة وأباحها • فانهضنا اليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا نفقات واسعة وأسلحة رائعة ، وسار فأخذناه ولله الحمد ، وانجح الله فيه القصد ، والكلمة هنالك بمشيئة الله الى الهند سامية ، والى ما يفتض الاسلام عذرته متمادية • ولنا فى الغرب أثر أغرب ، وفى أعماله أعمال دون مطلبها مهالك ، كما يكون المهلك دون المطلب ، وذلك أن بنى عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم قد أمر ، وملكهم قد عمر وجيوشهم لا تطاق ، وأمرهم لا يشاق ، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلادا تزيد مسافتها على شهر ، وسيرنا اليها عسكرا بعد عسكر ، فرجع بنصر الله بعد نصر ، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير : برقة ، قفصة ، قسطيليه ، توزر ، كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين ، سلام الله عليه ، ولا عهد للاسلام باقامتها ، وينفذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها •

وفى هذه السنة كان عندنا وفد قد شاهده وفود الامصار ، ورموه باسماع وأبصار ، مقداره سبعون راكبا ، كلهم يطلب لسلطان بلده تقليدا ، ويرجو منا وعدا ويخاف وعيدا • وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها ، وألقيت الينا مقاليدها

يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفّارا يحتكمون على الاسلام فى الأموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الاحكام المرهوبة ، وما منهم الا من هو الآن يجلب الى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب الينا باهداء طرائف أعماله وتلاده ، وكلهم قد قررّت معهم المواصله ، وانتظمت معهم المسالمة ، على ما نريد ويكرهون وعلى ما نؤثر وهم لا يؤثرون .

ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النوريه ، وكنا تلك السنة على نية الغزاة ، والعساكر قد تجهزت ، والمضارب قد برزت ، ونزل الفرنج (على) بانياس ، وأشرفوا على اجتيازها ، ورأوها فرصة مدّوا يد انتهازها ، واستصرخ بنا صاحبها فسرنا مراحل اتصل بالعدو أمرها ، وعوجل بالهدنة الدمشقية التى لولا مسيرنا ما انتظم حكمها .

ثم عدنا الى البلاد وتوافت الينا الأخبار بما المملكة النوريه عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطعها ، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب وكل جانب قد طمح اليه طالب ، والفرنج قد بنوا قلاعا يتحيفون بها الأطراف الاسلامية ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النوريه قد سجن كبارهم وعوقبوا وصودروا ، والمماليك الأعداد الذين خدموا الاطراف لا الصدور ، وجعلوها للقيام لا للقعود فى المجلس المحضور ، قد مدوا الأيدى والأعين والسيوف ، وسارت سيرتهم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يدا ، ويجعلهم لظهوره سندا ، وعلمنا أن البيت المقدس أن لم تتيسر الأسباب لفتحه

وأمر الكفران لم يجرد العزم فى قلعه ، ولا ثبتت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه وكانت الحجة لله قائمة ، وهم القادرين بالقعود آثمة . وانا لا نتمكن بمصر فيه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة وكلال الدواب التى بها على الجهاد القوة ، واذا جاورناه كانت المصلحة باديه والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخيل مستريحة ، والعساكر كثيرة الجموع ، والأوقات مساعدة وأصلحنا ما فى الشام من عقائد معتلة وأمور مختلة ، وآراء فاسدة ، وأمراء متحاسدة ، وأطماع غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه ، فانا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء خدمته وهم عاملون بظلمه .

والمراد الآن هو كل ما يقوى الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد ، وان يطبق الاسم العباسى كل ما تطبقه العهاد ، وهو تقليد جامع بمصر واليمن والمغرب والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولايات النوريه ، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا ، ولمن نقيمه من أخ أو ولد من بعدنا ، تقليدا يضمن للنعمة تخليدا ، وللدعوة تجديدا مع ما ينعم به من السمات التى فيها الملك . وبالجملة فالشام لا ينتظم أموره بمن فيه ، والبيت المقدس ليس له قرن يقوم به ويكفيه ، والفرنج فهم يعرفون منا خصما لا يمل الشر حتى يملوا ، وقرنا لا يزال محرم السيف حتى يجلوا ، واذا شد رأينا حسن الرأى ضربنا بسيف يقطع غمده ، وبلغنا

المثى بمشيئة الله تعالى ويد كل مؤ من تحت برده ، واستنقذنا أسيرا مـــــن
المسجد الذى أسرى الله اليه بعبده •

****

الملحـق الثانـــى

(١)
اهتمام صلاح الدين بأمـــر الجهـــاد

ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه ، عظيم الاهتمام به ، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه الى الجهاد دينارا ولا درهما الا فى الجهـــاد أو فى الارفاد ، لصدق وبرّ فى يمينـــه . ولقد كان الجهاد حبه ، والشغف بـــه قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما ، بحيث ما كان له حديث الا فيه ، ولا نظر الا فى آلته ، ولا كان له اهتمام الا برجاله ، ولا ميل الا الـــى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله وأولاده ، ووطنه وسكنه وسائر ملاذه ، وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة تهب بهـــا الرياح يمنة ويسرة ، ولقد وقعت عليه الخيمة فى ليلة ريّحه على مرج عكا ، فلـــو لم يكن فى البرج والا قتلته ، ولا يزيده ذلك الا رغبة ومصابرة واهتماما .

وكان الرجل اذا أراد أن يتقرب اليه يحثه على الجهاد أويذكر شيـــئا من أخبار الجهاد ، ولقد ألف له كتب عدة فى الجهاد ، وانا ممن جمع له فيـــه كتابا ، جمعت فيه آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فى فضـــله ، وشرحت غريبها ، وكان رحمه الله ــ كثيرا ما يطالعه حتى أخذه منه ولده الملك

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢١ ــ ٢٣ .

الأفضل عز نصره . ولا

ولأحكين عنه ما سمعته منه : وذلك أنه كان قد أخذ كوكب فى ذى القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، وأعطى العساكر دستورا ، وأخذ عسكر مصر فى العود الى مصر ، وكان مقدمه أخاه الملك العادل — عز نصره — فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد فى القدس الشريف — حرسه الله تعالى — وسرنا فى خدمته . ولما صلى العيد فى القدس وقع له أنه مضى معهم الى عسقلان ، ويودعهم بعسقلان ، ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية الى عكا ، ويرتب أحوالها ، فأشاروا عليه أن لا يفعل فان العساكر اذا فارقتنا نبقى فى عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور وهذه مخاطرة عظيمة فلم يلتفت — رحمه الله — وودع أخاه والعسكر بعسقلان .

ثم سرنا فى خدمته على الساحل طالبين عكا ، وكان الزمان شتاء عظيما والبحر هائجا هيجانا شديد ، وموجه كالجبال ، كما قال الله تعالى ، وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم أمر البحر عندى حتى خيّل الىّ أنى لو قال لى قائل ان جزت فى البحر ميلا واحدا ملكتك الدنيا ، لما كنت أفعل ، واستسخفت رأى من ركب البحر رجاء لكسب دينار أو درهم واستحسنت رأى من لا يقبل شهادة راكب بحر . هذا كله خطر لى لعظم الهول الذى شاهدته من حركة البحر وتموجه فبينا أنا فى ذلك اذا التفت الىّ رحمه الله وقال : « أما أحكى لك شيئا ؟ قلت : بلى ، فقال : فى نفسى ، أنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل

قسمت البلاد ، وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر الى جزائرهم ، اتتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت .

فعظم وقع هذا الكلام عندى حيث ناقض ما كان خطر لى ، وقلت له :

" ليس فى الأرض أشجع نفسا من المولى ، ولا أقوى منه نية فى نصرة دين الله تعالى " .

فقال : فكيف .

فقلت : أما الشجاعة فلأن مولانا ما يهوله أمر هذا وهو له ، وأما نصرة دين الله فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص فى الأرض منهم .

وأستأذنت فى أن أحكى له ما كان خطر لى ، فأذن ، فحكيت له ثم قلت : ما هذه الانية جميلة ، ولكن المولى يسيّر فى البحر العساكر ، وهو سور الاسلام ومنعته ، فلا ينبغى له أن يخاطر بنفسه .

فقال : انا استفتيك ؟ ما أشرف الميتات

فقلت : الموت فى سبيل الله .

فقال : غاية ما فى الباب أن أموت أشرف الميتات .

فأنظر الى هذه الطويه ما أطهرها ، والى هذه النفس ما أشجعها

وأجسرها ، رحمه الله .

اللهم انك تعلم أنه بذل جهده في نصرة دينك ، وجاهد رجاء رحمتك فأرحمـــــه . "

****

الملحق الثالث

خطبة القاضي محيى الدين بن زكى الدين بعد استرداد بيت المقدس يوم الجمعة ٤ شعبان ٥٨٣ هـ (١)

ولما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح ، وهو الرابع من شعبان ، حضر المسلمون الحرم الشريف فغص بالزحام ، فانه من حين تسامع الناس به فى سائر الاطراف ، وكسر العدو ، والقصد الى فتح بيت المقدس ، توافى الناس من كل صقع ، وجاءوا من كل فج ، ليفوزوا بالزيارة ، ويحظوا بالمشاهدة للفتح ، فاجتمع من أهل الاسلام عدد عظيم لا يقع عليهم الاحصاء ، فلما أذن الظهر من يوم هذه الجمعة المباركة حضر السلطان بقبة الصخرة المقدسة وهو فى غاية السرور والفرح ، اذ جعله الله تعالى فى هذا الفتح ثانيا لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - الفاتح الأول وميزه بهذه المنقبة دون سائر الملوك من ملوك الاسلام.

وامتلأت أعراص المسجد وصحونه بالخلائق ، واستعبرت العيون من شدة الفرح وخشعت الاصوات ، ووجلت القلوب ، وكان رجماعة من الأكابر والعلماء قد رشحوا أنفسهم للخطبة فى هذا المسجد المعظم ، وأخذوا لذلك أهبته وألفوا ما يخطبون به ، ومنهم من عرض للسلطان أن يطلب ذلك ، ومنهم من صرح ، والسلطان ساكت لا يبدى سره ، فلما حان وقت الخطبة نصّ على القاضى محيى الدين بن زكى الدين ، وقدمه لهذا الأمر الجليل ، فرقى المنبر بالأهبة

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٨ - ٢٢٧ .

السوداء العباسية ، وخطب خطبة بديعة بليغة ، هي :ـ

« فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » (١)

« الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين » (٢)

« الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » (٣).

« وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا » (٤).

« الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجا ، قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ، ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا » (٥).

« قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون » (٦)

---

(١) سورة الانعام ، آية ٤٥ .
(٢) « الفاتحة ، « ٢ .
(٣) « الانعام ، « ١ .
(٤) « الاسراء ، « ١١١ .
(٥) « الكهف ، آيات ١ ـ ٥ .
(٦) « النمل ، آية ٥٩ .

« الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور » (١)

« الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا » (٢) .

الحمد لله معز الاسلام بنصره ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذى قدر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاض على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليقته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع .

أحمده على اظفاره واظهاره ، واعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاده .

وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، دافع الشرك ، وداحض الافك ، الذى أسرى به ليلا من المسجد الحرام الى هذا المسجد الأقصى ، وعرج به منه الى

---

(١) سورة سبأ ، آية ١ ــ ٢ .
(٢) " فاطر ، " ١ .

وكرمه بنبوته ، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته فقال تعالى " لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله " (١) وقال " لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم " (٢)

وهو أول القبلتين ، وثانى المسجدين ، وثالث الحرمين ، ولا تشد الرحال بعد المسجدين الا اليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين الا عليه ، ولولا انكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ولا يباريكم فى شرفها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية والفتوح العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للاسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية .

فجزاكم الله عن محمد نبيه أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء ، وتقبل منا ومنكم ما تقربتم به اليه من مهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهى دار السعداء ، فاقدروا — رحمكم الله — هذه النعمة حق قدرها ، وقوموا لله بواجب شكرها ، فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقر به عينا

---

(١) سورة النساء ، آية ١٧٢ .
(٢) " المائدة ، " ١٧ .

السموات العلى الى سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، ما زاغ البصر وما طغى .

صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق ، السابق الى الايمـــان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذى النورين جامع القرآن ، وعلى أمـــير المؤمنين على بن أبى طالب ، مزازل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحســـان .

أيها الناس : أبشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمة الضالـــة وردها الى مقرها من الاسلام بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبا من مائـــة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع فيه اسمه ، واماطة الشرك عـــن طرقه ، بعد أن امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيـــد ، فانه بنى عليه ، وانه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه ، وهو موطن أبيكـــم ابراهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليهما السلام ، وقبلتكم التى كنتم تصلون اليهـــا ابتداء الاسلام ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ومقر الرسل ومهبط الوحى ، ومنزل تنزل الأمر والنهى ، وهو فى أرض المحشر وصعيد المنشر ، وهو فى الأرض المقدســـة التى ذكرها الله فى كتابه المبين ، وهو المسجد الذى صلى فيه رســـول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذى بعث اللـــه اليه عبده ورسوله وكلمته التى ألقاها الى مريم وروحه عيسى الذى شرفه الله برسـالته

الأنبياء والمرسلون ، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذى يفتح عليه البيت المقدس فى آخر الزمان ، والجند الذى يقوم بسيوفهم بعدة فترة من الرسل أعلام الايمان ، فيوشك أن تكون التهانى به بين أهل الخضراء أكثر من التهانى به بين أهل الغبراء .

اليس هو البيت الذى ذكره الله فى كتابه ونص عليه فى خطابه ؟ فقال تعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى » (١)

أليس هو البيت الذى عظمته الملوك ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الاربعة من الهكم عز وجل ؟ .

أليس هو البيت الذى أمسك الله عز وجل فيه الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب ؟ .

أليس هو البيت الذى أمر الله (تعالى) موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه الا رجلان ، وغضب عليهم من أجله ، وألقاهم فى التيه عقوبة العصيان ؟ .

فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو اسرائيل وقد فضلهم على العالمين ، ووفقكم لما خذل عنه أمم ممن كان قبلكم من الأمم الماضية ، وجمع

---

(١) سورة الاسراء ، آية ١ .

كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمنته كان وقد عن سوف وحتى .

فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنود الأهويتكم جنده ، وشكر لكم الملائكة المنزلون على ما أهديتم الى هذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتحميد ، وما أمطتم فيه عن طرقهم من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاسد الخبيث ، فهو الآن يستغفر لكم أملاك السموات ، ويصلى عليكم الصلوات المباركات .

فاحفظوا — رحمكم الله — هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التى من تمسك بها سلم ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ومواقف الردى ، ورجوع القهقرى ، والنكول عن العدى ، وخذوا فى انتهاز الفرصة ، وازالة ما بقى من الغصة ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وبيعوا أنفسكم عباد الله فى رضاه اذ جعلكم من عباده واياكم أن يستذلكم الشيطان ، وان يتداخلكم الطغيان ، فيخيل اليكم ان هذا النصر بسيوفكم الحداد وبخيولكم الجياد ، وبجلادكم فى موضع الجلاد ، والله ما النصر الا من عند الله ، ان الله عزيز حكيم .

واحذروا — عباد الله — بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل ، وخصكم بهذا النصر المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا كثيرا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه ، فتكونوا كالتى نقضت غزلها من

بعد قوة أنكاثا ، والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، والجهاد الجهاد ، فهو أفضل عباداتكم وأشرف عاداتكم ، أنصروا الله ينصركم ، اذكروا الله يذكركم ، اشكروا الله يزدكم ويشكركم ، جدوا فى حسم الداء ، وقطع شأفة الأعداء ، وتطهير بقية الأرض التى أغضبت الله ورسوله واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله ، فقد نادت الايام بالثارات الاسلامية والملة المحمدية الله أكبر ، فتح الله ونصر ، وغلب الله وقهر ، وأذل الله من كفر .

واعلموا — رحمكم الله — أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ومهمة فأخرجوا اليها هممكم وابرزوها ، وسيروا اليها سرايا عزماتكم وجهزوها ، فالأمور بأواخرها والمكاسب بذخائرها ، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول وهم مثلكم أو دون ، فكيف وقد اضحى فى قبالة الواحد منهم منكم عشرون ، وقد قال تعالى : « ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين » (١)

أعاننا الله واياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجره ، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده ، « ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » (٢) .

ثم أتم الخطابة الأولى وجلس ثم قام وخطب الثانية كما جرت العادة ثم دعا للخليفة الامام الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، ثم قال :—

---

(١) سورة الانفال ، آيـة ٦٥ .
(٢) « آل عمران ، « ١٦٠ .

" اللهم وأدم سلطان عبدك الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك، المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والحامي عن دينك الدافع ، والذاب عن حرمك (وحرم رسولك) المانع ، السيد الأجل ، الملك الناصر جامع كلمة الايمان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الاسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس ، أبي المظفر ، يوسف (صلاح الدين) ابن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين .

اللهم عمّ بدولته البسيطة ، وأجعل ملائكتك براياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه ، وأشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه .

اللهم ابق للاسلام مهجته ، ورق للايمان حوزته ، وانشر في المشارق والمغارب دعوتـــه .

اللهم فكما فتحت على يديه البيت المقدس ، بعد أن ظنت به الظنـون وابتلي المؤمنون ، فافتح على يديه داني الارض ونواصيها ، وملكه صياصي الكفر ونواصيها ، فلا يلقى منهم كتيبة الا فرقها ولا جماعة الا فرقها ولا طائفة بعد طائفة الا الحقها بمن سبقها .

اللهم اشكر عن محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ سعيه ، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه ، واصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك واكنافها .

اللهم ذلل به معاطس الكفار ، وارغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب

ملكه على الامصار ، واثبت سرايا جنوده في سبيل الاقطار .

اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه الى يوم الدين ، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين وأشدد عضده ببقائهم ، واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم .

اللهم فكما جرت على يده في الاسلام هذه الحسنة التي لا تبقى على الأيام ، وتتخلد على مرور الشهور والاعوام ، فارزقه الملك الابدي الذي لا ينفد في دار المتقين ، واجب دعوته في قوله : « رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين » (١)

ثم دعا بما جرت به العادة ، ونزل وصلى بالناس صلاة الجمعة .

---

(١) سورة النمل ، آية ١٩ .

الملحق الرابع

رسالة صلاح الدين الى الديوان العزيز للبشرى بفتح بيت المقدس

وما كتبته الى الديوان العزيز مجده الله للبشرى بفتح القدس مع الرسول ، ضياء الدين الشهرزوري من رسالة :ـ (١)

وقد سبقت البشائر بما منّ الله به من الفتح العظيم ، والنصر العميم ، والعرف الجسيم ، والفضل الوسيم ، واليوم الأغر الاعز الكريم ، والشرف الذى ذخره الله لهذا العصر ليفضله على الاعصار ، وأراد تأخير فخاره الى هذه الأيام ليكون بها تاريخ الفخار . فقد أعجز الملوك عن اقتضاء نصرته ، وافتضاض عذرته ، وخص من أجراه الله على يده بسمو قدره ونمو قدرته ، وأعاد به القدس الى قدسه ، وأظهره وطهره من رجز الكفر ورجسه . وقد رجع الاسلام الغريب منه الى داره ، وخرج قمر الهدى به من أسراره ، وذهبت ظلم الضلاله بأنواره . وعادت الأرض المقدسة الى ما كانت موصوفة به من التقديس ، وأمنت المخلوف فيها وبها فصارت صباح السرى ومناخ التعريس (٢) ، وقد أقصي عن المسجد الاقصى الاقصون من الله الأبعدون ، وتوافد اليه المصطفون الاقربون ، والملائكة

---

(١) العماد ، الفتح ، ص ١٤٧ ـ ١٤٩ .

(٢) عرس القوم : نزلوا للاستراحة من السفر ، والمقصود الاقامة والاستراحة (أنظر العماد ، المصدر نفسه ، ص ١٤٧ حاشية) .

المقربون ، وخرس الناقوس بزجل المسبحين وخرج المفسدون بدخول المصلحين

وقال المحراب لأهله مرحبا وأهلا ، وشمل جماعة المسلمين من اقامة الجمعة والجماعة ما جمع للاسلام فيه شملا . ورفعت الاعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب ، وتلت بألسنة عذبها (نصر من الله وفتح قريب) وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين ، وبعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين . فذكر بها ما كاد ينسى من عهد المعراج النبوى ، وقامت بدلالتها براهين الاعجاز المحمدى وصافحت الأيدى منها موضع القدم . وتجدد لها من البهجة والرسالة ما كان لها فى القدم .

فهو ثانى المسجدين ، بل ثالث الحرمين . فليهنّ البيت الحرام خلاص أخيه البيت المقدس من الأسر ، وأسفار صبح الاسلام بعد طول اعتكار ليل الكفر ، وتطهير مواقف الانبياء صلوات الله عليهم من أدناس الأرجاس ، وتضوع أرج الرجاء فى ارجائه بعد اليأس .

فالحمد لله الذى أبدل الايحاش بالايناس ، ونزع عنه بافاضة خلع الرحمة عليه لباس الباس ، وجعل عصر مولانا أمير المؤمنين — صلوات الله عليه — على الأعصر مفضلا وكمل بهذا الفتح الشريف شرف زمانه ، فأصبح فخر الدين والدنيا به مكملا . ويسر ببركات أيامه فتح البلاد الساحلية بأسرها ، وعجل هلاك هذه الطائفة الطاغية من الفرنج بقتلها وأسرها . ولقد حل الكفر عروة عروة ، وهد ذروة ذروة . وعادت حباله رثاثا ، وعقوده انكاثا ، ومساكنه أجداثا ، وصار

حديثا بعد أن شوهد أهل الذمة أحداثا ٠

فالرتاج (١) مستفتح ، والرجاء مستنجح ٠ والبلاد مستخلصة ، والقيم الغوالي منها بسوم العوالي مسترخصة ، والعقائل مقتضة ، والمعاقل منفضة ، ومناهل المنى بمياة النجاح مرفضه ، ونجوم الرجوم على شياطين الكفر بسيوف أهل الايمان منقضة ، والثغور مبتسمه ، والأمور منتظمة ، والحصون متسلمة ، والخصوم مذعنه مستسلمة ، وأرض الكفر ينقصها الاسلام كل يوم من اطرافها ، بل يستولي على أوساطها وأكنافها ، ويعيد الى الطاعة كرها مذهب خلافها ، ولقد أينع زرعها وثمرها من رؤوس المشركين ، وهذا أوان حصادها وقطافها ٠ والنعمة بحمد الله عظيمة والموهبة وان خصت هذا الاقليم فهى فى جميع أقاليم المسلمين عميمة ٠

ولو شرح ما لهذا الفتح من جلالة المعظمة ، ودلالة المكرمة ، لكبا قلم البليغ فى مضمار البيان ، ولم يبلغ مدى (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا) (٢) والقاضى ضياء

---

(١) الرتاج : الباب المغلق عليه باب صغير ٠
(٢) سورة الكهف ، آية ١٠٩ ٠

الدين القاسم الشهرزوري ، قد توجه لهذه النعمه واصفا ، وعند ما يؤمر به
من انهاء البشرى بها واقفا ، وأولى من وصف العرف من كان بأوصافه عارفا ،
وأحق من شرح الحق والحقيقة من تفى بشرح الصدور صادر شرحه ، ويفتح
على الاسلام أبواب الهناء بانهاء ما تسنى من فتحه ويحدث وهو الضياء
باسفار صبحه ·

****

قائمة المصادر والمراجع

المصـــادر والمراجـــع

أولا : المصادر العربيـــة :

- ابن أبى الهيجاء (ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م)
تاريخ ابن أبى الهيجاء ، مخطوط مصور على ميكروفلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهـــرة رقم ٩٤٥ .

- ابن الأثير (ابو الحسن على بن أبى الكرم محمد ، ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م)
١ ــ التاريخ الباهر فى الدولة الاتابكيـــة
تحقيق عبد القادر طليمات ، ط القاهرة سنة ١٩٦٣م .
٢ ــ الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ــ ١٢ ، ط : ليدن سنة ١٨٧٦م .

- ابن اياس (محمد بن احمد الحنفى ، ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م)
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، ج ١ ، القسم الأول ، تحقيـــق محمد مصطفى ، ط : فسبيادن ، سنة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

- ابن أيبك الدوادارى (ابو بكر عبد الله ، ت ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م)
كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السابع وعنوانه (الدر المطلوب فـــى أخبار بنى أيوب) تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، ط القاهرة . ســـنة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

- ابن بطوطه (ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ، ت ٧٩٧هـ / ١٣٧٧م)
رحلة ابن بطوطه المسماه (تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، ط : القاهرة سنة ١٩٦٤م .

- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي ، ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) .
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٥ ــ ٦ ط القاهرة سنة ١٩٣٥م .

- ابن جبير (محمد بن احمد ، ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧م)
رحلة ابن جبير ، تحقيق حسين نصار ، ط القاهرة، سنة ١٩٥٥م.

- ابن الجوزى (عبد الرحمن بن على ، ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠م)
المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ج ١٠، ط حيدر أباد سنة ١٣٥٨ هـ .

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥م)
تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٤ ــ ٥ ط القاهرة سنة ١٣٩١هـ ــ ١٩٧١ م .

- ابن خلكان (شمس الدين احمد بن محمد ، ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢م)
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ج ١ — ٧
تحقيق احسان عباس ، ط بيروت سنة ١٩٧٢م .

- ابن دقماق (ابراهيم بن محمد ، ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦م)
الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين ،
مخطوط بمكتبة فاتح فى استانبول رقم ٤٣١٣ .

- ابن الراهب (ابو شاكر بطرس بن أبى الكرم المهذب)
تاريخ ابن الراهب ،
عنى بنشره الأب لويس شيخو اليسوعى ، ط بيروت سنة ١٩٠٣م .

- ابن سعيد (ابو الحسن على بن موسى المغربى ، ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤م)
١ — الروض المهضوب فى حلى دولة بنى أيوب ، ج ٢ ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٢ ٢٧ تاريخ
٢ — المغرب فى حلى المغرب ، القسم الخاص بالقاهرة ، تحقيق حسين نصار ، ط القاهرة سنة ١٩٧٠م .

- ابن شاهنشاه الايوبى (محمد بن تقى الدين عمر ، ت ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م)
مضمار الحقائق وسر الخلائق .
تحقيق حسن حبشى ، ط القاهرة سنة ١٩٦٨م .

- ابن الشحنه (ابوالوليد محب الدين محمد بن محمد الحلبى ، ت ٩٢١هـ/ ١٥١٥م)
روضة المناظر فى علم الأوائل والأواخر ، مخطوط بمكتبة السليمانية فــى استانبول رقم ٨٧٠ .

- ابن شداد (بهاء الدين يوسف بن رافع ، ت ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤م)
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ،
تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة سنة ١٩٦٤م .

- ابن شداد (عز الدين عبد الله بن محمد ، ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)
الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة
الجزء الأول ، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث فى استانبول رقم ١٥٦٤ .
الجزء الثالث ، تحقيق سامى الدهان ، ط بيروت سنة ١٩٦٣م .

- ابن الصيرفى (على بن منجب بن سليمان ، ت ٥٤٢هـ / ١١٤٧م)
الاشارة الى من نال الوزارة
تحقيق عبد الله مخلص ، ط القاهرة سنة ١٩٢٤م .

- ابن طبا طبا (محمد بن على)
الفخرى فى الآداب السلطانية ، ط القاهرة ، سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م .

- ابن ظافر الازدى (جمال الدين على ، ت ٦١٣ هـ / ١٢١٦م)
أخبار الدول المنقطعة
تحقيق أندريه فريه ، ط القاهرة ، سنة ٢٩٧٢م ٠

- ابن العبرى (غريغوريوس الملطى ، ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦م)
تاريخ مختصر الدول ، ط بيروت سنة ١٩٥٨م ٠

- ابن العديم (كمال الدين أبى القاسم عمر احمد بن هبة اللـــــه ، ت ٦٦٠ هـ / ١٢٦١م)
١ ـ بغية الطلب فى تاريخ حلب ، ج ٢ ، ٦ ، مخطوطة بمكتبة احمد الثالث فى استانبول رقم ٢٩٢٥ ٠
٢ ـ زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، ج ٢، ٣ ٠
تحقيق سامى الدهان ، ط ٠ بيروت سنة ١٩٦٨م ٠

- ابن العماد الحنبلى (ابو الفلاح عبد الحى ، ت ١٠٨٩ هـ/١٦٧٨م
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج ٤ ، ط القاهرة ١٩٣١م

- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ، ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥م)
تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ، فى جزئين ،
تحقيق حسن محمد الشماع ، ط البصرة سنة ١٩٦٧ ـ ١٩٦٩م ٠

- ابن قاضى شهبه (بدر الدين محمد بن أبى بكر ، ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)
الكواكب الدريه فى السيرة النوريـــه
تحقيق محمود زايد ، ط بيروت سنة ١٩٧١م .

- ابن القلانسى (ابو يعلى حمزه ، ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م)
ذيل تاريخ دمشق ، ط بيروت ، سنة ١٩٠٨م .

- ابن كثير (اسماعيل بن عمر ، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)
البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ط بيروت سنة ١٩٦٦م .

- ابن مماتى (الاسعد بن مماتى ، ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م)
قوانين الدواويـــن
تحقيق عزيز سوريال عطيه ، ط القاهرة سنة ١٩٤٣م .

- ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الانصارى ، ت ٧١١ هـ / ١٣١١م)
لسان العرب ، ج٦ ، ٨ ، ط . القاهرة ١٨٨٢م .

- ابن منقذ (أسامة بن رشد الكنانى ، ت ٥٨٤ هـ / ١١٨٨م)
كتاب الاعتبـــــار
تحقيق فيليب حتى ، ط : جامعة برنستون الولايات المتحدة سنة ١٩٣٠م .

— ابن نباتـــه (جمال الدين محمد)

مختارات من كلام القاضي الفاضـــل

مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٨٨٢ أدب

— ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧م)

١ ـ التاريخ الصالحي

مخطوط بمكتبة فاتح في استانبول رقم ٤٢٢٤ •

٢ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج ١ ـ ٢

تحقيق جمال الدين الشيال ، ط القاهرة سنة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٧•

ج ٤ تحقيق حسنين محمد ربيع ، ط القاهرة سنة ١٩٧٢م•

— ابن الوردي (زين الدين عمر ، ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م)

تتمة المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ط النجف سنة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م •

— أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ، ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م)

١ ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين •

الجزء الأول ، قسمان ، تحقيق محمد حلمي محمد احمد ، ط القاهرة سنة ١٩٦٢م •

الجزء الثاني ط القاهرة سنة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م •

٢ ـ الذيل على الروضتين ،

تحقيق عزت العطار ، ط القاهرة ، سنة ١٩٤٧م •

- ابو الفدا (عماد الدين اسماعيل ، ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م)
  المختصر فى أخبار البشر ، ج ٣ ، ط بيروت .

- الاربلى (عبد الرحمن سنبط بن قنيتو ، ت ٧١٧ هـ / ١٣١٧م)
  خلاصة الذهب المسبوك ، ط بغداد .

- الاصفهانى (عماد الدين أبو حامد محمد بن محمد بن حامد)
  البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان
  مخطوط بمكتبة احمد الثالث فى استانبول رقم ٢٩٥٩ .

- البندارى (قوام الدين الفتح بن على ، ت ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥م)
  سنا البرق الشامى ، القسم الأول ، تحقيق رمضان ششن
  ط ، بيروت سنة ١٩٧٠م .

- الحسن بن عبد الله بن محمد
  آثار الأول فى ترتيب الدول ، ط القاهرة سنة ١٢٩٥هـ .

- الحنبلى (احمد بن ابراهيم نصر الله)
  شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب
  مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٣١ .

- الخوارزمى (ابو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف ، ت ٣٨٧هـ/٩٩٧م)
  مفاتيح العلوم ، ط القاهرة سنة ١٣٤٢هـ .

- الذهبى (الحافظ محمد بن احمد ، ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م)
١ ـ العبر فى خبر من غبر ، ج٤
تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط الكويت سنة ١٩٦٣م .
٢ ـ تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام ، مجلد ٢٧ ،
مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٢ تاريخ
٣ ـ دول الاسلام
مخطوط فى مكتبة احمد الثالث باستانبول .

- الزبيدى (المرتضى)
ترويح القلوب بذكر الملوك بنى أيوب ،
تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط دمشق سنة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩م.

- سبط ابن الجوزى (شمس الدين أبى المظفر يوسف بن قزاوغلى التركى ، ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦م)
مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان ، ج ٨ ، القسم الأول ، ط حيدراباد سنة ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١م .

- السبكى (عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى ، ت ٧٧١ هـ / ١٣٧٠م)
طبقات الشافعية الكبرى ، ج ٦ ـ ٨ .
تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ومحمود محمد الطناحى ، ط القاهرة الطبعة الأولى .

- السيوطى (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن ، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)

١ ـ تاريخ الخلفاء ، ط القاهرة سنة ١٩٥٢م .

٢ ـ حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، ج ٢ ،

تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط القاهرة سنة ١٣٨٧/

١٩٦٨م .

- صالح بن يحيى (من مؤرخى القرن التاسع الهجرى)

تاريخ بيروت ، ط بيروت ١٩٦٩م .

- صلاح الدين الصفدى

أمراء دمشق فى الاسلام .

تحقيق صلاح الدين المنجد ، ط دمشق سنة ١٩٥٥م .

- الطرسوسى (مرضى بن على ، كان معاصرا لصلاح الدين)

تبصرة أرباب الألباب .

تحقيق كلود كاهن فى مجلة معهد الدراسات الشرقية بدمشق ، ج ١٢

- العماد الاصفهانى (ابو عبد الله محمد ، ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠م)

١ ـ البرق الشامى ، ج ٥ ، تحقيق رمضان ششن ، ط استانبول

سنة ١٩٧٩م .

٢ ـ تاريخ دولة آل سلجوق ، ط بيروت سنة ١٩٧٨م .

٣ ـ الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق وشرح وتقديم محمد

محمود صبح ، ط القاهرة سنة ١٩٦٥م .

- العمرى (شهاب الدين احمد يحيى بن فضل الله ، ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م)
مسالك الابصار فى ممالك الامصار ، ج ٧ .
مخطوط بمكتبة احمد الثالث فى استانبول رقم ٢٧٩٧ .

- العينى (بدر الدين محمد بن احمد بن موسى ، ت ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١م)
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، ج ١٢
مخطوط بمكتبة احمد الثالث فى استانبول رقم ٢٩١١ .

- القلقشندى (احمد بن على ، ت ٨٢١ هـ/ ١٤١٨م)
صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ، ج ٣ - ٥ ، ط القاهرة
سنة ١٩١٩ - ١٩٢٢م .

- الكتبى (محمد بن شاكر ، ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣م)
عيون التواريخ
مخطوط بمكتبة احمد الثالث فى استانبول رقم ٢٩٢٢ .

- المقريزى (احمد بن على ، ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م)
١ - التاريخ الكبير المسمى (المقفى فى تراجم أهل مصر والواردين اليها) مخطوطة بمكتبة السليمانية فى استانبول رقم ١٤٩٦
٢ - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، ج ٣
تحقيق محمد حلمى محمد احمد ، ط القاهرة سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١
٣ - اغاثة الامة بكشف الغمه ، قام على نشره محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، ط القاهرة سنة ١٩٤٠م .
٤ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، القسم الأول ،
تحقيق محمد مصطفى زيادة ، ط القاهرة سنة ١٩٥٦م .
٥ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، جزءان ، ط القاهرة سنة ١٢٧٠هـ

- مؤلف مجهـــــول

  خزانة السلاح فى الاسلام

  تحقيق نبيل محمد عبد العزيز ، ط القاهرة سنة ١٩٧٨م .

- النعيمى (عبد القادر محمد ، ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢١م)

  الدارس فى تاريخ المدارس ، ط دمشق سنة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م .

- النويرى (شهاب الدين محمد بن عبد الوهاب ، ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)

  نهاية الأرب فى فنون الأدب

  ج ٨ ، ط القاهرة سنة ١٩٣١م

  ج ٢٦ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامه .

- اليافعى (ابو محمد عبد الله بن سعد ، ت ٧٦٨هـ/١٣٦٦م)

  مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ج ٣ ، ط بيروت سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م

- ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبد الله الحموى الرومى ، ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)

  معجم البلدان ، ج ١ ــ ٥ ، ط بيروت سنة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

ثانيا : المراجع العربيــة والمترجمـــة :

- ابراهيم على طرخــــان
  النظم الاقطاعية فى الشرق الاوسط فى العصور الوسطى ، ط القاهرة سنة ١٩٦٨م •

- احمد مختار العبادى ، والسيد عبد العزيز ســالم •
  تاريخ البحرية الاسلامية فى مصر والشام ، ط بيروت سنة ١٩٧٢م •

- ارشيبالد لويس ،
  القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة محمد عيسى ، ط القاهرة ، ســـنة ١٩٦٠م •

- أرنســت باركـــر
  الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، ط بيروت ســـنة ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م •

- الباز العريــنى
  الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، القسم الأول (الايوبيون) ، ط بيروت ســــنة ١٩٦٧م •

- برنارد لويــس
  الدعوة الاسماعيلية الجديدة (الحشيشيه) ترجمة سهيل زكـــاره ، ط بيروت سنة ١٩٧١م •

- حامد زيـــــان ،

الامبراطور فردريك بربروسا ، ط القاهرة سنة ١٩٧٧م .

- حسن ابراهيـم حسن ،

تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٤ ، ط ، القاهرة سنة ١٩٦٧م .

- حسن حبشـــى ،

١ ـ نور الدين والصليبيون ، ط القاهرة ، سنة ١٩٤٨م .

٢ ـ أعمال الفـرنجة ، ط القاهرة سنة ١٩٥٨م .

- حسنين محمد ربيع ،

١ ـ النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ، ط القاهرة سنة ١٩٦٤م

٢ ـ البحر الاحمر فى العصر الايوبى ، ندوة تاريخ البحر الاحمـــر بجامعة عين شمس سنة ١٩٧٩م .

٣ ـ جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين ، مقال بمجلة رســـالة المسجد العدد الرابع ، ربيع الاول سنة ١٤٠١ هـ .

- ستيفن رنسـيمان ،

تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، ج ٢ ـ ٣ ، ط بيروت سنة ١٩٦٨م .

- سعاد ماهـــر ،

البحرية فى مصر الاسلامية ، ط القاهرة سنة ١٩٦٧م .

- سعيد عبد الفتاح عاشور ،

١ ـ الايوبيون والمماليك فى مصر والشام ، ط القاهرة سنة ١٩٧٦م

٢ ـ أوربا العصور الوسطى ، الجزء الاول ، ط القاهرة سنة ١٩٦٤م

٣ ـ بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، ط بيروت سنة ١٩٧٧م .

٤ ـ تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، ط القاهرة سنة ١٩٧٦م

٥ ـ الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ط القاهرة سنة ١٩٧١م .

٦ ـ قبرص والحروب الصليبية ، ط القاهرة سنة ١٩٥٧م .

٧ ـ الناصر صلاح الدين ، ط القاهرة .

- شاكر مصطفى ،

التاريخ العربى والمؤرخون ، جزءان ، ط بيروت ١٩٨٠م .

- عائشة بنت عبد الله باقاسى

بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى ، ط مكة المكرمة سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

- عبد الرحمن زكى

١ ـ السلاح فى الاسلام ، ط القاهرة ١٩٥١ م .

٢ ـ قلعة صلاح الدين وما حولها من الآثار ، ط القاهرة سنة ١٣٩١هـ/١٩٧١م .

- عبد المنعم ماجد

الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى ، ط بيروت سنة ١٩١٧م .

- عبد النعيم حسنين

سلاجقة ايران ، ط القاهرة سنة ١٣٨٠هـ/١٩٧٠م .

- على بيومى

قيام الدولة الايوبية فى مصر ، ط القاهرة سنة ١٩٥٢م .

- كلود كاهين

تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، ترجمة بدر الدين القاسم ، ط بيروت سنة ١٩٧٧م .

- محمد جمال الدين سرور

الدولة الفاطمية فى مصر ، ط القاهرة سنة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .

- هاملتون جب

دراسات فى حضارة الاسلام ، ط بيروت سنة ١٩٧٤م .

- نظير حسان سعداوى

١ ــ التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين ، ط القاهرة سنة ١٩٥٧م
٢ ــ جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ط القاهرة سنة ١٩٥٩م .
٣ ــ الحرب والسلام زمن العدوان الصليبى ، ط القاهرة سنة ١٩٦١م .
٤ ــ المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين ، ط القاهرة سنة ١٩٦٢م .
٥ ــ نظام البريد فى الدولة الاسلامية ، ط القاهرة سنة ١٣٧٢هـ/١٩٥٣م .

ثالثا : المراجع الأوربية :

— Hassanein Rabie, The Financial system of Egypt, London (1972).

— Brand, The Byzantin and Saladin, speculum, vol.37 (1962) .

— Cambridge History of Islam, vol I, London, (1970)

— Ehrenkreutz

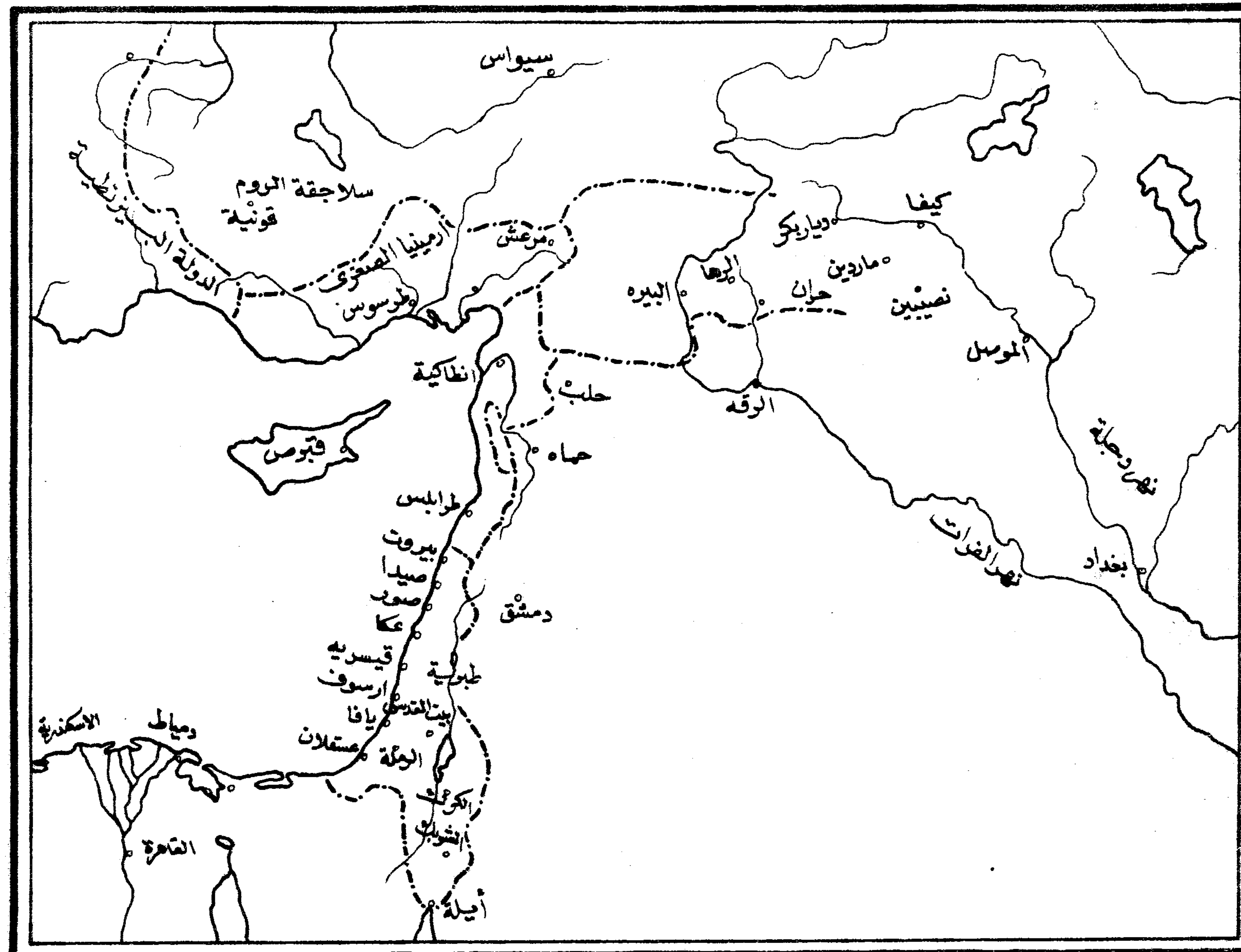
1 - The place of Saladin in the Naval History of the Mediterranean Sea in the Middle Ages, Journal of the American Oriental Society, (1955) vol 15.

2 - Saladin, New York (1972).

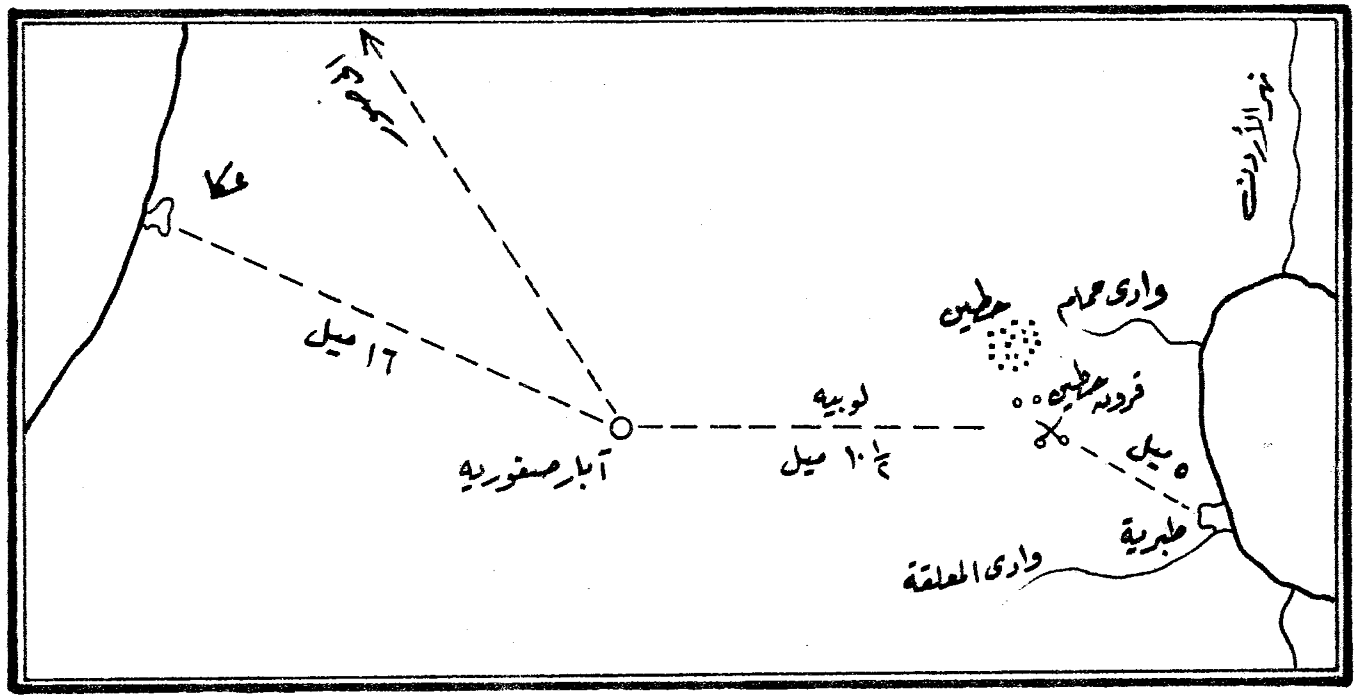
— Lane-Poole, S., Saladin and the Fall of Kingdom of Jerusalem, Beirut (1964)

— Lewis, B., Saladin and the Assassins, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, vol. 15 (1953), pp. 239-245.

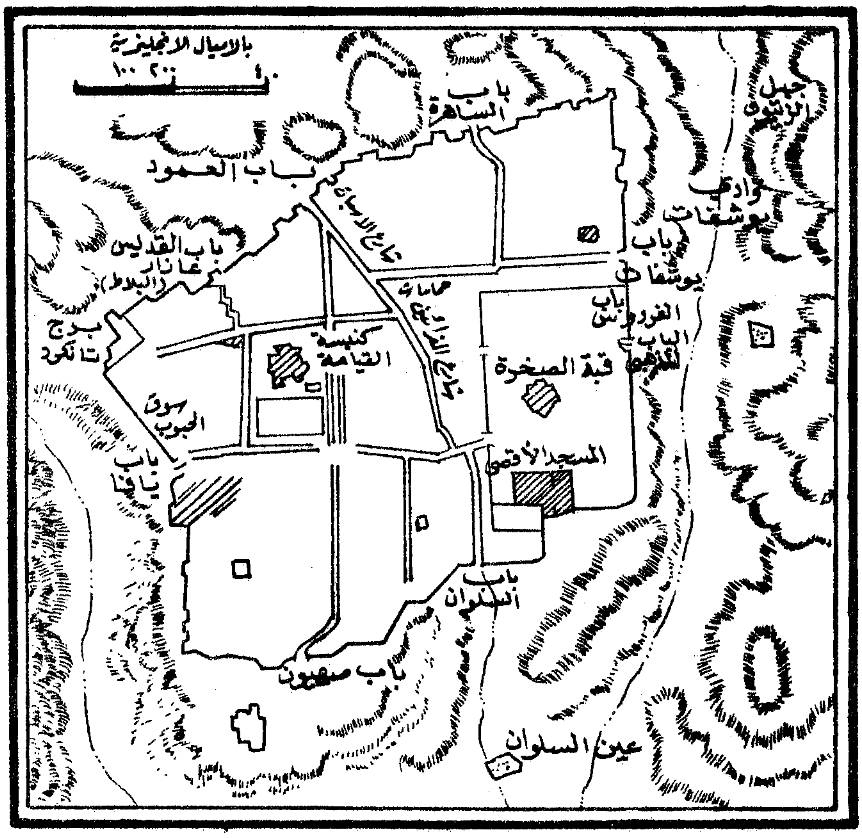
— Richard, (Gean) - An Account of the Battle of Hattin, Speculum, vol 27 '1952).



الشرق الأدنى قبل استرداد بيت المقدس فى عصر صلاح الدين
نقلا عن كتاب الشرق الأدنى فى العصور الوسطى للسيد الباز العرينى



معركة حطين نقلا عن كتاب التاريخ الحربي لنظير حسان سعداوى



بيت المقدس فى عهد صلاح الدين